كارلوس رويث ثافون

أضواء سبتمبر

رواية لليافعين

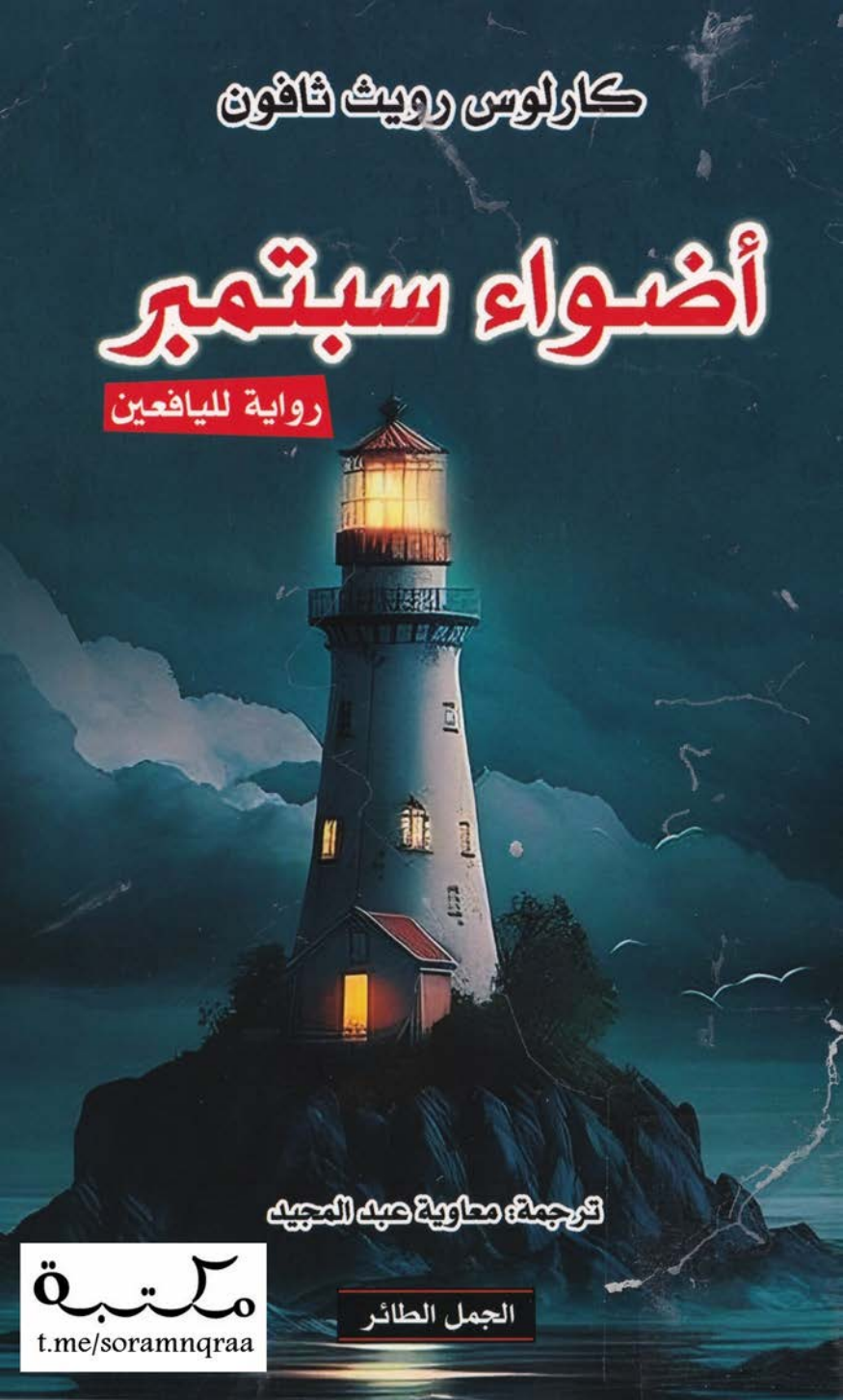

ترجمة: معاوية عبد المجيد

الجمل الطائر

مكتبة
t.me/soramnqraa

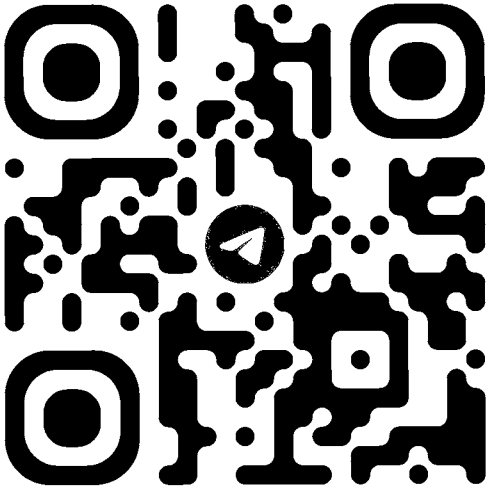

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

كارلوس رويث ثافون: **أضواء سبتمبر**، رواية لليافعين

كارلوس رويث ثافون، أديبٌ إسبانيّ ولد في مدينة برشلونة عام ١٩٦٤. بدأ مسيرته الأدبيّة عام ١٩٩٣ مع سلسلة روائيّة لليافعين استهلّها برواية **أمير الضباب**، لتتلوها **قصر منتصف الليل**، **ثمّ أضواء سبتمبر**، ورواية **مارينا**. وفي عام ٢٠٠١ أصدر رائعته **ظلّ الريح**، وما لبثت أن نالت اهتمامًا عالميًّا وصُنِّفَت بين الكتب الإسبانيّة الأكثر مبيعًا على مستوى العالم، وحصل ثافون بموجبها على ثناء وتقدير، وعدد كبير من الجوائز والتكريم. ثمّ تابع عمله على سلسلة **مقبرة الكتب المنسيّة**، وأصدر **لعبة الملاك**، **سجين السماء**، **متاهة الأرواح**. وافته المنية في لوس أنجلس عام ٢٠٢٠ جرّاء إصابته بمرض سرطان القولون. وإحياءً لذكراه، تعاون أصدقاؤه في دار النشر بلانيتا على جمع أعماله القصصيّة في كتاب واحد حمل عنوان **مدينة من بخار**.

كارلوس رويث ثافون

مكتبة
t.me/soramnqraa

أضواء سبتمبر

رواية لليافعين

ترجمة: معاوية عبد المجيد

الجمل الطائر

معاوية عبد المجيد، مترجم سوريّ من مواليد دمشق عام ١٩٨٥، درس الأدب الإيطاليّ في جامعة سيينا في إيطاليا. علَّمَ اللغة الإيطاليّة في كليّة الآداب في جامعة دمشق. حصل على درجة الماجستير في الثقافة الأدبيّة الأوروبيّة عن قسم الترجمة الأدبيّة من جامعة بولونيا الإيطاليّة وجامعة مولوز الفرنسيّة. صدرت له ترجمات عديدة في العالم العربيّ، مثل **ضمير السيّد زينو** لإيتالو سفيفو، **الشعلة الخفيّة للملكة لوانا** لأمبرتو إيكو، **الرسائل الأخيرة لياكوبو أورتس** لأوغو فوسكولو. حاز عدّة جوائز عالميّة لعمله في مجال الترجمة الأدبيّة. وعن منشورات الجمل صدرت له أعمال الأديب الإسبانيّ كارلوس رويث ثافون: **ظل الريح، لعبة الملاك، سجين السماء، متاهة الأرواح، مدينة من بخار، أمير الضباب، قصر منتصف الليل.**

الجمل الطائر

سلسلة متخصصة بأدب الأطفال والناشئة تصدر عن

منشورات الجمل

كارلوس رويث ثافون: **أضواء سبتمبر**، رواية لليافعين، الطبعة الأولى
ترجمة: معاوية عبد المجيد

منشورات الجمل، الشارقة – بغداد ٢٠٢٤
ص.ب: ٨٠٠٣٣ – الشارقة – الإمارات العربية المتحدة

Carlos Ruiz Zafón: *Las luces de septiembre*
© Carlos Ruiz Zafón 1995, 2007

© *Al-Kamel Verlag* 2024
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

CARLOS RUIZ ZAFÓN

LAS LUCES DE SEPTIEMBRE

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفهرس

كلمة المؤلِّف ٩

١. السماءُ فوق باريس ١٥
٢. الجغرافيا والتشريح ١٩
٣. الخليج الأزرق ٣٩
٤. أسرارٌ وظلال ٦١
٥. قلعةٌ وسط الضباب ٧٩
٦. مذكَّرات ألما مالتيس ١٠٣
٧. دربُ الظلال ١١٥
٨. المجهول ١٣٧
٩. الليلةُ المتحوِّلة ١٥١
١٠. عالقان ١٧٩
١١. الوجهُ خلف القناع ١٩٣
١٢. Doppelgänger ٢٢٣
١٣. أضواءُ سبتمبر ٢٦١

كلمة المؤلِّف

صديقي القارئ،

في بعض الأحيان، يتذكَّرُ القرَّاءُ روايةً بشكلٍ أفضل من مؤلِّفها. يتذكَّرون شخصيّاتِها، ونزاعاتِها، وتعابيرَها، وصورَها، بمحبَّةٍ تُثلِجُ صدرَ الروائيّ الذي بات ينسى الحبكاتِ والمَشاهِدَ التي كتبها منذ أعوامٍ مضت أكثر ممّا يتمنّى. يحدث لي هذا أحيانًا مع الروايات «الشبابيّة» الثلاث الأولى التي كتبتُها ونشرتُها في التسعينات: «أمير الضباب»، «قصر منتصف الليل»، و«أضواء سبتمبر» هذه التي بين يديك الآن. بدا لي على الدوام أنَّ هذه الكتب الثلاثة تُشكِّلُ سلسلةً واحدة، لما تتضمَّنُهُ من حكاياتٍ فيها نقاطٌ مشتركةٌ كثيرة، ناهيك بأنَّها تُحاوِلُ، بطريقةٍ أو أخرى، أن تُشابِهَ الكتبَ التي وددتُ لو أنّي قرأتُها في مراهقتي.

ألَّفتُ «أضواء سبتمبر» في لوس أنجلوس ما بين العامين ١٩٩٤ و١٩٩٥، وكانت النيّةُ أن أُتمِّمَ بعضَ العناصر التي شعرتُ أنَّني لم أتمكَّن من إنجازها كما أردتُ في «أمير الضباب». راجعتُها مؤخّرًا، فأدركتُ أنَّ الرواية تحتوي على عناصر بناء سينمائيّة أكثر من كونها أدبيّة، وأنَّها ستكون مرتبطةً في ذهني دومًا

بالساعات الطويلة التي أمضيتُها صحبة شخصيَّاتها، جالسًا إلى مكتبٍ في الطابق الثالث، يطلُّ على جادة ميلروز، حيث كنتُ أُبصِرُ أحرفَ هوليوود على التلال.

صُمِّمَتِ الروايةُ لتكون حكاية مغامرةٍ وغموض، لتُناسِبَ قرَّاءً - كالمتفرِّجين على معظم الأفلام التي كانت تدور في رأسي حينها - أرواحُهُم شابّة، على أمل أن تكون أعمارُهُم شابّةً أيضًا. ولم يتغيَّر شيءٌ من هذا بعد مرور كلّ تلك المدّة.

ما تغيَّرَ، وقد آن أوانه حقًّا، هو أن تُنشَرَ هذه الروايةُ، للمرَّة الأولى منذ العام ١٩٩٥، بطبعةٍ مُشرِّفة وشروطٍ لائقة ونزيهة لم تحصل عليها من قبل مع الأسف.

آمل أن تنال إعجابك، سواء أكنتَ قارئًا شابًّا أم قارئًا مُتلهِّفًا لتعود شابًّا من جديد. ويُسعِدُني أنَّني، بفضل مساعدتك، سأستطيع تذكُّرَ هذه الرواية بشكلٍ أفضل، والروايتين اللتين سبقتاها؛ وسأسمح لنفسي بترف الغوص مجدَّدًا في مغامرة «أضواء سبتمبر»، وفي تلك السنوات حيث كنتُ أنا كذلك أظنُّني شابًّا، وحيث كانت الصورُ والكلماتُ تبدو قادرةً على صنع كلّ شيء.

قراءةً ممتعة، وإلى لقاءٍ قريب.

كارلوس رويث ثافون

مايو ٢٠٠٧

مكتبة
t.me/soramnqraa

إرين العزيزة،

علَّمَتني أضواءُ سبتمبر أن أتذكَّرَ خطواتكِ وهي تتبدَّدُ في المدّ البحريّ. كنتُ أعلم منذئذٍ أنَّ بصمةَ الشتاء لن تتأخَّرَ في محو سراب الصيف الأخير الذي أمضيناه معًا عند الخليج الأزرق. ستتفاجئين بأنَّ لا شيء قد تغيَّرَ منذ ذلك الحين. برجُ المنارة ما يزال شامخًا مثل حارسٍ في وسط الضباب، والطريقُ الموازيةُ لشاطئ الإنكليز باتت مُجرَّدَ دربٍ شاحبٍ يتعرَّجُ نحو العدم بين الرمال.

تُلمَحُ أطلالُ كريڤنمور فوق شجر الغاب، تكتنفها عباءةُ الصمت والظلام. وفي المناسبات النادرة التي أغامر فيها على متن القارب الشراعيّ، أرى زجاجَ النوافذ الكبرى المتشرِّخة من الجناح الغربيّ، تلتمع مثل إشاراتٍ خياليّةٍ في الضباب. وأحيانًا تسحرني ذكرى تلك الأيَّام حيث كنّا نجتاز الخليج عند حلول المساء عائدين نحو الميناء، فيُخيَّلُ إليَّ أنَّني أرى الأضواءَ الوامضةَ في الظلمة من جديد. لكنّي أعلم أنَّه ما عاد لأحدٍ وجودٌ هناك. لا أحد.

قد تتساءلين ما الذي حلَّ ببيت الرأس. حسناً، ما يزال قائمًا هناك، في عزلته، يواجِهُ المحيطَ الوسيعَ من على قمَّة رأس الخليج. هدَمَ إعصارُ الشتاء المنصرم ما تبقّى من المرسى الخشبيّ الصغير الذي على الشاطئ. وجاء صائغُ مجوهراتٍ ميسورُ الحال من مدينةٍ بعيدة لا اسم لها، وأحبَّ أن يشتري البيتَ بسعرٍ تافه، لكنَّ هبوبَ الرياح الغربيّة وانقضاضَ الموج على الصخور تكفَّلا بثنيه عن مراده. فعلت الملوحةُ فعلها بالخشب الأبيض. وصار المنفذُ السّرّيُّ المفضي إلى البحيرة الشاطئة دغلًا لا يمكن دخوله، مكتظًّا بالأجمات البرّيّة والأغصان المتساقطة.

في بعض المساءات، حين تخفُّ وتيرة عملي عند رصيف الصيَّادين، أركب الدرَّاجة وأمضي إلى رأس الخليج، لأتأمَّلَ الغسقَ من على الترَّاس المعلَّق على الصخور: أنا وحدي، صحبة سربٍ من النوارس التي تؤدّي دورَ المستأجرين الجدد دون التسجيل لدى أيّ كاتب عدل. ما زال بالإمكان مشاهدةُ القمر من هناك، أثناء ارتقائه سلالمَ المدى، وهو يرسم إكليلًا فضّيًّا ينعكس باتِّجاه مغارة الخفافيش.

أذكر عندما أخبرتكِ بأمر هذه المغارة ذات مرَّة، ورويتُ عليكِ الأسطورةَ الخرافيّةَ التي تتحدَّثُ عن قرصانٍ كورسيكيٍّ مشؤوم، ابتلعت المغارةُ سفينتَهُ في إحدى ليالي العام ١٧٤٦. كنتُ أكذب. لم يكن ثمّة وجودٌ لأيّ مُهرِّبٍ أو قرصانٍ متوحِّشٍ جازَفَ في ظلمات تلك المغارة. لكنَّها، من جهةٍ أخرى، كانت الأكذوبةُ الوحيدةُ التي سمعتِها من فمي. ولعلَّكِ قد كشفتِها في حينها.

هذا الصباح، بينما كنتُ أُخلِّصُ الشباكَ العالقةَ بالصخور، تكرَّرَ حدوث الأمر: ظننتُ لوهلةٍ أنّي لمحتُكِ عند ترّاس البيت، تنظرين نحو المدى بصمت، مثلما كنتِ تفعلين في السابق. وعندما همَّت النوارسُ بالطيران، أدركتُ أنَّه ما من أحدٍ هناك. ليس في الأفق سوى جبل سان ميشيل، يمتطي الضباب، كأنَّه جزيرةٌ هاربة تقطَّعَت بها السبل وسط المدّ.

أتخيَّلُ أحيانًا أنَّ الجميع غادر إلى مكانٍ مّا بعيدًا عن الخليج الأزرق، وأنَّني بقيتُ عالقًا في فخّ الزمن، أتوسَّلُ المدَّ الأرجوانيَّ السبتمبريَّ عبثًا أن يُعيدَ إليَّ شيئًا غير الذكريات. لا تشغلي بالًا. للبحر هذه القدرة: يُعيدُ كلَّ شيءٍ بعد حين، لاسيّما الذكريات.

أعتقد أنَّني، إذا أضفنا هذه، أرسلتُ إليكِ مئة رسالة إلى آخر ما استطعتُ تدبُّرَهُ من عناوين لكِ بباريس. أتساءل أحيانًا ما إذا تلقَّيتِ إحداها، ما إذا كنتِ تتذكَّرينني وتتذكَّرين ذلك الفجر على شاطئ الإنكليز. ربّما كان الأمرُ هكذا، أو ربّما حملتْكِ الحياةُ بعيدًا عن هنا، بعيدًا عن كلّ ذكريات الحرب.

كانت الحياةُ أبسطَ حينئذ، أتذكرين؟ ماذا أقول؟ بالطبع لا تذكرين. أرى أنَّني أنا الوحيد، الغبيُّ المسكينُ، الذي ما زال يعيش ذكرى كلٍّ من تلك الأيَّام من العام ١٩٣٧، عندما كنتِ ما تزالين هنا، إلى جانبي...

1. السماءُ فوق باريس

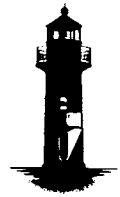

باريس، ١٩٣٦

كلُّ الذين يتذكَّرون الليلةَ التي توفِّيَ فيها أرمان سوڤيل، يُقسِمون أنَّ برقًا أرجوانيَّ اللون قطع القبَّةَ السماويّة، مُخلِّفًا شريطًا من رمادٍ متوهِّجٍ يتبدَّدُ في الأفق؛ شعاعًا لم يتسنَّ لابنته إرين أن تراه، لكنَّه سوف يسحر أحلامَها لأعوامٍ عديدةٍ قادمة.

كان صباحًا شتويًّا باردًا، وكان زجاجُ الغرفة رقم ١٤ في مستشفى سان جورج مكسوًّا بطبقة صقيعٍ رقيقةٍ ترسم أطيافًا مائيّةً للمدينة في عتمة الفجر المذهَّبة.

انطفأت شمعةُ أرمان سوڤيل بصمت، بلا زفرةٍ أخيرة. رفعت زوجتُهُ سيمون وابنتُهُ إرين أبصارهما حين صدَّعَت الأشعّةُ الأولى خطَّ الليل ورسمت إبرًا ضوئيّةً في الغرفة برمَّتها. كان دوريان، ابنُهُ الأصغر، نائمًا على كرسيّ. اكتسح الغرفةَ صمتٌ ساحق. ولم يكن من الضروريّ تبادلُ أيّ كلمةٍ لتفسير ما حدث. فبعد ستّة

أشهرٍ من المعاناة، انتزع شبحُ المرضِ الأسودُ حياةَ أرمان سوڤيل، الذي لم يكن قادرًا حتّى على نطق اسم بلواه. هكذا ببساطة.

وكانت تلك بدايةَ أسوأ عامٍ ستذكره عائلة سوڤيل.

*

حمل أرمان سوڤيل معه إلى قبره سحرَهُ وضحكتَهُ المعدية، لكنَّ ديونه الكبيرة لم ترافقه في رحلته الأخيرة. وسرعان ما التأم موكبُ الدائنين وكافّة أنواع النسور الزبَّالة المتأنِّقة بالأطقم الرسميّة والألقاب الفخريّة، وشرعت بالتوجُّه إلى منزل سوڤيل بشارع أوسمان. تحوَّلت زياراتُ المجاملات الباردة إلى تهديداتٍ مُبطَّنة. وتحوَّلت هذه، مع الوقت، إلى رهون.

استُبدِلَت المدارسُ الراقيةُ، والملابسُ الفاخرةُ، بدواماتٍ جزئيّة، وثيابٍ متواضعة، بما يخصُّ إرين ودوريان. كانت هذه بدايةَ السقوط المدوّي لعائلة سوڤيل إلى عالم الواقع. ووقع الجانبُ الأصعبُ من السقوط على عاتق سيمون. فاستئنافُ العمل في التدريس لا يكفي لمواجهة تيَّار الديون الذي كان يلتهم مواردَها الضحلة. كما أنَّها كانت تُفاجَأ عند كلّ زاويةٍ بوثيقةٍ جديدةٍ ممضيَّةٍ بيد أرمان، وكمبيالةٍ جديدة غير مدفوعة، وثقبٍ أسود جديد لا قرار له...

وهكذا ظنَّ دوريان الصغير في تلك الآونة، أنَّ نصف سكَّان باريس مُكوَّنٌ من محامين ومحاسبين، نوعٌ من جرذانٍ تعيش على سطح الأرض. وهكذا قبلت إرين، في تلك الآونة أيضًا، ومن دون علم أمِّها، قبلت أن تعمل في مرقص. كانت تُراقِصُ

المجنَّدين، وهم ليسوا سوى مراهقين مذعورين، مقابل أجرٍ زهيد (تُودِعُهُ عند الفجر في الصندوق الذي وضعتْهُ سيمون تحت مغسلة المطبخ).

وبالمثل، اكتشفت عائلةُ سوڤيل أنَّ قائمة الذين كانوا يدَّعون أنَّهم أصدقاءُ لهم ومُحسِنون إليهم، كانت تضمحلُّ كالندى وقتَ بزوغ الفجر. وعلى الرغم من هذا، ما إن حان الصيف حتّى ظهر صديقٌ قديمٌ لأرمان سوڤيل، يُدعى هنري لوكونت، وعرض على العائلة أن يسكنوا في شقّةٍ صغيرةٍ فوق متجر أدوات الرسم الذي يديره في حيّ مونبارناس. أمّا الإيجار، فأجَّلَهُ إلى غدٍ أفضل، مقابل أن يساعده دوريان في خدمة التوصيل، لأنَّ ركبتيه ما عادتا مثلما كانتا عليه أيَّامَ الشباب. لم تجد سيمون كلماتٍ كافيةً لتُعبِّرَ عن شكرها للوكونت العجوز على أصالته، ولا طالبها التاجرُ بذلك يومًا. في عالمٍ من جرذانٍ صادفوا ملاكًا.

وعندما اقتربت أيَّامُ الشتاء الأولى من الأبواب، أتمَّت إرين أعوامَها الأربعة عشر، التي أثقلت على كاهلها كما لو أنَّها أربعةٌ وعشرون. أنفقت في ذلك اليوم النقودَ التي كسبتْها في المرقص، لتشتري كعكةً وتحتفل بعيد ميلادها مع سيمون ودوريان. كان غيابُ أرمان ما يزال طاغيًا عليهم مثل ظلٍّ مستبدّ. أطفأوا شموعَ الكعكة معًا في صالة الشقّة الكئيبة بحيّ مونبارناس، متوسِّلين أن ينطفئ، مع الشُّعَل، شبحُ الحظّ السيّئ الذي كان يضطهدهم خلال تلك الأشهر. لم تتعرَّض أمنيتُهم للتجاهل هذه المرَّة. لم يكونوا على درايةٍ بأنَّ عامَ الظلمات هذا كان يشارف على الانتهاء.

*

وبعد عدَّة أسابيع، ظهرت بارقةُ أملٍ غير متوقَّعة في أفق عائلة سوڤيل. فبفضل قدرات السيّد لوكونت وشبكة معارفه، حصلت سيمون على وعدٍ بوظيفةٍ جيِّدة في بلدةٍ صغيرةٍ على الساحل، عند الخليج الأزرق، بعيدًا عن ضباب باريس الكئيب، بعيدًا عن الذكريات الحزينة لأيَّام أرمان سوڤيل الأخيرة. بدا أنَّ مُخترِعًا ميسورَ الحال ومُصنِّعًا لألعاب أطفال، يُدعى لازاروس يان، كان في حاجةٍ إلى مُدبِّرةٍ منزليّةٍ تعتني بشؤون داره في غاب كريڤنمور.

كان المخترعُ يعيش في مقامه الرحيب، المجاور لمصنع الألعاب خاصَّته المُغلَق منذ مدَّة، لا صحبة له سوى زوجته ألكساندرا، المصابة بمرضٍ عضال وطريحة الفراش منذ عشرين عامًا في إحدى غرف تلك الدار الكبيرة. وكان الراتبُ سخيًّا، فضلًا عن أنَّ لازاروس عرض عليهم أن يسكنوا في ما يُعرَفُ ببيت الرأس، وهو مسكنٌ متواضعٌ مبنيٌّ عند الأجراف الشاطئيّة على طرف رأس الخليج، في الجانب الآخر من غاب كريڤنمور.

وفي منتصف يونيو من العام ١٩٣٧، ودَّعَ السيّدُ لوكونت عائلةَ سوڤيل، عند الرصيف رقم ستّة بمحطّة أوسترليتز. ركبت سيمون وابناها قطارًا سيمضي بهم نحو ساحل النورماندي.

ابتسم لوكونت العجوز في سرِّه، وهو ينظر إلى اختفاء كلّ أثرٍ للقطار، وراوده حدسٌ عابرٌ بأنَّ قصَّة عائلة سوڤيل، قصَّتهم الحقيقيّة، قد بدأت توًّا.

2. الجغرافيا والتشريح

مكتبة
t.me/soramnqraa

النورماندي، صيف العام ١٩٣٧

في اليوم الأوَّل من وصولهم إلى بيت الرأس، حاولت إرين وأمُّها ترتيبَ المكان الذي سيصبح مسكنًا للعائلة. دوريان، من جانبه، اكتشف هوايةً جديدة: الجغرافيا، أو بوصفٍ أدقّ: رسم الخرائط. تزوَّدَ ابنُ سيمون سوڤيل الأصغرُ بأقلام رصاص ودفتر، أهداها له هنري لوكونت في المحطّة، وانسحب إلى ملاذٍ صغير بين صخور الشاطئ، في موقعٍ مُتميِّزٍ يطلُّ على منظرٍ رائع.

كانت البلدةُ ورصيفُ صيَّاديها المتواضعُ يقعان في منتصف الخليج الكبير. وفي الشرق منه، يتمدَّدُ شاطئٌ من رملٍ أبيض لا نهاية له، كأنَّه صحراءٌ لؤلؤيّةٌ قبالة البحر، يُعرَفُ بتسمية شاطئ الإنكليز. وبعد الشاطئ، يتوغَّلُ الرأسُ في المياه مثل مخلبٍ حادّ. كان بيتُ سوڤيل الجديد يقع تمامًا في أقصى الرأس، بحيث يفصل الخليجَ الأزرقَ عن الخليج الأوسع الذي يُسمِّيه

السكّانُ المحلّيون بالخليج الأسود، وذلك لمياهه المظلمة والعميقة.

استطاع دوريان أن يُحدِّدَ، في عرض البحر، جزيرةَ المنارة بين الضباب المتبدِّد، على بُعد نصف ميلٍ عن الساحل. كان برجُ المنارة ينهض قاتمًا وغامضًا، ليندمجَ في الضباب. وحين التفت دوريان بنظره نحو اليابسة، رأى شقيقتَه وأمَّه في ترَّاس بيت الرأس.

يتكوَّنُ مسكنهم الجديد من طابقين من خشبٍ أبيض، قائمًا فوق الجرف، كأنَّه مُعلَّقٌ في الفراغ. وينبسط الغابُ خلف البيت، حيث يتراءى من فوق قمم الأشجار المقامُ المهيبُ لصاحبه لازاروس يان: كريڤنمور.

وكان كريڤنمور أشبَهَ بقلعة، كاتدرائيّةٍ جامحة، ثمرة مُخيَّلةٍ رهيبةٍ ومضطربة. متاهةٌ من أقواسٍ ودعائمَ وأبراجٍ وقببٍ تُكوِّنُ سطحَها المتعرِّج. وكان المبنى على شكل صليبٍ تتفرَّعُ منه عدَّةُ أجنحة. أمعَنَ دوريان النظرَ في سكن لازاروس يان المشؤومة. جيشٌ من الغراغيل والملائكة المنحوتة بالحجر تقف كالحرَّاس على إفريز الواجهة مثل سربٍ من أشباحٍ مُتجمِّدةٍ في انتظار الليل. أغلق دوريان دفترَه وسارَعَ في العودة إلى بيت الرأس، متسائلًا: تُرى ما طبيعة هذا الشخص الذي يختار السكنَ في مكانٍ كهذا؟ لن يستغرق طويلًا لاكتشاف ذلك، إذ كانوا مدعوّين في مساء اليوم نفسه للعشاء في كريڤنمور. لفتةٌ كريمة من المُحسِن إليهم، السيّد لازاروس يان.

*

تُشرِفُ غرفةُ إرين الجديدة على الجهة الشماليّة الغربيّة. بإمكانها أن ترى من النافذة جزيرةَ المنارة، وبُقَعَ الضوء التي ترسمها الشمسُ على سطح المحيط، كأنَّها بحيراتٌ من الفضّة المشتعلة. فبعد أن أمضت أشهرًا في الشقّة الكئيبة بباريس، بدا لها أنَّ امتلاكَ غرفةٍ تخصُّها رفاهيّةٌ متطرِّفةٌ تقريبًا. إذ إنَّ إغلاقَ الباب، للاستمتاع بحيِّزٍ مُخصَّصٍ لفردانيَّتها، يمدُّها بنشوةٍ خالصة.

وبينما كانت إرين تتأمَّلُ الشمسَ الغاربةَ وهي تصبغ البحرَ بلون النحاس، واجهت معضلةَ اختيار اللباس المناسب لعشائها الأوَّل مع لازاروس يان. لم يتبقَّ لديها سوى جزءٍ صغيرٍ من ثيابها الوفيرة. بدت كلُّ ملابسها، إزاء فكرة أن يُرحَّبَ بها في دار كريڤنمور الكبيرة، خِرَقًا تُشعِرُها بالعار. وبعد أن جرَّبَت الفستانين الوحيدين اللذين قد يليقان بالمناسبة، استوعبت إرين وجودَ مشكلةٍ جديدة لم تأخذها بالحسبان من قبل.

فمنذ أن أتمَّت عامها الثالث عشر، بدا جسدُها منهمكًا في الامتلاء ببعض جوانبه والضمور بجوانب أخرى. والآن وقد اقتربت من سن الخامسة عشرة، وبينما كانت تنظر إلى نفسها في المرآة، أصبحت نزواتُ الطبيعة أوضح من أيّ وقتٍ مضى. لم يعد قوامُها ذو الحنايا يتناسب مع أيٍّ من المقاسات الصارمة من ثيابها المغبرَّة.

تمدَّدَ إكليلٌ من الانعكاسات القرمزيّة على الخليج الأزرق قُبَيلَ الغروب حين طرقت سيمون سوڤيل البابَ برفق.

- ادخل.

أغلقت أمُّها البابَ خلف ظهرها وأجرت مسحًا شعاعيًّا سريعًا للوضع. كانت ملابسُ إرين كلُّها ملقاةً على السرير. وابنتُها التي لا يسترها إلّا قميصٌ أبيض بسيط، تتأمَّلُ من النافذة أضواءَ السفن البعيدة التي تدخل القناة. تمعَّنَت سيمون في جسد إرين الممشوق وابتسمت في سرِّها.

- الوقت يمرُّ على غفلةٍ منّا، ها؟

- لا يليق بي أيٌّ من هذه الثياب. هذا يؤسفني. - أجابت إرين - لقد حاولتُ.

دنت سيمون من النافذة ووقفت بجانب ابنتها. كانت أضواءُ البلدة في منتصف الخليج ترسم أطيافًا من نورٍ على المياه. سرحت كلٌّ منهما للحظاتٍ في منظر الغسق المدهش على الخليج الأزرق. داعبت سيمون وجهَ ابنتها وابتسمت.

- أعتقد أنَّ هذا المكان سينال إعجابنا. ما قولكِ؟ - سألتها.

- وماذا عنّا نحن؟ هل سننال إعجابه؟

- تقصدين لازاروس؟

أومأت إرين.

- نحن عائلةٌ رائعة. سيعشقنا. - أجابت سيمون.

- أأنتِ واثقة؟

- يُستَحسَن أن أكون كذلك، أيَّتها الفتاة.

أشارت إرين إلى ملابسها.

- جرِّبي أحد فساتيني. - ابتسمت سيمون - أعتقد أنَّها ستناسبكِ أكثر ممّا تناسبني.

احمرَّ وجهُ إرين قليلًا.

- تبالغين. - أنَّبت أمَّها.

- امنحي الوقتَ وقتًا.

*

عندما رأى دوريان شقيقته تنزل السلالم بفستان أمِّهما، وجَّهَ إليها نظرةً قد تفوز بمسابقة الذهول. ثبَّتَت إرين عينيها الخضراوين بعيني دوريان، ورفعت إصبعها مُتوعِّدةً، وأنفذت إليه إنذارًا مُبطَّنًا:

- إيَّاك أن تنبس بكلمة.

هزَّ دوريان رأسه موافقًا بصمت، عاجزًا عن إزاحة عنيه عن تلك المرأة الغريبة، التي تتكلَّمُ بصوت شقيقته إرين وتُعبِّرُ بملامح وجهها. تلقَّفَت سيمون دهشتَهُ وكتمت ضحكتَها. ثمَّ حطَّت يدها، بجدّيّةٍ شديدة، على كتف الصبيّ ووقفت قبالته لتُعدِّلَ ربطةَ عنقه البنفسجيّة، التي ورثها من أبيه.

- أنت محاطٌ بالنساء يا بُنيّ. ستعتاد الأمر.

هزَّ دوريان رأسه من جديد، حائرًا بين التسليم والعجب. وحين دقَّت ساعةُ الحائط الثامنةَ، كان الجميع متأنِّقين بأبهى خللهم، مستعدِّين للموعد العظيم. إضافةً إلى أنَّهم كانوا خائفين حتّى الموت.

*

هبَّت نسمةٌ خفيفةٌ من جهة البحر، وهزَّت أغصانَ الشجرِ

المحيطِ بدار كريڤنمور. وكان حفيفُ الأوارق الخفيُّ يرافق صدى خطوات سيمون وابنيها على الدرب الذي يقطع الغاب، كأنَّه نفقٌ حقيقيٌّ محفورٌ في دغلٍ موحشٍ لا يمكن دخوله. وكان وجهُ القمر الشاحب يصارع لاجتياز كفن الظلال الذي يتغمَّدُ الغابة. وذلك في حين كان شدوُ الطيور المعشِّشة في أعالي تلك الأشجار العملاقة والمعمِّرة يرتفع كابتهالٍ مقلق.

- هذا المكان يصيبني بالقشعريرة. - علَّقَت إرين.

- ترَّهات. - سارعت أمُّها إلى إسكاتها - إنَّه مجرَّد غاب. هيَّا بنا.

كان دوريان، من موقعه في الحراسة الخلفيّة، يراقب ظلال الغابة بصمت. يخلق الظلامُ أطيافًا مشؤومةً، ويُحفِّزُ مخيِّلتَهُ على إخراج عشرات المخلوقات الشيطانيّة المتربِّصة.

- هذه ليست سوى أجماتٍ وأشجار تحت ضوء النهار. - أوضحت سيمون سوڤيل، لتُحيلَ السحرَ العابرَ، الذي كان دوريان يُروِّحُ به عن نفسه، إلى رماد.

وبعد بضع دقائق، وفي نهاية عبورٍ ليليٍّ بدا لإرين بلا نهاية، تبدَّى هيكلُ دار كريڤنمور الهائلُ والمتعرِّجُ أمامهم، مثل قلعةٍ أسطوريّةٍ تبرز من وسط الضباب. أحزمةُ ضوءٍ ترتجف خلف النوافذ الكبيرة لدار لازاروس يان الرحيبة. غابةٌ من غراغيل تتراءى ومن خلفها السماء. وفي الجوار، يظهر مصنعُ الألعاب المتَّصل بالدار.

ما إن اجتازوا الغابة، توقَّفَت سيمون وابناها يحملقون في الضخامة المدهشة لمسكن مُبتَكِر الألعاب. وفي تلك اللحظة ظهر

من الدغل طائرٌ يشبه الغراب، يرفرف بجناحيه، واتَّخذَ مسارًا غريبًا فوق الحديقة المحيطة بكريڤنمور، ثمَّ حام فوق إحدى النوافير الحجريّة وراح ليهبط عند قدمي دوريان. وحينما كفَّت جناحاه عن الرفرفة، استلقى الغرابُ على أحد جنبيه وأخذ يتمايل ببطء حتّى توقَّفَ عن الحركة. جثا الصبيُّ على ركبتيه ومدَّ يده باتِّجاه الحيوان.

- انتبه. - حذَّرتْهُ شقيقتُه.

تجاهل دوريان النصيحة، وربَّتَ على ريش الغراب. لم يعطِ الطائرُ أيَّ مؤشِّرٍ على الحياة. أخذه الولد بين يديه وفرَدَ جناحيه. أظلمت وجهَهُ تكشيرةٌ نابعةٌ من الحيرة. التفت نحو إرين وسيمون.

- إنَّه خشبيّ. - غمغم - إنَّه آلة.

تبادل الثلاثةُ نظرةً صامتة. زفرت سيمون وأوصت ابنيها:

- فلنحاول أن نترك انطباعًا حسنًا. مفهوم؟

أومأ الفتيان. أعاد دوريان الطائرَ الخشبيَّ إلى الأرض. ابتسمت سيمون سوڤيل ابتسامةً واهنة، وبإشارةٍ منها بدأوا يصعدون المعراجَ الرخاميَّ الأبيضَ الذي يتعرَّجُ صوب البوَّابة البرونزيّة الضخمة، التي تُخفي وراءها عالمَ لازاروس يان السرّيّ.

انفتحت أبواب كريڤنمور أمامهم حتّى قبل أن يستخدموا الجرسَ البرونزيَّ الغريبَ المصمَّمَ على هيئة ملاك. شعشعت هالةٌ من نورٍ ذهبيٍّ كثيفٍ من داخل الدار. تراءى جسمٌ ثابتٌ وسط ذلك الضياء. بُعِثَت فيه الحياةُ على حين غرَّة فحنى رأسه، وفي

الأثناء سرت دقّاتٌ آليّةٌ طفيفة. ظهر الوجهُ إلى النور: عينان خاليتان من الحياة، كرتان زجاجيَّتان مُثبَّتتان في قناعٍ لا يُعبِّرُ عن شيء سوى ابتسامةٍ مرعبة، تنظران إليهم.

ابتلع دوريان ريقه. تراجعت إرين وأمُّها خطوةً إلى الخلف، وكان الارتباكُ أوضحَ عليهما. مدَّ ذلك الجسمُ يده نحوهم وتحجَّرَ من جديد.

- آمل أنَّ كريستيان لم يُفزِعكم. إنَّه اختراعٌ أخرق وقديم.

التفتت عائلةُ سوڤيل نحو الصوت الصادر من أسفل المعراج. وجهٌ ودود، في طريقه إلى نضجٍ محظوظ، يبتسم ببعض المكر. عينا الرجل زرقاوان، تتألّقان تحت شعرٍ غزير، فضّيٍّ ومُسرَّحٍ بعناية. هندامه لا يُعلى عليه، يتّكئ على عكّازٍ من خشب الأبنوس المزخرف بألوانٍ متعدِّدة. اقترب الرجل وانحنى بإجلال.

- أنا لازاروس يان، وأعتقد أنَّكم تستحقّون منّي اعتذارًا. - قال.

كان صوتُهُ دافئًا، مريحًا، كتلك الأصوات المشبعة بنفوذٍ مُطمئِنٍ وصفاءٍ نادر. تفحَّصَت عيناه الكبيرتان كلَّ فردٍ من عائلة سوڤيل بإمعان، واستقرَّتا في النهاية على وجه سيمون.

- كنتُ في نزهتي المسائيّة المعتادة في الغاب، فتأخَّرتُ. حضرتكِ السيِّدة سوڤيل، إن لم أخطئ...

- تشرَّفنا يا سيِّدي.

- نادِني لازاروس، رجاءً.

أومأت سيمون.

- هذه ابنتي إرين. وهذا دوريان، مُدلَّلُ العائلة.

صافح لازاروس يد كليهما بحرارة. كانت مصافحتُه متينةً ولطيفة، وابتسامته معدية.

- جيِّد. بالنسبة إلى كريستيان، لا ينبغي لكم أن تخشوه. فأنا أحتفظ به كذكرى لمرحلتي الأولى. إنَّه أخرق، وشكله ليس لطيفًا، أعلم ذلك.

- هل هو آلة؟ - سارع دوريان إلى طرح السؤال، مبهورًا.

وصلت نظرةُ سيمون الرقابيّة متأخِّرة. ابتسم لازاروس للولد.

- يمكننا تسميته كذلك. كريستيان، تقنيًّا، هو ما نُعرِّفُه بالرجل الآليّ.

- هل صنعتَهُ حضرتك يا سيِّدي؟

- دوريان. - أنَّبتْه أمُّه.

ابتسم لازاروس ثانيةً. لم يكن فضولُ الصبيّ يزعجه على الإطلاق.

- أجل. هو وغيره الكثير. هذا عملي، أو فلنقل هذا كان عملي. ولكن، أعتقد أنَّ العشاء في انتظارنا. ما رأيكم أن نُكمِلَ الحوارَ في كلّ هذه الأمور أمام طبقٍ لذيذ، وأن نتعارفَ بشكلٍ أفضل؟

نفَحَتهم رائحةُ الشواء الزكيّةُ مثل إكسيرٍ مسحور. حتّى الحجر كان قادرًا على قراءة أفكارهم.

*

لم يُحدِثِ الاستقبالُ المفاجئُ من قِبَلِ الرجل الآليّ، ولا المظهرُ الخارجيُّ العجيبُ لكريثنمور، انطباعًا لدى عائلة سوڤيل

أشدَّ وطأةً من الانبهار الذي أصابهم حين رأوا ما في داخل القصر الذي يسكنه لازاروس يان. فما إن اجتازوا العتبة، وجد الثلاثةُ أنفسَهم غارقين في عالمٍ مدهشٍ يضاهي ما يمكن لمُخيِّلاتهم الثلاث أن تصل إليه مُجتَمِعةً.

ثمّة معراجٌ فخمٌ يرتقي لولبيًّا إلى ما لا نهاية. رفع الضيوفُ أبصارهم فرأوا درجاتٍ متتاليةً تفضي إلى برج كريڤنمور المحوريّ، المكلّل بمنورٍ خياليٍّ يملأ الأجواءَ الداخليّةَ بتموُّجاتٍ ضوئيّةٍ طيفيّةٍ ومتلاشية. وتحت عباءة هذا الضياء الشبحيّ، يتَّضحُ معرضٌ لا ينتهي من مخلوقاتٍ آليّة. ساعةٌ حائطيّةٌ ضخمة، مُزوَّدةٌ بأعينٍ وتكشيرةٍ كاريكاتوريّة، تبتسم في وجه الزوَّار. راقصةٌ ملفوفةٌ بوشاحٍ شفيفٍ تدور حول نفسها في منتصف صالةٍ بيضويّةٍ، حيث كلُّ غرضٍ وكلُّ تفصيلٍ يُشكِّلُ جزءًا من عالم الحيوانات التي اخترعها لازاروس يان.

مقابضُ الأبواب وجوهٌ باسمة، تغمز أعينُها عند الدوران. بومةٌ كبيرة، بريشٍ رائع، تتوسَّعُ حدقتاها الزجاجيَّتان وترفرف جناحيها ببطءٍ تحت الضباب. عشرات أو ربّما مئات المجسَّمات والألعاب، تحتلُّ مساحاتٍ شاسعة من الجدران والخزانات الزجاجيّة، قد يستغرق استكشافُها عمرًا بأكمله. جروٌ آليٌّ ومَرِحٌ يهزُّ ذنبه وينبح عند مرور فأرٍ معدنيّ. وأرجوحةٌ دوَّارة، تتدلّى من سقفٍ لا يُرى، تحمل جنيّاتٍ وتنانين ونجومًا تتراقص في الفراغ، حول قلعةٍ تطفو بين غيومٍ قطنيّةٍ على رنين أجراسٍ بعيدة...

وحيثما التفتوا، اكتشفوا أعاجيب جديدة، وأجهزةً مستحيلةً تفوق كلَّ ما رأوه في السابق. تجمَّدَ الثلاثةُ على ذلك النحو،

على مرأى لازاروس المستمتع بذهولهم، أسرى لدى حالة الفتنة المطلقة، لعدَّة دقائق.

- هذا... هذا رائع. - قالت إرين، عاجزةً عن تصديق ما تراه بعينيها.

- حسنًا، هذا ليس سوى المدخل. لكنّي سعيدٌ بأنَّه يعجبكِ.

- أومأ لازاروس ليرشدهم باتِّجاه صالة الطعام الكبرى.

كان دوريان قد انعقد لسانه، وهو يتمعَّنُ في كلّ شيء بعينين تتِّسعان كالأطباق من الدهشة. وكانت كلٌّ من سيمون وإرين لا تقلَّانه ذهولًا، يفعلان ما في وسعهما لتجنُّب السقوط في أثر التنويم الذي تبثُّهُ الدار.

وكانت الصالةُ حيث أُعِدَّ العشاءُ تفوق المدخل أبَّهةً. من الكؤوس إلى أدوات الطعام، إلى الأطباق والسجاجيد الفاخرة التي تُغطّي البِلاط: كلُّ شيءٍ يحمل بصمة لازاروس يان. لا يبدو أيُّ غرضٍ من الأغراض أنَّه ينتمي إلى عالم الواقع، الكامد والاعتياديّ والمقيت، الذي تركوه خلف ظهرهم إبّان دخولهم تلك الدار. وعلى الرغم من هذا، لم تغفل إرين عن رؤية اللوحة الهائلة المعلَّقة فوق المدفأة التي تنبعث ألسنةُ لهبها من أفواه بعض التنانين. اللوحة تُصوِّرُ امرأةً باهرة الجمال، بفستانٍ أبيض اللون. لنظرتها تأثيرٌ يقطع الحدودَ بين الواقع وفرشاة الرسَّام. تاهت إرين في تلك النظرة السحريّة والمُسكِرة لبضع ثوان.

- زوجتي ألكساندرا... عندما كانت في صحَّةٍ جيِّدة. ما أروع تلك الأيَّام. - قال صوت لازاروس من خلف ظهرها، بنبرةٍ مصهورةٍ بالكآبة والتسليم.

*

مضت السهرةُ ودّيًّا على ضوء الشموع. تبيَّنَ أنَّ لازاروس يان مُضيفٌ ممتاز، استطاع أن يكسبَ استلطافَ دوريان وإرين على الفور، بطرائفه وحكاياته المثيرة للدهشة. روى خلال العشاء أنَّ هذا الطعامَ اللذيذَ الذي كانوا يتذوَّقونه هو من صنع حنَّة، فتاةٌ في عمر إرين تعمل عنده طبَّاخةً وخادمة. تلاشى التوتُّرُ الأوَّليُّ في غضون دقائق، وشارك الجميعُ في المحادثة الهادئة التي عرف مخترعُ الألعاب توجيهَها بمهارةٍ وسلاسة.

وعندما بدأوا بتناول الطبق الثاني، الديك الروميّ المشويّ الذي من اختصاص حنّة، شعرت عائلةُ سوڤيل أنَّهم في حضرة صديقٍ قديم. صفت نفسُ سيمون حين انتبهت أنَّ الودَّ بين ابنيها ولازاروس كان متبادلًا، وأنَّها هي نفسها كانت تتأثَّرُ بسحره.

وبين أحدوثةٍ وأخرى، قدَّمَ لازاروس تفسيراتٍ وفيرةً عن داره وعن طبيعة الوظائف التي كانت في انتظارهم. يوم الجمعة هو من نصيب حنَّة، تتَّخذ مساءَه عطلةً تقضيها مع عائلتها المتواضعة في الخليج الأزرق. لكنَّ لازاروس أعلمهم أنَّهم سيتعرَّفون عليها حالما تعود إلى العمل. كانت حنَّة الشخص الوحيد الذي يعيش في كريڤنمور، إضافةً إلى لازاروس وزوجته طبعًا. وكانت ستساعدهم في التكيُّف مع المكان، وحلِّ أيّ مشكلةٍ قد تواجههم في البيت.

وحين جاء دور الحلوى، كعكة توتٍ أحمر لا تُقاوَم، أوضح لازاروس عمّا ينتظره منهم. فهو على الرغم من بلوغه سنَّ التقاعد، كان ما يزال يعمل من وقتٍ لآخر في ورشة الألعاب، الموجودة في جناحٍ ملاصقٍ لقصر كريڤنمور. الورشةُ وغرفُ

الطوابق العليا محظورةٌ عليهم. لن يدخلوها مهما كانت الأسباب. ولاسيّما الجناحُ الغربيُّ من الدار، حيث توجد غرفُ زوجته.

تعاني ألكساندرا يان، منذ ما يزيد عن عشرين عامًا، من مرضٍ غريب يُجبِرُها على الراحة التامّة في السرير. كانت زوجةُ لازاروس تعيش منكفئةً على نفسها في غرفتها بالطابق الثالث من الجناح الغربيّ، حيث لا يدخل أحدٌ سوى زوجها ليعتني بها ويمنحها الرعايةَ التي تحتاج إليها في حالتها الهشّة تلك. روى مخترعُ الألعاب كيف أنَّ زوجته، التي كانت فيما مضى فتاةً في غاية الحسن والعنفوان، أُصيبت بداءٍ غامضٍ أثناء رحلةٍ إلى وسط أوروبا.

بدا أنَّ الفيروس لا شفاء منه، وراح يسيطر عليها شيئًا فشيئًا. وسرعان ما غدت عاجزةً عن المشي أو حتّى الإمساك بأيّ غرضٍ بيدها. وتدهور وضعُها في غضون ستّة أشهر، حتّى أمست معاقةً، ظلًّا حزينًا للبنت التي تزوَّجَها قبل ذلك بسنواتٍ قليلة. وبعد عامٍ من إصابتها بالمرض، بدأت تفقد ذاكرتها، حتّى صارت خلال أسابيع غير قادرةٍ على التعرُّف على زوجها. ومنذ ذلك الحين كفَّت عن الكلام، وأصبحت نظرتُها بئرًا لا قاع لها. كان عمرها في تلك الفترة ستّةً وعشرين عامًا. ولم تعد تخرج من كريفْنمور منذ ذلك اليوم.

استمعت عائلةُ سوڤيل إلى قصّة لازاروس الحزينة بصمتٍ وتفهُّم. بدا أنَّ المخترعَ يتأسَّى من تلك الذكرى ومن مرارة عقدين من حياته أمضاهما في عزلةٍ وألم، لذا أراد أن يُغيِّرَ الموضوع،

فوجَّهَ المحادثةَ إلى الكعكة الشهيّة التي حضَّرَتها حنَّة. ومع ذلك لم تغفل إرين عن حزن نظرته.

لم تستصعب أن تتخيَّلَ هروبَ لازاروس يان نحو العدم. فبعد أن حُرِمَ من أكثر شيءٍ أحبَّهُ، لاذ لازاروس بعالمه القائم على الخيال، وابتكر مئات الكائنات والأغراض ليملأ بها الوحدةَ العميقةَ التي تحيط به.

أصغت إرين إلى كلام مخترع الألعاب، وأدركت أنَّها لم تعد تعتبر هذه الأكوانَ المقيمةَ في كريڤنمور، والمتولِّدةَ من مُخيِّلةٍ خصبة، مُجرَّدَ استعراضٍ لعبقريّة مَن أبدعَها. فهي التي اختبرت الفراغَ الناجمَ عن الفقدان بصورةٍ مباشرة، ترى كريڤنمور انعكاسًا قاتمًا لمتاهة العزلة التي عاش فيها لازاروس يان سنواته العشرين الأخيرة. وكلُّ قاطنٍ في هذا العالم العجيب، وكلُّ اختراعٍ فيه، يُمثِّلُ دمعةً سالت في صمت.

وعند نهاية العشاء، فهمت سيمون سوڤيل ما المطلوب منها وما مسؤليّاتها في الدار تمامًا. كان دورها أشبه بدور المدبِّرة، وهذا عملٌ لا يمتُّ بِصلةٍ لمهنتها الحقيقيّة كمعلِّمة، لكنَّها كانت مستعدَّةً لتأديته على النحو الأفضل، لتضمنَ مستقبلًا مُرفَّهًا لابنيها. ستُشرِفُ سيمون على عمل حنَّة وخَدَمِ المناسبات، وستتولّى إدارة ممتلكات لازاروس يان وصيانتها، وإدارة علاقاته بالمورِّدين وتجَّار البلدة، والمراسلات، والمؤن، وستتكفَّلُ بعدم تدخُّل أحدٍ أو شيءٍ بخيار المبتكر في انعزاله عن العالم الخارجيّ. وفي الوقت نفسه، يشمل عملُها اقتناءَ الكتب من أجل مكتبة لازاروس. وقد ألمح مالكُ كريڤنمور في هذا الصدد أنَّ

ماضيها كمعلِّمة كان له الكلمة الحاسمة في تفضيلها على مُرشَّحاتٍ أخريات يَفُقْنها خبرةً ومراسًا في مجال الخدمات.

ومقابل هذه المهام، بإمكان سيمون وابنيها أن يسكنوا في بيت الرأس، وأن يتلقّوا راتبًا معقولًا جدًّا. سيتعهَّدُ لازاروس بنفقات تعليم إرين ودوريان بدءًا بالعام الدراسيّ اللاحق، بعد الصيف. إضافةً إلى التزامه بدفع نفقات الدراسة الجامعيّة لكليهما إذا ما أبديا رغبةً وجدارة. كما يمكن لإرين ودوريان أن يُعاوِنا أمَّهما في الأعمال التي تُكلِّفُهما بها في الدار، شرطَ احترام القاعدة الذهبيّة: يُمنَعُ تجاوزُ الحدود التي ذكرها المالك.

بدا عرضُ لازاروس لسيمون سوڤيل نعمةً من السماء، قياسًا بالأشهر السابقة، والديون والشقاء. فالخليج الأزرق قطعةٌ من الجنّة، مكانٌ مثاليٌّ لبدء حياةٍ جديدة مع ابنيها. والعمل مقبولٌ جدًّا، ويبدو لازاروس من كافّة الأوجه وليًّا شهمًا وعطوفًا. لا بدَّ أن تبتسم لها الحياةُ في نهاية المطاف. وقد شاءت الأقدارُ أن يحدثَ ذلك في هذا المكان المنعزل، وكانت سيمون، للمرَّة الأولى منذ وقتٍ طويل، مستعدّةً لقبول خطط الحياة بسرور. فضلًا عن أنَّها، إن لم يخدعها حدسُها، وهذا غالبًا ما يحدث، أحسَّت باستلطافه الصادق نحوها ونحو ابنيها. ليس من الصعب التصوُّرُ أنَّ صحبتَهم وحضورَهم في كريڤنمور مثل بلسمٍ يداوي العزلةَ الساحقةَ التي تُحاصِرُ صاحبَ الدار.

انتهى العشاءُ بفنجان قهوة، وبوعدٍ من لازاروس بأنَّه يومًا مّا سيُعلِّمُ دوريان أوَّليّات صناعة الآلات الذاتيّة التشغيل وسيُطلِعُهُ على أسرار هذه الصناعة. توقَّدَت عينا الفتى مُتحمِّسًا لهذا

العرض، وكان مفتونًا تمامًا بهذه الأمور. تلاقت نظراتُ لازاروس وسيمون للحظةٍ وجيزة تلاقيًا عابرًا على ضوء الشموع. عرفت سيمون فيها أثرَ أعوامٍ من الوحدة، وهو ظلٌّ خبرتْهُ جيِّدًا: سفنٌ تائهة تتقاطع في ظلام الليل. وارَبَ مخترعُ الألعاب عينيه ونهض في صمت، دلالةً على أنَّ السهرةَ شارفت على الانتهاء.

أرشدهم إلى الباب الرئيس، مُتوقِّفًا عند بعض العجائب التي يأهل فيها المسيرُ ليشرحها لضيوفه. كان دوريان وإرين مذهولين من كلّ تفصيلٍ يُكشَفُ لهما. كانت دارُ كريڤنمور تستضيف من العجائب ما يكفي لإضاءة مئة عامٍ من الذهول. وقبل الوصول إلى المدخل، توقَّفَ لازاروس أمامَ ما بدا آليّةً معقَّدةً من مرايا وعدسات، ووجَّهَ نظرةً ملغَّزةً إلى دوريان. ومن دون أن ينطق بكلمة، أدخَلَ ذراعَهُ في أحد ممرّات المرايا. فتلاشى انعكاسُ يده ببطءٍ حتّى اختفى كلّيًّا. ابتسم لازاروس.

- لا ينبغي أن تُصدِّقَ كلَّ ما تراه. صورةُ الواقع التي تُقدِّمُها لنا أعيُنُنا هي مجرَّد وهم، وتأثيرٍ بصريّ. - قال - الضوء كذَّابٌ كبير. أعطني يدك.

أطاعه دوريان وسمح لمخترع الألعاب أن يقود يدَهُ نحو ممرّ المرايا. فتحلَّلَت صورةُ يده أمام عينيه. فالتفت إلى لازاروس، بسؤالٍ صامتٍ يفيض من عينيه.

- هل تعرف قوانين البصريّات والضوء؟ - سأله الرجل.

هزَّ دوريان رأسه نافيًا. ففي تلك اللحظة لم يكن يعرف حتّى أين يده اليمنى.

- السحر مُجرَّد امتدادٍ للفيزياء. ما مستواك في الرياضيّات؟

- باستثناء حساب المثلّثات، بَيْنَ بين...

ابتسم لازاروس.

- سنبدأ من هناك تمامًا. الخيالُ أرقامٌ يا دوريان. هذه هي الحيلة.

أومأ الفتى، ولم يكن متأكّدًا من أنّه استوعب ما يقوله لازاروس. أشار المخترعُ إلى الباب واقتادهم حتّى العتبة. وعندئذٍ، وبمحض الصدفة تقريبًا، ظنَّ دوريان أنّه رأى المستحيل. فقد ارتسمت ظلالُ أجسادهم على الجدران، بمرورهم بجانب أحد المصابيح المرتعشة. ظلالُهم كلُّها ما عدا ظلّ لازاروس. إذ كان أثرُهُ على الجدار خفيًّا، كما لو أنَّ وجوده ليس سوى سراب.

وعندما التفت إليه، كان الرجلُ يراقبه بإمعان. ابتلع الفتى ريقه. قرص مبتكرُ الألعاب خدَّ الولد برفقٍ ومودّةٍ ممازحًا.

- لا تُصدِّقْ كلَّ ما تراه عيناك...

ولحق دوريان بأمِّه وأخته إلى الخارج.

- شكرًا على كلّ شيء وليلةً سعيدة. - اختتمت سيمون.

- تشرَّفتُ بمعرفتكم. وهذه ليست مجاملة. - قال لازاروس بحرارة. ابتسم بلطف ورفع يده مُودِّعًا.

*

ولجت عائلةُ سوڤيل في الغاب قبل حلول منتصف الليل بقليل، عائدين نحو بيت الرأس.

وكان دوريان صامتًا، ما يزال تحت تأثير ما رآه في دار

لازاروس يان العجائبيّة. أمّا إرين فكانت هائمةً في أفكارها، بعيدةً عن العالم. تنهَّدَت سيمون مطمئنَّةً، وحمدت ربَّها على السَّعد الذي أنعم به عليهم.

وقبل أن تختفي دارُ كريڤنمور خلف ظهرهم، التفتت سيمون لتنظر إليها للمرَّة الأخيرة. ما زالت هناك نافذةٌ واحدةٌ مضاءة في الطابق الثاني من الجناح الغربيّ. يتبدّى طيفٌ ثابتٌ خلف الستائر. انطفأ الضوءُ في تلك اللحظة تمامًا، وغرقت النافذةُ الكبيرةُ في الظلال.

*

وصلت إرين إلى غرفتها، نزعت عنها الفستانَ الذي أعارته لها والدتُها وطوتْهُ بعنايةٍ على الكرسيّ. أصوات سيمون ودوريان تتناهى إلى مسمعها من الغرفة المجاورة. أطفأت الفتاةُ الضوءَ واستلقت على السرير. تراقصت ظلالٌ زرقاءُ على السقف مثل موكبٍ من أرواحٍ راقصةٍ أثناء الشفق القطبيّ. وكانت همساتُ الموج المتلاطم على صخور الشاطئ تداعب السكون. أغمضت إرين عينيها وحاولت أن تغفو عبثًا.

كان يعزُّ عليها أنَّها لن ترى بعدئذٍ شقَّتها القديمة بباريس، ولن تعود إلى المرقص لكسب بعض الفلوس التي يحملها أولئك المجنَّدون في جيوبهم. كانت تعلم أنَّ ظلال المدينة الكبيرة لن تستطيع الوصول إليها هناك، لكنَّ أثر الذكريات لا يعرف حدودًا. نهضت واقتربت من النافذة.

برجُ المنارة يعلو باسقًا وسط الظلمة. ركَّزَت بصَرها على

تلك الجزيرة الصغيرة التي يكتنفها الضبابُ المتوهِّج. التمَعَ انعكاسٌ خاطفٌ في الليل، مثل غمزة مرآةٍ بعيدة. وبعد هنيهةٍ أومَضَ البريقُ مجدَّدًا ثمَّ تبدَّدَ نهائيًّا. قطَّبَت إرين جبينها وانتبهت إلى حضور أمِّها في الأسفل على الترّاس. كانت سيمون مُتدثِّرةً بكنزةٍ ثقيلة، تراقب البحرَ بصمت. عرفت إرين أنَّ أمَّها تبكي، دون الحاجة إلى النظر إلى وجهها تحت الظلام؛ وأنَّ كلًّا منهما ستستغرق وقتًا لمعانقة النعاس. ففي ليلتهم الأولى في بيت الرأس، وبعد تلك الخطوة الأوَّليّة باتِّجاه ما بدا أنَّه أفق السعادة، كان غيابُ أرمان سوڤيل أشدَّ إيلامًا من أيّ وقتٍ مضى.

3. الخليج الأزرق

لم تشهد إرين فجرًا في حياتها كلِّها أكثر إشراقًا من فجر يوم ٢٢ يونيو ١٩٣٧. كان البحرُ لامعًا مثل رداءٍ من الماس تحت سماءٍ لم تكن لتُصدِّقَ بحقيقة بهائها خلال الأعوام التي أمضتها في المدينة. بإمكانها الآن أن ترى جزيرةَ المنارة بوضوحٍ من نافذتها، وهذا ينطبق على الصخور الصغيرة الناتئة في منتصف الخليج مثل عُرف تنّينٍ بحريّ. كما أنَّ النسقَ المرتَّبَ للمنازل على ممشى البلدة، ما وراء شاطئ الإنكليز، يرسم شبحًا مائيًّا متراقصًا في الضباب المتصاعد من رصيف الصيَّادين. حدجَتَ بصرَها فاستطاعت أن ترى الجنَّة بحسب كلود مونيه، الرسَّام المفضَّل لدى والدها.

فتحت إرين النافذةَ على مصراعيها، فدخلت نسائمُ البحر، المشبعةُ بعطر الملوحة، لتفيضَ بالغرفة. التفت سربُ النوارس المقيمة على الجرف لتنظر إليها بفضول. جيرانٌ جدد. رأت إرين أنَّ دوريان على مقربة من هناك، استقرَّ في ملجئه المفضَّل بين

الصخور، عازمًا على تصنيف أنواع السراب، وجرذان الزباب... أو منغمسًا في أيّ شيءٍ يفعله خلال جولاته الاستكشافيّة الانفراديّة.

وعندما كانت إرين مشغولةً في اختيار الثوب الذي سترتديه للخروج والاستمتاع بذلك الصباح المسروق من حلمٍ مّا، سمعت صوتًا مجهولًا، مُبتهِجًا ومُتحمِّسًا، يتناهى إلى مسمعها من الطابق السفليّ. وبعد أن أصخت السمع، اتَّضحَت لها نبرةُ والدتها الهادئة والمعتدلة، تُناقِشُ أو بالأحرى تحاول أن تفوهَ بإجاباتٍ قصيرة خلال الفواصل النادرة التي تتكرَّمُ بها مُخاطِبتُها.

وفي الأثناء حاولت إرين أن تُكوِّنَ فكرةً عن مظهر ذلك الشخص من خلال صوته. كانت هذه إحدى هواياتها المفضَّلة في صغرها. أن تصغي إلى صوتٍ وهي مغمضة العينين، وأن تتكهَّنَ شكلَ صاحب الصوت: أن تُحدِّدَ طول قامته، وزنه، وجهه، طبعه...

وفي هذه المرَّة رسم حدسُها امرأةً شابّة، قصيرة القامة، عصبيّةً ومتوتِّرة، شعرها بنّيٌّ وقد يكون لونُ عينيها كذلك. قرَّرَت أن تنزلَ إلى الطابق السفليّ، بتلك الصورة في مُخيِّلتها، لغرضين: لكي تُشبعَ الجوعَ الصباحيَّ بفطورٍ لذيذ، ولكي تُشبعَ الفضولَ المتعلِّقَ بمعرفة صاحب ذلك الصوت على وجه الخصوص.

وما إن وطئت قدمُها أرضَ الصالة تبيَّنَت أنَّها أخطأت في شيءٍ واحد: شعر الفتاة من لون القشّ. وما تبقّى من تكهُّناتٍ

دقيقٌ تمامًا. وهكذا تسنّى لإرين أن تتعرَّفَ على حنَّة الأخَّاذة والثرثارة؛ بمحض الاستماع إليها.

*

فعلت سيمون ما في وسعها من فطورٍ شهيٍّ، لتردَّ جميلَ العشاء الذي حضَّرتْهُ حنَّة في الأمسية السابقة، على شرف لقائهم بلازاروس يان. كانت الفتاة تلتهم الطعامَ بسرعةٍ تفوق سرعتها بالكلام. وكان تيَّارُ الحواديت والأقاويل والحكايات من كلّ نوعٍ حول البلدة وسكَّانها، يتدفَّقُ بسرعة البرق، حتّى إنَّ سيمون وإرين شعرتا في غضون دقائق أنَّهما تعرفان البلدة منذ زمن بعيد.

بين قطعة خبزٍ مُحمَّصٍ وأخرى، لخَّصَت حنَّة سيرتها بكثافةٍ عالية. كانت ستتمُّ أعوامها الستّة عشر في نوفمبر؛ وكان لأهلها منزلٌ في البلدة؛ أبوها صيَّاد، وأمُّها خبَّازة؛ وكان إسماعيلُ ابنُ عمِّها يعيش معهم أيضًا، وقد فَقَدَ أبويه منذ أعوام وراح يساعد عمَّه، أي والدَها، في الصيد. أمّا هي فلم تعد تتردَّدُ إلى المدرسة لأنَّ الملعونة جان برو، مديرة المدرسة الحكوميّة، وصفتْها بأنَّها مُغفَّلة وبليدة. وبكلّ الأحوال ها هو إسماعيل يُعلِّمُها القراءة، كما أنَّ إلمامَها بجداول الضرب يتحسَّنُ يومًا بعد يوم. مولعةٌ باللون الأصفر، وجمع القواقع التي تعثر عليها عند شاطئ الإنكليز. تسليتها المفضَّلة هي الاستماع إلى المسلسلات الإذاعيّة، والمشاركة في الرقصات الصيفيّة التي تُقام في الساحة الكبرى، عندما تصل الفرقُ الموسيقيّةُ المتجوِّلةُ إلى البلدة. لا تستعمل العطور، لكنَّها تحبُّ أحمر الشفاه...

الإصغاءُ إلى حنّة تجربةٌ تتراوح بين الترفيه والإعياء. فبعد أن أجهزت على فطورها وكلِّ ما لم تستطع إرين إنهاءَه، سكتت حنَّة بضع ثوانٍ. ساد البيتَ صمتٌ خارقٌ للطبيعة. لكنَّه لم يدم طويلًا في واقع الحال.

- ما رأيكِ أن نتنزَّهَ أنا وأنتِ لأُطلِعَكِ على البلدة؟ - سألتْ حنَّة، وسرعان ما تحمَّسَت لفكرة أنَّها ستؤدّي دور الدليل في الخليج الأزرق.

تبادلت إرين وأمُّها النظرات.

- يُسعِدُني جدًّا. - أجابت الفتاة في النهاية.

ارتسمت ابتسامةٌ من الأذن إلى الأذن على وجه حنَّة.

- لا تقلقي يا سيّدة سوفيل. سأُرجِعُها إليكِ سالمةً وغانمة.

وهكذا خرجت إرين مع صديقتها الجديدة مُسرِعَتين باتِّجاه شاطئ الإنكليز، وعاد الهدوءُ إلى بيت الرأس شيئًا فشيئًا. أخذت سيمون فنجانَ قهوتها وخرجت إلى الترّاس لتتذوَّقَ سكينةَ ذاك الصباح. حيَّاها دوريان من بين صخوره.

ردَّت سيمون التحيَّة. يا له من صبيٍّ غريب الأطوار. انطوائيٌّ على الدوام. لا يبدو مهتمًّا بالتعرُّف على أصدقاء جدد أو ربّما لا يقوى على ذلك. هائمٌ في عالمه ودفاتره، وحدَها السماءُ تعرف ما الأفكار التي تدور في ذهنه. أنهت سيمون قهوتها، وألقت نظرةً أخيرةً إلى حنَّة وابنتها المتَّجهتين نحو البلدة. ما زالت حنَّة تتحدَّثُ بلا انقطاع. حظوظٌ متفاوتة!

*

انشغلت عائلةُ سوڤيل في معظم الوقت من شهر يونيو، أوّل شهرٍ لهم في الخليج الأزرق، انشغلوا في الاطّلاع على خفايا الحياة وألغازها في بلدةٍ ساحليّةٍ صغيرة. دامت المرحلةُ الأولى، المتَّسمة بالصدمة الثقافيّة والارتباك، أسبوعًا كاملًا. اكتشفت العائلةُ أثناء تلك الأيّام أنَّه، باستثناء نظام القياس العُشريّ، كانت أعرافُ الخليج الأزرق وقواعدُه وخصوصيّاتُه مختلفةً كلَّ الاختلاف عمّا هو سائدٌ في باريس. مسألةُ التوقيت في المقام الأوّل. ليس من المبالغة التأكيدُ أنَّ لكلّ ألف مواطنٍ في باريس ما يربو على ألف ساعة، وألف طاغية لتنظيم الحياة بنزعةٍ عسكريّة. أمّا في الخليج الأزرق، خلافًا لذلك، لا وجود لأيّ ساعة عدا ساعة الشمس. ولا سيَّارة عدا سيَّارة الطبيب جيرو، وسيَّارة الدرك، وسيَّارة لازاروس. لا أكثر... قائمةُ الفروقات لا تنتهي. وفي الحقيقة لا تكمن الفروقاتُ في الأعداد، إنّما في العادات.

باريس مدينةُ الأغراب، حيث من الممكن أن تعيش أعوامًا دون أن تعرف اسمَ جارك. أمّا في الخليج الأزرق، هيهات، من المستحيل أن تعطسَ أو تحكَّ طرفَ أنفك دون أن ينتشرَ الخبرُ انتشارًا واسعًا وتتردَّدَ أصداؤه في المجتمع الأهليّ برمَّته. بلدةٌ تتحوَّلُ فيها نزلاتُ البردِ إلى أخبار، والأخبارُ فيها مُعدِيةٌ أكثر من نزلات البرد. لا وجود فيها لصحيفةٍ محلّيّة، ولا حاجة إليها.

تولَّت حنَّة تثقيفَهم بكلّ ما يتعلَّقُ بحياة المجتمع الأهليّ وتاريخه ومعجزاته. استطاعت الفتاةُ بالسرعة المذهلة التي ترشق بها الكلمات أن تُكثِّفَ في بضع جلساتٍ ما يكفي من معلوماتٍ

وشائعاتٍ لإعادة كتابة الموسوعة بنَفَسٍ واحدٍ وبلا أخطاء. عرفوا أنَّ لوران ساڤان، قسَّ البلدة، كان يُنظِّمُ بطولات غوصٍ ومسابقات جري، وأنَّه إضافةً إلى التلعثم في مواعظه عن الكسل وانعدام ممارسة الرياضة، قطع على الدرَّاجة أميالًا أكثر من الرحَّالة ماركو بولو. كما عرفوا أنَّ المجلسَ المحليَّ ينعقد كلَّ ثلاثاء وخميس عند الواحدة ظهرًا لمناقشة مسائل متعلِّقة بالبلديّة، وأنَّ إرنست ديجون - العمدة مدى الحياة افتراضًا، إذ إنَّ عمره يتحدَّى عمر متشولخ، جدِّ نوح - كان يستمتع خلال تلك الاجتماعات بتلمُّسٍ فاسقٍ لوسائد مقعده من تحت الطاولة، ظنًّا منه أنَّه يستكشف فخذَ أنطوانيت فابريه الممتلئة، أمينة صندوق البلديّة والعزباء الشرسة التي لا يجاريها أحد.

كانت حنَّة تستهدفهم بمعدَّل اثنتي عشرة حكاية من هذا العيار بالدقيقة الواحدة. ولم يكن هذا مُستَهجَنًا طالما أنَّ أمَّها، إليزابيت، التي تعمل في مخبز البلدة، تؤدّي وظيفةَ وكالة أنباء، ووكالة مخابرات، ومكتب استشارات عاطفيّة لمنطقة الخليج الأزرق.

لم تستغرق عائلةُ سوڤيل وقتًا طويلًا لتدركَ أنَّ اقتصادَ البلدة يميل نحو نسخةٍ مميَّزة عن الرأسماليّة الباريسيّة. الفرن يبيع الخبزَ في الظاهر، لكنَّ عصرَ المعلومات بدأ في المستودع الخلفيّ بالفعل. السيّد سافون، الإسكافيّ، يُصلِّحُ الأحزمةَ والسحَّابات وأسفل الأحذية، لكنَّ مصدرَ قوَّته، وما يجذب زبائنه، يكمن في حياته المزدوجة باعتباره مُنجِّمًا، ناهيك بخرائطه الفلكيّة...

تتكرَّرُ الأنماطُ دومًا. كانت الحياةُ تبدو وديعةً وبسيطة،

لكنَّها في الوقت نفسه تغصُّ بانحناءاتٍ تفوق أيَّ ستارةٍ بيزنطيّة. ينطوي السرُّ إذًا في التكيُّف مع إيقاع البلدة الفريد، والإصغاء إلى أهاليها وتقبُّلِ إرشاداتهم من خلال المراسم التي يجب على كلّ الوافدين الجدد أن يُنفِّذوها قبل أن يُؤكِّدوا على إقامتهم في الخليج الأزرق.

لذا كلَّما ذهبت سيمون إلى البلدة لاستلام بريد لازاروس وطروده، عرَّجَت على المخبز وحصلت على أخبارٍ من الماضي، والحاضر، والمستقبل. استقبلتْها نساءُ الخليج الأزرق بحفاوة، ولم يتأخَّرن في قصفها بوابلٍ من الأسئلة حول ربّ عملها الغامض. لازاروس يعيش حياته منكفئًا، وقلَّما شُوهِدَ في البلدة. وكان هذا الأمر، إضافةً إلى كمّيّة الكتب التي يتلقَّاها كلَّ أسبوع، يجعله محورًا لألغازٍ لا حدود لها.

- تخيَّلي يا صديقتي. - أسرَّت لها ذات مرَّة باسكال لولوش، زوجة الصيدلانيّ - رجلٌ وحيد، في المحصِّلة، وحيدٌ فعليًّا... في تلك الدار، صحبة كلّ تلك الكتب.

وكانت سيمون في العادة تهزُّ رأسها مبتسمةً أمام استعراضات الحذاقة هذه، دون أن تبوح بشيءٍ من جانبها. على رأي زوجها الفقيد الذي قال ذات مرَّة: لا ينبغي أن نهدرَ الوقت في محاولة تغيير العالم؛ يكفي أن نتجنَّبَ أن يُغيِّرَنا العالم.

كانت تتعلَّمُ أيضًا أن تحترمَ طلبات لازاروس العجيبة بما يخصُّ المراسلات. الرسائلُ الشخصيّةُ تُفتَحُ في اليوم التالي لوصولها ويُردُّ عليها بأسرع وقت. الرسائلُ التجاريّةُ أو الرسميّةُ تُفتَحُ في يوم وصولها بالضبط، ولكن لا يُردُّ عليها قبل ذلك

بأسبوع. والأهمُّ، فوق كلّ اعتبار، أيُّ شيءٍ مُرسَلٌ من برلين، باسم دانيال هوفمان، يجب أن يُسلَّمَ للازاوس شخصيًّا، وألّا تفتحه بنفسها أبدًا، مهما كانت الدوافع، ومهما كانت الظروف. خلصت سيمون إلى أنَّ أسباب هذه التفاصيل بالمجمل لا تعنيها. اكتشفت أنَّها تحبُّ العيشَ في ذلك المكان، وأنَّه يبدو لها بيئةً سليمةً بصورةٍ معقولة لينشأ ابناها بعيدًا عن باريس. كانت تفتخر بأنَّها لا تبالي مطلقًا إذا ما فُتِحَت الرسائلُ في يومٍ بعينه دون آخر.

ومن جانبه، اكتشف دوريان أنَّ انغماسَهُ شِبهَ الاحترافيّ في علم الخرائط يتيح له حيِّزًا من الوقت لإنشاء بعض الصداقات مع صبية البلدة. لا يبدو أنَّ أحدًا منهم مهتمٌّ بما إذا كانت عائلته قد وصلت مؤخَّرًا أم لا، أو ما إذا كان سبَّاحًا ماهرًا أم لا (لم يكن كذلك في البدء، لكنَّ رفاقه الجدد تكفَّلوا بتعليمه كيفيّة العوم). تعلَّمَ أنَّ لعبةَ إلقاء الكرات الحديديّة تُناسِبُ الرجالَ المقبلين على التقاعد، وأنَّ ملاحقة الفتيات تُناسِبُ المراهقين السفهاء الذين تكتسحهم نوباتُ الحمّى الهرمونيّة التي تصيب الجلدَ والحسَّ السليم. ولا بدَّ أنَّ ما يناسب سنَّهُ يتمثَّلُ في التسكُّعِ بالدرَّاجة، وتخيُّلِ العالم والتأمُّلِ فيه، عسى أن يلتفت العالمُ إليه يومًا للتأمُّل فيه. أمّا النشاط الذي خصَّصَهُ لظهيرة يوم الأحد، فهو الذهاب إلى السينما. اكتشف دوريان حبًّا جديدًا، آثمًا، يبهت علمُ الخرائط مقارنةً به كالرّقّ المصفرّ: غريتا غاربو. مخلوقٌ إلهيٌّ، لا يكاد يُذكَرُ اسمُها على الغداء حتّى يصابَ بفقدان الشهيّة، على الرغم من أنَّها مُسنَّةٌ في الحقيقة... تناهز الثلاثين عامًا.

وفي حين كان دوريان يتساءل ما إذا أظهَرَ افتتانُهُ بامرأةٍ على

أعتاب الشيخوخة أعراضَ انحراف، كانت إرين تتلقّى تأثيراتِ حنَّة المباشرة، على أوسع نطاق، أكثر من أيّ شخصٍ آخر. وكانت قائمةُ الفتية غير المرتبطين وذوي الرفقة الممتعة على رأس الأولويَّات. تعتقد حنَّة أنَّ إرين، إذا أتمَّت خمسة عشر يومًا على وصولها إلى البلدة، ولم تبدأ بعدُ بمخالطة أحد الشبَّان، فسوف يعتبرونها بنتًا غريبةَ الأطوار. تستحقُّ قائمةُ الفتية إشادةً لائقة من حيث العضلات المفتولة بحسب حنَّة، لكنَّ حنَّة نفسَها تُقرُّ فيما يخصُّ عقولهم بأنَّ القسمةَ الإلهيّةَ كانت شحيحةً وصارمةً من حيث الفاعليّة. وبكلّ الأحوال، لم يكن ينقصها مُتطلِّعون أو مُتيَّمون، وهذا ما كان يثير حسدَ صديقتها الصحّيّ.

- آهٍ يا ابنتي، لو كان نحاجُكِ من نصيبي، لأصبحتُ بمنزلة ماتا هاري. - كانت حنَّة تقول.

فتُوجِّهُ إرين نظرةً إلى قطيع الفتية الذين يتظاهرون بأنَّهم يمرُّون بجانبهما بمحض الصدفة، وتبتسم ابتسامةً خجولة.

- لستُ واثقةٌ من أنَّهم يثيرون اهتمامي... يبدون أغبياء نوعًا مّا.

- أغبياء؟ - تنفجر حنَّة جرَّاء هدر الفرص هذا - إن أردتِ شيئًا يثير الاهتمام، فاذهبي إلى السينما أو اقرئي كتابًا!

- سأُفكِّرُ بالمقترح. - تضحك إرين.

وتهزُّ حنَّة رأسها.

- سينتهي بكِ المطافُ بإسماعيل. - تُفصِحُ حنَّة عن حُكمها عندئذ.

إسماعيل هو ابن عمِّها، ذو ستّة عشر عامًا، وكان كما روت

حنَّة قد ترعرع في منزل عائلتها بعد وفاة أبويه. يعمل بحَّارًا على مركب عمِّه، لكنَّ أهواءَهُ الحقيقيّةَ هي العزلةُ وقاربٌ شراعيٌّ صنعه بيديه وأطلق عليه اسمًا لا تقوى حنَّة على تذكُّره.

- اسمٌ يونانيّ، على ما أعتقد. - تأفَّفَت.

- وأين هو الآن؟ - سألتها إرين.

- في البحر. أشهرُ الصيف مفيدةٌ جدًّا للصيَّادين، الذين ينضمّون إلى حملاتٍ في عرض البحر. إسماعيل وأبي على متن سفينة *الإستيل*. لن يعودا حتّى أغسطس. - شرحت حنَّة.

- لا بدَّ أنَّه أمرٌ حزين. قضاء وقتٍ طويلٍ في البحر، منعزلين...

رفعت حنَّة كتفيها.

- يجب أن تكسبي لقمة العيش...

- لا تحبّين العمل في كريثنمور، أليس صحيحًا؟ - ألمحت إرين.

نظرت إليها صديقتُها وقد فاجأها السؤال.

- ليس من شأني، واضح. - استدركت إرين.

- السؤال لا يزعجني. - قالت حنَّة مبتسمةً - في الحقيقة لا أحبُّ العملَ هناك.

- بسبب لازاروس؟

- إطلاقًا. لازاروس رجلٌ لطيف ولطالما كان طيِّبًا معنا. عندما تعرَّضَ والدي لحادث المراوح، منذ أعوام، أخذ لازاروس على عاتقه تكاليفَ العمليّة. ليت الأمر تعلَّقَ بلازاروس وحدَه...

- فماذا إذًا؟

- لا أدري. المكانُ بعينه. الآلات... مليءٌ بآلاتٍ ترمقكِ طوال الوقت.

- لكنَّها مُجرَّد ألعاب.

- جرِّبي أن تنامي هناك ليلةً واحدة. فما إن تغمضي عينيكِ، حتّى تبدأ التكتكة: تِكْ تَكْ، تِكْ تَكْ...

نظرت كلٌّ منهما إلى الأخرى.

- تِكْ تَكْ، تِكْ تَك؟ - ردَّدَت إرين.

رمتها حنَّة بابتسامةٍ ساخرة.

- قد أكون جبانة، لكنَّكِ تتحضَّرين لتصبحي امرأةً عانسًا.

- أحبُّ العوانس. - ردَّت إرين.

*

مرَّت الأيَّامُ على هذا النحو، ومن دون حتّى أن يشعروا. وأقبَلَ أغسطس من دون حتّى أن ينتبهوا، حاملًا معه أولى أمطار الصيف، وعواصف عابرة تدوم قرابة الساعتين لا أكثر. كانت سيمون مشغولةً في واجباتها الجديدة. وإرين تعتاد الحياةَ بجانب حنّة. ودوريان - لا داعي للقول - يتعلَّمُ الغوصَ ويرسم خرائطَ خياليّةً لتضاريس غريتا غاربو السّرّيّة.

وفي أحد تلك الأيَّام من شهر أغسطس حيث نَحَتَ المطرُ الليليُّ في الغيوم قلاعًا قطنيّةً فوق صفيحةٍ زرقاء متلألئة، قرَّرَت حنَّة وإرين التنزُّهَ على شاطئ الإنكليز. وكان قد مرَّ شهرٌ ونصفُ الشهر على وصول عائلة سوڤيل إلى الخليج الأزرق. وحين بدا

أنَّه لم يعد هناك متَّسعٌ للمفاجآت، كان قد آنَ أوانُ هذه المفاجآت.

*

كشف ضوءُ منتصف النهار عن أثر خطواتٍ عند خطّ الجزر: خدوشٌ على صفيحةٍ بيضاء. وكانت صواري المراكب البعيدة في الميناء تلمع كالسراب على وجه البحر.

استراحت إرين وحنَّة على أنقاض سفينةٍ قديمة، وعالقةٍ وسط امتدادٍ هائلٍ لرملٍ أبيض وناعم كالغبار. وكانتا محاطتين بسربٍ من عصافير زرقاء، كأنَّها بَنَتْ أعشاشَها بين البحيرات الشاطئة الناصعة.

- لماذا سُمِّيَ بشاطئ الإنكليز؟ - سألت إرين وهي تراقب المساحة المقفرة ما بين البلدة ورأس الخليج.

- عاش هنا رسَّامٌ بريطانيٌّ عجوز داخل كوخ على مدى سنوات. كان على المسكين ديونٌ تفوق ما لديه من أدواتٍ للرسم. وكان يهدي أهلَ البلدة لوحاتٍ مقابل الطعام واللباس. ومات منذ ثلاثة أعوام. ودفنوه هنا، على الشاطئ الذي أمضى عليه حياته. - فسَّرَت حنَّة.

- لو كان لي الخيار، لوددتُ أنا أيضًا أن أُدفَنَ في مكانٍ كهذا.

- يا لها من خواطر مُبهِجة. - مازحتها حنَّة، بما ينمُّ عن تأنيب.

- لكنّي لستُ مستعجلة. - أوضحت إرين، بينما كانت

نظراتها تُسجِّلُ حضورَ قاربٍ شراعيٍّ صغير يتهادى في الخليج على بُعد مئة مترٍ عن الشاطئ.

- آه... - تأفَّفَت صديقتُها - ها هو ذا: البحَّارُ الانطوائيّ.

لم يستطع أن ينتظر يومًا واحدًا ليركبَ قاربه الشراعيّ.

- مَن؟

- عاد أبي وابن عمّي بالسفينة أمس. - فصَّلَت حنّة - أبي ما يزال نائمًا، لكنَّ هذا... لا حلَّ له.

تحرَّت إرين في البحر فلاحظت قاربًا يتهادى في الخليج.

- إنَّه إسماعيل، ابن عمّي. يُمضي نصفَ حياته على ذلك القارب، عندما لا يعمل مع والدي عند رصيف الصيَّادين على الأقلّ. لكنَّه فتىً طيِّب... أترين هذه القلادة؟

أظهرت حنَّة على مرآها قلادةً ثمينةً تتدلّى من طوقٍ ذهبيٍّ على عنقها: شمسٌ غارقةٌ في البحر.

- هذه هديّةٌ من إسماعيل...

- رائعة. - قالت إرين وهي تتمعَّنُ الجوهرةَ باهتمام.

نهضت حنَّة وأطلقت صرخةً انقذف على إثرها سربُ العصافير إلى الطرف الآخر من الشاطئ. رفع الطيفُ الواهي يده عن الدفّة مُحيِّيًا، ووجَّهَ حيزومَ قاربه نحو الشطّ.

- لا تسأليه عن القارب الشراعيّ تحديدًا. - حذَّرَتْ حنَّة - وإذا بادر بنفسه، فلا تسأليه كيف صنعه. بإمكانه أن يتحدَّث طوال ساعات دون توقُّف.

- هذا طبعٌ في العائلة إذًا...

رمتها حنَّة بنظرةٍ غاضبة.

- أُفكِّرُ في ترككِ هنا على الشاطئ، طعامًا للسرطانات.

- المعذرة.

- قبلتُ عذركِ. ولكن، إن كنتُ أبدو لكِ ثرثارةً، فانتظري لتتعرَّفي على أمّي الحبيبة. أمّا بقيّة أفراد العائلة فيبدون صُمًّا.

- أنا واثقةٌ من أنَّني سأُسَرُّ بمعرفتها.

- آه. - ردَّت حنَّة، عاجزةً عن كتم ابتسامتها الماكرة.

*

قطع قاربُ إسماعيل خطَّ الأمواج برفق، وانغرس الصالبُ في الرمل كسكِّين. سارع الفتى إلى إرخاء حبل المرساة، وأنزل الشراعَ حتّى قاعدة الصاري في غضون ثوانٍ. لم تكن تنقصه الخبرة بطبيعة الحال. وما إن وطئت قدمُهُ الأرضَ، حتّى وجَّهَ إسماعيل إلى إرين نظرةً لاإراديّةً من رأسها حتّى قدميها، نظرةً لا تقلُّ فصاحةً عن مهاراته الملاحيّة. عجَّلَت حنَّة التقديمات، على طريقتها بالطبع، عيناها جاحظتان ولسانها خارج فمها، بإيماءاتٍ ساخرة.

- إسماعيل، هذه صديقتي. - أفصحت بلطف - ولكن لا داعي لالتهامها.

نكز الفتى ابنةَ عمِّه بمرفقه ومدَّ يده نحو إرين.

- مرحبًا...

كانت التحيّةُ الموجزةُ مصحوبةً بابتسامةٍ خجولةٍ وصادقة. صافحتْهُ إرين.

- اطمئنّي، ليس غبيًّا؛ إنّما هذه طريقته ليُعرِبَ عن سعادته بمعرفتكِ وما إلى ذلك. - أوضحت حنَّة.

- ابنة عمّي تتكلَّمُ كثيرًا حتّى إنّي أظنُّ أحيانًا أنَّها ستستنزف القاموس. - مازَحَ إسماعيل - أتصوَّرُ أنَّها أوصتكِ بألّا تسأليني عن شيء بخصوص القارب الشراعيّ...

- لا والحقُّ يقال. - أجابت إرين بحذر.

- حقًّا. حنَّة تعتقد أنَّه الموضوع الوحيد الذي يمكنني التحدُّث عنه.

- تُجيد الحديثَ عن الشباك وحبل الصاري، ولكنَّك تُحلِّقُ عاليًا في الحديث عن القارب، يا ابن العمّ.

استمتعت إرين بمشاهدة ذلك النزال الطريف. لا يبدو أنَّ في الأمر خبثًا، أو فلنقل إنَّه لا أكثر ولا أقلّ من رشّة ملحٍ ضروريّة لكسر الروتين.

- سمعتُ أنَّكم نزلتم في بيت الرأس. - قال إسماعيل.

ركَّزَت إرين على الفتى وكوَّنَت عنه فكرة. عمرُهُ يقارب الستّة عشر عامًا فعلًا. جلدُهُ وشعرُهُ يدلّان على المدَّة التي أمضاها في عرض البحر. جسمُهُ يكشف عن العمل الشاقّ على رصيف الصيَّادين؛ يداه وذراعاه مُحزَّزة بندوبٍ صغيرة، غير سائدةٍ لدى الشبَّان الباريسيّين. ثمّة ندبةٌ، طويلةٌ وملحوظة، تمتدُّ على ساقه اليمنى، من أعلى الركبة إلى الكاحل. تساءلت إرين تُرى أين حاز جائزةً كهذه. وفي النهاية ركَّزَت في عينيه، الأثر الوحيد من مظهره الذي بدا لها خارجًا عن السياق. عينان واسعتان وصافيتان، كأنَّهما مرسومتان لإخفاء أسرارٍ خلف نظرةٍ مُكثَّفةٍ

وحزينةٍ بغموض. ذكَّرَتها بنظرات المجنَّدين الذين لا اسم لهم، الذين كانت تراقصهم ثلاث دقائق أو تكاد على إيقاع فرقةٍ من النخب الرابع: نظراتٌ تخفي الرعبَ أو الحزنَ أو المرارة.

- هل دخلتِ غيبوبةً يا عزيزتي؟ - انتشلتْها حنَّة من شرودها.

- كنتُ أُفكِّرُ بأنَّنا تأخَّرنا. سينشغل بالُ والدتي.

- ستكون والدتكِ سعيدةً إذا تركتماها وشأنها قليلًا. لكنَّ الأمر عائدٌ لكِ. - قالت حنَّة.

- بوسعي أن أرافقكِ بالقارب، إن أردتِ. - تطوَّعَ إسماعيل

- لبيت الرأس مرسىً صغير بين صخور الجرف.

تبادلت إرين وحنَّة نظرةً استفهاميّة.

- إن رفضتِ عرضَهُ، حطَّمتِ قلبَهُ. ابنُ عمّي لا يدعو إلى قاربه حتّى غريتا غاربو، صدِّقيني.

- ألن تأتي؟ - سألتها إرين، بارتباك.

- لن أركبَ هذه الخشبة حتّى لو دفعوا لي مبلغًا طائلًا. ثمَّ إنَّ اليوم إجازتي، وفي المساء حفلةٌ راقصة في الساحة. لو كنتُ مكانكِ لفكَّرتُ جيِّدًا. الورقة الرابحة موجودةٌ على اليابسة. اسمعي منّي فأنا ابنةُ صيَّاد. لا أدري ماذا أقول. هيّا، تحرَّكا. وأنت أيُّها البحَّار، خيرٌ لك أن تصل صديقتي سالمةً غانمةً إلى وجهتها. مفهوم؟

*

كان اسمُ القارب مخطوطًا على جنبه، «كيانيوس». توغَّلَ في

البحر بينما كانت أشرعتُهُ البيضاءُ تنتفخ بالريح، وحيزومُهُ يشقُّ العبابَ باتِّجاه رأس الخليج.

وكان إسماعيل، بين مناورةٍ وأخرى، يبعث للفتاة ابتساماتٍ خجولة، ولم يجلس إلى الدفَّة إلّا بعد أن توازن مسارُ القارب مع التيَّار. وكانت إرين متشبِّثةً بالمقعد، ورذاذُ الماء يُبلِّلُ جلدَها. الريحُ تدفعهما بقوَّة، حتّى أصبحت حنَّة نقطةً صغيرةً تُلوِّحُ بذراعها من على الشطّ. وكانت سرعةُ القارب في عبوره الخليج، وصوتُ البحر على جوانبه الخشبيّة، تثير في نفس إرين رغبةً في الضحك بلا سببٍ واضح.

- أهي المرَّةُ الأولى؟ - سأل إسماعيل - أقصد على متن قاربٍ شراعيّ.

أومأت إرين مؤكِّدةً.

- تجربة مختلفة، أليس كذلك؟

أومأت من جديد، مبتسمةً، وأنظارها لا تحيد عن الندبة الكبيرة التي على ساق إسماعيل.

- عضَّةُ قنجر. - فسَّرَ الفتى - قصَّةٌ طويلة.

رفعت إرين عينيها وصوَّبَت نظرها إلى قصر كريڤنمور الذي يعلو رؤوس شجر الغاب.

- ما معنى اسم قاربك؟

- كلمة يونانيّة. «Kyaneos»: وتعني السيان. - فسَّرَ إسماعيل بنبرةٍ ملغَّزة.

وبما أنَّ إرين قطَّبَت جبينها ولم تفهم، واصل إسماعيل شرحه.

- كان الإغريق يستخدمون هذه الكلمة لتعريف اللون الأزرق الداكن، أي لون البحر. وحين تحدَّثَ هوميروس عن البحر، قارَنَ لونَهُ بلون النبيذ الداكن. وهذه هي الكلمة التي كان يستخدمها: Kyaneos.

- أرى أنَّك تجيد الحديثَ عن أشياء أخرى، وليس عن قاربك والشباك فحسب.

- أحاول.

- مَن علَّمَك؟

- الملاحة؟ تعلَّمتُ بمفردي.

- لا، أقصد ما يتعلَّقُ بالإغريق...

- كان والدي مولعًا بالتاريخ. وما زالت لديَّ بعض كتبه.

التزمت إرين الصمت.

- لا بدَّ أنَّ حنَّة روت عليكِ أنَّ أبويَّ توفّيا.

اكتفت بالإيماء. تبدَّت جزيرةُ المنارة على بُعد مئة متر تقريبًا. نظرت إليها إرين، مبهورةً.

- المنارةُ مُقفَلةٌ منذ أعوامٍ طويلة. وحاليًّا نستخدم منارةَ ميناء الخليج الأزرق عوضًا عنها. - أوضح لها.

- ألا يذهب أحدٌ إلى الجزيرة بعد؟ - سألت إرين.

نفى إسماعيل بهزَّةٍ من رأسه.

- ما السبب؟

- هل تعجبكِ حكاياتُ الأرواح؟ - أجاب بسؤال.

- هذا يتوقَّفُ على الحكاية...

- يظنُّ أهلُ البلدة أنَّ جزيرةَ المنارة مسحورةٌ أو شيء من

هذا القبيل. يقال إنَّ امرأةً غرقت هناك منذ أمدٍ بعيد. ثمّة مَن يرى أضواء. باختصار، لكلّ بلدةٍ خرافاتُها. وبلدتُنا ليست بأقلّ منزلةً.

- أضواء؟

- أضواء سبتمبر. - قال إسماعيل بينما كانا يقطعان الجزيرة من ناحيتها اليمنى - تقول الأسطورة، إن أردتِ تسميتها هكذا، إنَّه في إحدى الأمسيات من أواخر الصيف، وأثناء حفلةٍ تنكُّريّةٍ في البلدة، رأى الناسُ امرأةً مُتنكِّرةً تركب قاربًا شراعيًّا في الميناء وتتوغَّلُ في البحر. ظنَّ بعضهم أنَّها ذاهبةٌ إلى موعدٍ مع عشيقها في جزيرة المنارة؛ فيما ظنَّ آخرون أنَّها هاربةٌ من جريمةٍ نكراء... وكما ترين، كلُّ التأويلات صالحةٌ طالما أنْ لا أحد في الحقيقة قد عرف مَن تكون حقًّا. كان وجهُها مخفيًّا بقناع. ورغم هذا، وبينما كانت تقطع الخليج، هبَّت عاصفةٌ هوجاء على حين غرَّة، وجرفت القاربَ إلى الصخور حيث تحطَّم. غرقت المرأة الغامضة المجهولة الهويّة، أو لم يُعثَر على جسدها قطّ على الأقلّ. وبعد أيَّام، أعاد المدُّ قناعَها، الذي تمزَّقَ على الصخور. ومنذ ذلك الحين يقول الناس إنَّ أضواءً تومض في الجزيرة، عند الفجر، خلال الأيَّام الأخيرة من الصيف...

- روح تلك المرأة...

- تمامًا. تحاول روحُها أن تُنجِزَ رحلتَها غير المكتملة نحو الجزيرة... هذا ما يقال.

- أوهذا صحيح؟

- هي حكايةٌ عن الأرواح. فإمّا صدَّقتِها وإمّا فلا.

- وأنت، هل تُصدِّقُها؟ - استجوبته إرين.

- أنا لا أُصدِّقُ إلّا ما أراه.

- بحَّارٌ مُتشكِّك.

- شيءٌ من هذا القبيل.

أرسلت إرين نظرةً أخرى إلى الجزيرة. كانت الأمواجُ تتلاطم بشدَّةٍ على صخورها. والزجاجُ المحطَّمُ في برج المنارة يعكس الضوء، بتفكيكه إلى قوس قزحٍ طيفيٍّ يتبدَّدُ في صفحة الماء التي تفيض بزبد الموج.

- هل زرتَها يومًا؟ - سألت.

- الجزيرة؟

شدَّ إسماعيل الشراعَ إليه، وتحكَّمَ بالدفّة فانحنى القاربُ على جانبه الأيسر، مُوجِّهًا الحيزومَ نحو رأس الخليج، وبذا قطع التيَّارَ الآتي من القناة.

- لعلَّ زيارةَ الجزيرة تسرُّكِ. - اقترح.

- أهذا ممكن؟

- كلُّ شيء ممكن إذا توافرت الجرأة. - أجاب إسماعيل بابتسامة تحدٍّ.

تحدَّت إرين نظرته.

- متى؟

- السبت القادم. بقاربي.

- بمفردنا؟

- بمفردنا. ولكن إن كنتِ خائفة...

- لستُ خائفة. - قاطعته إرين.

- نلتقي يوم السبت إذًا. سأمرُّ لآخذكِ من على المرسى قبل منتصف النهار.

أشاحت إرين نظراتها نحو الشاطئ. كان بيتُ الرأس يتبدّى فوق الجرف. دوريان يراقبهما، من الترّاس، ولا يستطيع إخفاء فضوله.

- شقيقي دوريان. لعلَّك تُسَرُّ في التعرُّف على أمّي...

- لستُ ماهرًا في المجاملات العائليّة.

- نؤجِّلها إلى يومٍ آخر إذًا.

دخل القاربُ في الخليج الصغير الذي شكَّلتْهُ الطبيعةُ بين صخور الجرف تحت بيت الرأس. أنزل إسماعيل الشراعَ ببراعةٍ تُفصِحُ عن مدى خبرته، وأتاح للتيَّار الخامل أن يقتادَ القاربَ حتّى المرسى الخشبيّ. أمسك حبلًا وقفز ليرسو. وبعد أن استقرَّ القارب، مدَّ يده نحو إرين.

- هوميروس كان ضريرًا في الواقع. كيف استطاع تحديد لون البحر؟ - سألت الفتاة.

أخذ إسماعيل يدها وأنزلها على المرسى بعزمٍ قويّ.

- هذا سببٌ إضافيٌّ لتصديق ما ترينه فقط. - أجاب الفتى وما زالت يدها في يده.

فكَّرَت إرين ثانيةً بكلمات لازاروس التي قالها عند انتهاء السهرة الأولى في كريڤنمور.

- العين تخدع أحيانًا. - أشارت.

- لكنَّها لا تخدعني.

- شكرًا على التوصيلة.

أومأ إسماعيل وترك يدها شيئًا فشيئًا.

- إلى يوم السبت.

- إلى يوم السبت.

قفز إلى القارب، أرخى الحبل وجعل التيَّارَ يُبعِدُهُ عن المرسى بينما كان يرفع الشراعَ من جديد. دفعته الريحُ إلى أن ولج *كيانيوس* الخليجَ بعد قليلٍ ليمتطي الأمواج.

ظلَّت إرين على الرصيف تنظر إلى الشراع الأبيض كيف يصغر حجمه قياسًا برحابة البحر. انتبهت أنَّ الابتسامة ما زالت مرسومةً على وجهها، وأنَّ إحساسًا مشبوهًا، أقرَبَ إلى التنميل، ينال من يدها. فأدركت حينذاك أنَّها مُقبِلةٌ على أسبوعٍ طويل، طويلٍ جدًّا.

4. أسرارٌ وظلال

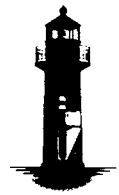

كان التقويمُ في الخليج الأزرق يُميِّزُ بين فترتين لا غير: الصيفُ وبقيَّةُ السنة. يُضاعِفُ أهلُ البلدة أوقاتَ عملهم ثلاثة أضعاف خلال فصل الصيف، وذلك لإمداد البلدات الساحليّة المجاورة، التي تستضيف المنتجعات والسيَّاح، والأناس القادمين من المدينة بحثًا عن الشواطئ والشمس والسأم المدفوع الأجر. لذا كان الخبَّازون، والحِرَفيّون، والخيَّاطات، والنجَّارون، والبنَّاؤون، وشتّى أنواع المهن، مُرتَهَنين للأشهر الثلاثة الطويلة التي تبتسم فيها الشمسُ لساحل النورماندي. فكان أهالي الخليج الأزرق، خلال تلك الأسابيع الثلاثة عشر أو الأربعة عشر، يتحوَّلون إلى نملٍ دؤوبٍ وكادح، ليتسنَّى لهم السكونُ للدعة والخمول بقيَّةَ السنة كالزيز المتواضع. وأمّا الأيَّامُ الأشدَّ كثافةً من سواها، فهي أولى أيَّام أغسطس، حيث يقفز الطلبُ على المنتجات المحلّيّة من الصفر إلى أبعد النجوم.

وكان كريستيان أوبير أحد الاستثناءات النادرة عن هذه

القاعدة. كريستيان، كغيره من أصحاب قوارب الصيد في البلدة، يعاني مصيرَ النملة اثني عشر شهرًا بالسنة. تشغل هذه الأفكارُ بالَ الصيَّاد المتمرِّس كلَّ صيف، في الموعد نفسه، حين يرى أنَّ البلدة برمَّتها تفتتح المشاريع من حوله. فيعتقد أنَّه أخطأ في اختيار مهنته، وأنَّ الحكمة تقتضي أن يضع حدًّا لتقليدٍ عائليٍّ متواصلٍ منذ سبعة أجيال، لعلَّه يصبح صاحبَ فندق، أو تاجرًا أو أيًّا كان. فإن تحقَّقَ ذلك لن تضطرَّ ابنته حنَّة إلى العمل طوال الأسبوع في كريڤنمور، وسيحظى هو برؤية وجه زوجته أكثر من ثلاثين دقيقة باليوم، خمس عشرة دقيقة عند الفجر وخمس عشرة عند الغروب.

حدَّقَ إسماعيل إلى عمِّه وهما يعملان معًا على إصلاح مضخّة جوف مركب الصيد. كان وجهُ الصيَّاد المهموم يفضح أفكاره.

- بإمكانك أن تفتتحَ ورشةً بحريّة. - أفصح إسماعيل.

أجابه عمُّه بهمهمةٍ أو ما شابه.

- أو أن تبيعَ المركبَ وتستثمرَ الأموالَ في محلّ السيّد ديدييه. فهو يصرُّ على هذا منذ ستّة أعوام. - تابع الفتى.

توقَّفَ العمُّ عمّا كان فيه ورمق ابن أخيه. لم يستطع، خلال ثلاثة عشر عامًا أدَّى فيها دورَ الأب، أن يُغيِّرَ أكثر ما كان يخشاه ويهواه في طبع الفتى: التشابه المتطابق والمتعنِّت مع والده الفقيد، لاسيّما في الميل إلى التعبير عن رأيه حين لا يطلب أحدٌ منه النصح.

- ربّما توجَّبَ عليك أنت أن تفعل ذلك. - أجاب كريستيان

- فأنا بتُّ على مشارف الخمسين من عمري. لا أحد يُغيِّرُ مهنته في سنّي.

- فلماذا تندب حظَّك إذًا؟

- ومَن لا يندب حظَّه؟

رفع إسماعيل كتفيه لامباليًا. وركَّزَ كلٌّ منهما على مضخَّة الجوف مجدَّدًا.

- حسنًا. لن أفتح فمي بعدُ بكلمة. - غمغم إسماعيل.

- ليت هذه الأمنية تتحقَّق. شدَّ ذاك الموتِّر.

- هذا الموتِّر لا أمل يُرجى منه. ينبغي لنا أن نستبدلَ المضخَّة. وإلّا أصابنا فزعٌ كبير يومًا مّا.

ارتسمت على وجه أوبير ابتسامتُهُ المفضَّلة، المخصَّصةُ لمثمِّني الأسعار في سوق السمك، وسلطات الميناء، والمغفَّلين من كلّ نوع.

- هذه المضخَّة كانت لأبي. ولجدّي من قبله. ومن قبله لـ...

- هذا ما أقصده تمامًا. - قاطعه إسماعيل - من الوارد أنَّها تصلح أكثر لو وضعناها في متحف.

- آمين.

- أنا على حقّ. وأنت تعلم ذلك.

كان إغضابُ عمِّه أحدَ نشاطاته المفضَّلة، إضافةً إلى ركوب القارب الشراعيّ.

- لا أُفكِّرُ في مواصلة النقاش حول الموضوع. نقطة. انتهى. خلاص.

وفي حال لم يكن الكلامُ واضحًا، شدَّدَ أوبير حكمَه بتدوير المفتاح بقوّةٍ وحسم.

وإذ بهما يسمعان قعقعةً مشبوهةً تصدر من داخل المضخّة. ابتسم أوبير للفتى. وبعد ثانيتين، انقذَفَ القفلُ الذي شدَّه توًّا فوق رأسهما، متبوعًا بما بدا أنَّه المكبس، وعُدَّةٌ كاملةٌ من البراغي، وخردةٌ مجهولة الوظيفة.

تابع العمُّ وابنُ أخيه تحليقَ قمامة الحديد المقذوفة إلى أن هبطت، برعونة، على غطاء المركب المجاور، مركب جيرار بيكو. بيكو هذا ملاكمٌ سابق، ببنية ثور ودماغ قريدس. عاينَ تلك القطع، ثمَّ حدَّقَ إلى السماء. تبادل أوبير وإسماعيل نظرة.

- لا أعتقد أنَّنا سنلحظ الفرق. - قال إسماعيل.

- عندما أرغب بسماع رأيك...

- ستطلبه منّي. مفهوم. بالمناسبة، كنتُ أتساءل إذا سمحتَ لي بإجازةٍ يوم السبت المقبل. أودُّ القيام ببعض التصليحات بالقارب الشراعيّ...

- وهل هذه التصليحات شقراء، طولها متر وسبعون، وعيناها خضراوان؟ - ارتجل أوبير.

ابتسم الصيَّادُ لابن أخيه بمكر.

- الأخبار تركض مُسرِعةً. - قال إسماعيل.

- إذا رجع الأمرُ لابنة عمِّك، فالأخبار تطير يا ابن أخي العزيز. ما اسم الآنسة؟

- إرين.

- فهمتُ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- ليس هنالك ما يُفهَم.

- امنح الوقتَ وقتًا.

- إنَّها لطيفة، هذا كلُّ ما في الأمر.

- «إنَّها لطيفة، هذا كلُّ ما في الأمر». - ردَّدَ أوبير، مُقلِّدًا نبرة ابن أخيه الفاترة واللامبالية.

- لا مشكلة. لم تكن فكرةً جيِّدة. سأعمل يوم السبت. - أوجز إسماعيل.

- علينا تنظيف جوف المركب. وهناك سمكٌ فاسدٌ منذ أسابيع، ورائحته نتنة ومقرفة.

- تمام.

انفجر أوبير ضاحكًا.

- أنت عنيدٌ مثل أبيك. هل تعجبك الفتاة أم لا؟

- نعم.

- لا تستخدم هذه الإجابات المختصرة معي، يا روميو العاشق. فأنا أكبر منك بثلاثة أعمار. هل تعجبك أم لا؟

رفع الفتى كتفيه. احمرَّت وجنتاه كالخوخ الناضج. وفي النهاية أصدَرَ همهمةً غير مفهومة.

- ترجم. - ألحَّ العمّ.

- قلتُ نعم. أعتقد ذلك. عرفتُها توًّا.

- جيِّد، هذا أكثر ممّا يسعني قوله عن زوجة عمِّك في أوَّل مرَّةٍ التقيتُها. والله شاهدي أنَّها قدِّيسة.

- كيف كانت في صباها؟

- حبَّذا لو غيَّرنا الموضوع وإلّا جعلتُك تقضي يوم السبت في الجوف. - هدَّدَ أوبير.

أومأ إسماعيل وراح يجمع العُدَّة. نظَّفَ العمُّ يديه من الشحم بينما كان يراقبه بطرف العين. كانت آخرُ فتاةٍ حظيت باهتمامه تدعى لورا، ابنة بائع متجوِّلٍ من بوردو، وقد مضى على ذلك عامان تقريبًا. يبدو أنَّ الحبَّ الوحيدَ الذي يشغل قلبَ الفتى، بصرف النظر عن تكتُّمِهِ المنيع، هو البحر. والوحدة. فلا بدَّ أنَّ لهذه الفتاة مزايا.

- ستجد الجوفَ نظيفًا قبل الجمعة. - صرَّحَ إسماعيل.

- كلُّهُ لك.

وعندما قفز العمُّ وابنُ أخيه إلى الرصيف عند الغروب، للعودة إلى المنزل، كان جارهما بيكو ما يزال يتفحَّصُ القطع الغامضة، محاولًا أن يتبيَّنَ ما إذا كانت ستمطر براغي في ذاك الصيف أم أنَّ السماء أرسلت إليه إشاراتٍ معيَّنة.

*

قبل أن ينقضي شهرُ أغسطس، أحسَّت عائلةُ سوڤيل أنَّها مقيمةٌ في الخليج الأزرق منذ أكثر من عام. فالذي لا يعرفهم شخصيًّا، كان مطَّلعًا على شؤونهم، وذلك بفضل مهارات حنَّة، وأمِّها إليزابيت أوبير، في فنون الكلام. ظاهرةٌ غريبةٌ نوعًا مّا، تتراوح بين الشائعة والسحر، وتتمثَّلُ في أنَّ الأخبارَ تَرِدُ إلى المخبز قبل حتّى أن تتحقَّقَ فعليًّا. ليس باستطاعة الإذاعة ولا الجرائد أن تنافسَ مخبزَ السيِّدة أوبير. معجَّناتٌ وأخبارٌ طازجة،

منذ الفجر وحتّى الغروب. وهكذا، بحلول يوم الجمعة، وصل خبرُ الإعجاب المتبادل المفترض، بين إسماعيل أوبير والوافدة الجديدة، إرين سوڤيل، إلى كافّة أهالي الخليج الأزرق، وباتوا جميعًا على دراية، ما عدا الأسماك والشخصين المعنيَّين بالأمر. لا يهمُّ إذا وقع شيءٌ بالفعل بينهما أو قد يقع. فتلك التوصيلةُ الوجيزةُ بالقارب، من شاطئ الإنكليز إلى بيت الرأس، ستُسجَّلُ لا محالة في حوليَّات ذلك الصيف من العام ١٩٣٧ من تاريخ البلدة.

وبالفعل انقضت أسابيعُ أغسطس الأولى في الخليج الأزرق بسرعةٍ كبيرة. نجحت سيمون أخيرًا بوضع خارطةٍ ذهنيَّةٍ لقصر كريڤنمور. وأنجزت قائمةَ المهام العاجلة لإدارة الدار. وكان التواصلُ مع المورِّدين بالبلدة، وترتيبُ الفواتير والحسابات، وتنظيمُ المراسلات، كافيًا لانشغال وقتها كلّيًّا، إذا استثنينا الدقائقَ التي تُوظِّفُها لالتقاط الأنفاس والخلود للنوم. أمّا دوريان فتلقّى من لازاروس درَّاجةً هوائيّة، كهديّة ترحيب، وتحوَّلَ إلى يمامةٍ مسافرة. وفي غضون أيَّامٍ قليلة، أصبح الصبيُّ يعرف كلَّ حصوةٍ وكلَّ حفرةٍ على الطريق المؤدّية إلى شاطئ الإنكليز.

تبدأ سيمون نهارها بإرسال جوابات لازاروس، وتقسيم الرسائل الواردة بعنايةٍ فائقة، مثلما أوصاها. وتكتفي بمُفكِّرةٍ صغيرة، لا تزيد عن ورقةٍ مطويّة، تحملها باليد، لجدولة غرائب الرجل. ما زالت تذكر يومها الثالث، عندما كانت على وشك أن تفتح لاإراديًّا إحدى الرسائل الواردة من برلين، من جانب دانيال هوفمان. فأسعفتْها الذاكرةُ في اللحظة الأخيرة.

كانت رسائلُ هوفمان بالعادة تصل كلَّ تسعة أيَّام، بدقَّةٍ رياضيّاتيّةٍ تقريبًا. تصل بظروفٍ من الرّقّ، ومختومةً دائمًا، بشعارٍ على شكل حرف «د». وما لبثت سيمون أن اعتادت فرزها عن بقيّة الرسائل، وتجاهلت غرابة الموضوع. ولكن، خلال الأسبوع الأوَّل من أغسطس، وقع أمرٌ أيقظ فضولها من جديد نحو مراسلات السيِّد هوفمان الغامضة.

كانت قد دخلت في الصباح الباكر إلى مكتب لازاروس لتترك له على الطاولة مجموعةً من الفواتير والإيصالات الواردة. وكانت تُفضِّلُ فعل ذلك في ساعات الصباح الأولى، قبل حتّى أن يدخلَ مخترعُ الألعاب مكتبَه، منعًا لمقاطعته أو إزعاجه لاحقًا. فهي تذكر عادة زوجها الفقيد في بدء نهاره بتفحُّص الفواتير وإيصالات الدفع. عندما كان يستطيع.

والحال أنَّ سيمون حين دخلت إلى المكتب، في ذاك الصباح، شمَّت رائحة تبغ في الأجواء، ما جعلها تفترض أنَّ لازاروس ظلَّ هناك حتّى ساعةٍ متأخِّرةٍ من الليلة السابقة. تركت الوثائقَ على الطاولة، فإذا هي ترى شيئًا في المدفأة، ينبعث منه الدخانُ بين جمرات الفجر. أثار فضولها فاقتربت، واستعانت بالمحراك علَّها تفهم ما الذي يحدث. بدا للوهلة الأولى أنَّها مُجرَّد رزمة أوراقٍ مربوطة، لم تلتهمها ألسنةُ اللهب كلّيًّا. تأهَّبَت للخروج، لكنَّها لمحت ختمَ الشمع على الورق بوضوحٍ بين الجمر. رسائل. كان لازاروس قد ألقى برسائل دانيال هوفمان في النار ليحرقها. فقالت سيمون في نفسها إنَّ الموضوع ليس من شأنها، مهما كانت أسبابه. تركت المحراكَ وخرجت من

المكتب، عازمةً على عدم النبش بعدُ في الشؤون الشخصيّة لربّ عملها.

*

أيقظت نقراتُ المطر المتساقط على النافذة حنَّة من نومها. انتصف الليلُ، والغرفة غارقةٌ في ظلمةٍ زرقاء، فيما يرسم ضوءُ العاصفة البعيدة حول الفتاة أخيلةً وهميّة. رنَّت إحدى الساعات الآليّة الناطقة من على الجدار. كان قد اخترعها لازاروس، باسمةَ الوجه وعيناها تنظران كلٌّ في اتِّجاه، بلا توقُّف. زفرت حنَّة. كانت تكره أن تقضي الليل في كريڤنمور.

تبدو لها دارُ لازاروس يان في النهار متحفًا رحيبًا من الأعاجيب والروائع. ولكن ما إن يُخيِّمَ الليلُ حتّى تتحوَّل مئاتُ المخلوقات الآليّة، ووجوهُ الأقنعة والرجالُ الآليّون إلى حيواناتٍ مخيفةٍ لا تنام البتّة، مُتيقِّظةً ومُتربِّصةً في ظلام الدار، لا تكفُّ عن التبسُّم، لا تكفُّ عن النظر إلى اللاشيء.

ينام لازاروس في إحدى غرف الجناح الغربيّ الملاصقة لغرفة زوجته. وإذا استثنيناهما، واستثنينا حنَّة معهما، لا يسكن الدارَ إلّا عشراتُ ابتكارات مُخترِع الألعاب، في كلّ ممرّ، في كلّ غرفة. وكانت حنَّة، في سكون الفجر، تسمع أصداء بواطنهم الآليّة. وعندما يعاندها النعاسُ، كانت تبقى أحيانًا طوال ساعاتٍ تتخيَّلهم جامدين بلا حراك، بأعينهم الزجاجيّة التي تلتمع في العتمة.

ولم تكد تغفو أخيرًا حتّى سمعت ذاك الصوتَ للمرَّة الأولى:

ضرباتٌ منتظمةٌ ومكتومة جرَّاء المطر. نهضت حنَّة، وقطعت الغرفةَ حتّى وصلت إلى عتبة ضوء النافذة. كان قصر كريڤنمور، بما فيه من أدغال الأبراج والأقواس والأسطح المتعرِّجة، راقدًا تحت عباءة العاصفة. أنهارٌ من ماءٍ أسود تجري من أفواه الغراغيل الذئبيّة. كم كانت تكره هذا المكان...

سمعت الصوتَ من جديد، فوجَّهَت أنظارها نحو صفّ نوافذ الجناح الغربيّ. بدا أنَّ الريحَ فتحت إحداها في الطابق الثاني. الستائر تتمايل والمطر يتقاذفها، وما زالت الدفَّاتُ الخشبيّةُ تصفق بعنف. لعنت الفتاةُ قدرَها. جمد دمُها لمجرَّد أنَّها فكَّرَت في الخروج إلى الممرّ واجتياز الدار إلى الجناح الغربيّ.

وقبل أن يحملها الخوفُ على التقاعس عن أداء واجبها، لبست رداءها وانتعلت خفَّيها. لا يوجد ضوء، لذا أخذت أحد الشمعدانات وأشعلت شموعه. رسم ذلك الضياءُ النحاسيُّ حولها هالةً طيفيّة. وضعت حنَّة يدها على مقبض الباب البارد وابتلعت ريقها. وما زالت دفَّاتُ تلك الغرفة المظلمة تصفق. كانت بانتظارها.

أغلقت البابَ من خلفها ووجدت نفسها أمام الممرّ الطويل الذي يلج الظلمات إلى ما لانهاية. رفعت الشمعدان، وانطلقت بمحاذاة الألعاب المعلَّقة في الفراغ كأنَّها في حالة سبات. حاولت حنَّة أن تُركِّزَ أبصارها على الطريق أمامها وسارعت الخطى. في الطابق الثاني كثيرٌ من الرجال الآليّين الذين اخترعهم لازاروس، كائناتٌ تتحرَّكُ بشكلٍ أخرق، وغالبًا ما تكون وجوهُها بشعةً وأحيانًا متوعِّدة. وهي حبيسةٌ في خزائن زجاجيّة، تنبعث

فيها الحياة فجأةً، بلا سابق إنذار، مستجيبةً لأوامر نظامٍ داخليٍّ يوقظها عشوائيًّا من نومها الآليّ.

مرَّت حنَّة بجانب مدام سارو، العرَّافة التي تخلط أوراق التاروت بيديها المتغضِّنتين، وتختار منها ورقةً وتعرضها على مرأى المتفرِّج. سعت حنَّة لعدم الالتفات إليها، لكنَّها لم تتمكَّن من تجنُّب النظر إلى الوجه الشبحيّ لتلك الغجريّة المنحوتة بالخشب. انفتحت عينا الغجريّة ومدَّت ورقةً بيدها نحوها. ابتلعت حنَّة ريقها. كانت الورقة تُبرِزُ صورةَ شيطانٍ أحمر متدثِّرٍ باللهب. مكتبة سُر مَن قرأ

تمايل رجلُ الأقنعة بعدها بأمتار. كان الرجلُ الآليُّ يُقلِّبُ وجهَهُ الخفيَّ باستمرار، ليكشفَ في كلّ مرَّةٍ عن قناعٍ مختلف. أشاحت حنَّة نظرها وتعجَّلَت. كانت قد قطعت ذلك الممرّ مئات المرَّات في ضوء النهار. فهذه مُجرَّد ماكينات لا حياة فيها ولا تستحقُّ انتباهها، فما بالك بخوفها.

وصلت إلى نهاية الممرّ المؤدّي إلى الجناح الغربيّ، بتلك الفكرة المطمئنة. كانت الأوركسترا المصغَّرة بقيادة المايسترو فيرّيتّي تستريح في الزاوية. إذا قدَّمتَ له قرشًا قاد فرقته لعزف نسخةٍ فريدةٍ من «المارش التركيّ» لموزارت.

وقفت حنَّة أمام الباب الأخير في الممرّ، وهو لوحٌ هائل الحجم من السنديان المنقوش. كلُّ الأبواب في كريڤنمور مزوَّدةٌ بنقشٍ نافرٍ مختلفٍ في خشبها، تُجسِّدُ حكاياتٍ شهيرة: حكايات الأخوين غريم الخالدة بتصاوير هيروغليفيّة ذات فنّيّةٍ راقية. لكنَّ تلك النقوش، على مرأى الفتاة، بدت مشؤومةً ليس إلّا. لم تكن

قد دخلت إلى تلك الغرفة يومًا: فهي واحدة من بين غرف الدار الكثيرة التي لم تطأها قدمها قطّ. وما كانت لتفعلها لولا الضرورة القصوى.

كانت دفَّاتُ النافذة تصفق وراء الباب. وأنفاسُ الليل المتجمِّدةُ تتسرَّبُ من بين الفتحات، لتلامسَ قدميها. وجَّهَت حنَّة نظرةً أخيرةً إلى الممرّ الطويل خلفها. كانت أوجه الأوركسترا تُحدِّقُ في الظلال. وصوتُ الماء والمطر مسموعٌ بوضوح، كأنَّ ألف عنكبوت يتراكض على أسطح كريڤنمور. سحبت الفتاةُ نفسًا عميقًا، وضعت يدها على المقبض ودخلت الغرفة.

دهمتْها ريحٌ عاتيةٌ من هواءٍ متجمِّد، انغلق البابُ على إثرها من خلف ظهرها بشدَّة، وانطفأت الشموع. الستائرُ الحريرُ تتمايل، تزرب مطرًا، كأنَّها أكفانٌ في مهبّ الريح. تقدَّمَت حنَّة بضع خطواتٍ في الغرفة وذهبت لتُغلِقَ النافذة، وأحكمتِ القفلَ الذي أرخته الريح. تحسَّسَت جيبَ ردائها بأصابع مرتجفة، وأخرجت أعواد الثقاب لتُشعِلَ الشموع ثانيةً. انبعثت الحياةُ في الظلام المحيط بها على ضوء مشاعل الشمعدان المتراقصة. كان ضياؤها يكشف أنَّ المكان غرفة طفل. ثمّة مهدٌ بجانب منضدة. كتبٌ وثيابٌ طفوليّة ملقاةٌ على كرسيّ. وجواربُ مرتَّبةٌ بعنايةٍ تحت المهد. وصليبٌ صغير يتدلَّى من أحد قضبانه.

توغَّلَت حنَّة قليلًا. هنالك شيءٌ غريب، شيءٌ مُحيِّرٌ لم تستطع فهمه في تلك الأغراض وذلك الأثاث. مسحت عيناها الغرفةَ الطفوليّةَ مرَّةً أخرى. لا وجود لأطفالٍ في كريڤنمور. لم يكن هناك أطفالٌ من قبل على الإطلاق. فما المغزى من هذه الغرفة؟

خطرت في بالها فكرةٌ على حين غرّة. فهمت آنذاك ما الذي حيَّرَها في البداية. ليس الترتيب. ليست النظافة. بل كان شيئًا بسيطًا، بديهيًّا، لدرجة أنَّه لا يستوقف الفكر. هذه غرفة طفل. ولكن، ينقصها شيء... ألعاب. ليس هناك لعبةٌ واحدة في الغرفة كلِّها.

رفعت حنَّة الشمعدانَ واكتشفت شيئًا آخر على الجدران. أوراق. قصاصاتُ جرائد. وضعت الشمعدانَ على المنضدة واقتربت. رأت فسيفساء من قصاصاتٍ قديمة وصورٍ فوتوغرافيّةٍ تكسو الجدار. ثمّة وجهٌ شاحبٌ لامرأةٍ في صورة: ملامحُها قاسية، حادّة، وعيناها السوداوان تشعَّان هالةً مُتوعِّدة. يظهر الوجهُ نفسُهُ في صورٍ أخرى. توقَّفَت حنَّة عند صورةٍ للمرأة الغامضة وفي حضنها طفل.

مرَّت نظرتُها على امتداد الجدار، ولفتت انتباهَها أجزاءٌ من جرائد قديمة، لا تُبدي عناوينُها أيَّ ترابطٍ ما بينها. أخبارٌ عن حريقٍ مريعٍ اندلع في مصنعٍ بباريس، وعن اختفاء رجلٍ يُدعى هوفمان بسبب المأساة. بدا أنَّ الأثرَ اللاهجَ لذلك الحضور يطغى على مجموعة القصاصات كلِّها، التي كانت مرتَّبةً مثل شواهد على جدران مقبرةٍ من الذكريات. هنالك صفحةٌ أولى من جريدةٍ صادرةٍ بتاريخ ١٨٩٠ تتوسَّطُ أجزاء أخرى لا يمكن قراءتها. كانت الصفحة تُظهِرُ وجهَ طفل. عيناه تطفحان بالرعب، كأعين حيوانٍ قد أُشبعَ ضربًا.

صدمتها وطأةُ تلك الصورة بشدّة. بدت نظرةُ ذاك الطفل، الذي لم يتمَّ أعوامه الستّة أو السبعة بعد، بدت شاهدةً على فظاعةٍ

يصعب إدراكُ حجمها. شعرت حنَّة بالبرد، بردٍ واخزٍ ينبثق من أعماقها. حاولت عيناها أن تفكَّ طلاسمَ النصّ المبهم المرافق للصورة. «طفلٌ ذو ثماني سنوات، عُثِرَ عليه بعد سبعة أيَّام متروكًا في سردابٍ مظلم» - قرأت حنَّة أسفل الصورة. عاينت وجهَ الصغير مرَّةً أخرى: فيه ملامح مألوفةٌ نوعًا مّا، ربّما في عينيه...

وفي تلك اللحظة تمامًا، خُيِّلَ إلى حنَّة أنَّها تسمع صدى صوت، صوتٍ يهمس خلف ظهرها. التفتت، لم تجد أحدًا. تنهَّدت. كانت الأحزمةُ البخاريّةُ المنبعثةُ من الشموع تطارد في الهواء آلاف الجزيئات الغباريّة التي تنشر حولها رذاذًا أرجوانيًّا. اقتربت حنَّة من رفّ إحدى النوافذ، وفتحت بأصابعها ثغرةً في غشاوة البخار المتكثِّف على الزجاج. كان الغابُ غارقًا في الضباب. رأت أنَّ أضواءَ مكتب لازاروس منيرةٌ، في أقصى الجناح الغربيّ، وأنَّ ظلَّهُ يتبدَّى في الهالة الذهبيّة الدافئة التي ترتعش من خلف الستائر. اجتازت حزمةٌ ضوئيّةٌ الثغرةَ في بخار الزجاج، كأنَّها تمدُّ خيطًا من ضياءٍ إلى جميع أنحاء الغرفة.

تردَّدَ صدى الصوت ثانيةً، أوضح وأقرب هذه المرَّة. كان يهمس باسمها. التفتت حنَّة نحو الغرفة المعتمة، ورأت للمرَّة الأولى بريقًا صادرًا من قارورةٍ بلّوريّة. كانت القارورةُ، السوداءُ كحجر السبج الكريم، محفوظةً في محرابٍ صغيرٍ بباطن الجدار، ومطوَّقٍ بوهجٍ طيفيّ.

اقتربت الفتاةُ ببطءٍ وتفحَّصتْها. شبَّهتْها للوهلة الأولى بقارورة عطر، لكنَّها لم تكن قد رأت قارورةً بهذا الجمال، ولا غرضًا بلّوريًّا بكلّ تلك النقوش المتقنة. سدَّادتُها على هيئة موشورٍ يشعُّ

قوسَ قزح. أحسَّت حنَّة برغبةٍ قاهرةٍ في تلمُّس ذلك الغرض ومداعبة خطوط البلّور المثاليّة بأصابعها.

حملتها بيديها بانتباهٍ شديد. كانت أثقل ممّا توقَّعت، وتبيَّنَ أنَّ البلّورَ ذو ملمسٍ بارد، يكاد يؤلم الجلد. رفعتْها إلى مستوى عينيها لترى ما الذي في داخلها. فلم تُميِّز أكثر من كتلةٍ سوداء منيعة. ورغم هذا، تشكَّلَ لديها انطباعٌ بفضل انعكاس الضوء، أنَّ شيئًا مّا يتحرَّكُ في الداخل. سائلٌ أسود كثيف، لعلَّهُ عطر...

أمسكت أصابعُها المرتجفةُ السدَّادةَ البلّوريّةَ المنقوشة. فاهتزَّ شيءٌ مّا في القارورة. تردَّدَت حنَّة بادئ الأمر. لكنَّ جمالَ ذلك الغرض وعَدَها بعبقٍ شديد العذوبة لا يمكنها أن تتخيَّلَ له نظيرًا. دوَّرَت السدَّادة ببطء. اهتزَّ السوادُ في القارورة مجدَّدًا، غير أنَّ الفتاة ما عادت عابئةً بهذا. وارتخت السدَّادةُ أخيرًا.

اجتاح الغرفةَ صوتٌ عصيٌّ على الوصف، أشبَهُ ببحَّة غازٍ مضغوط. وفي أقلّ من ثانية، تصاعدت من القارورة كتلةٌ سوداء، لتنتشرَ في الهواء، مثلما تتفشَّى بقعةُ حبرٍ في حوض ماء. شعرت حنَّة أنَّ يديها ترتجفان، وأنَّ الصوتَ الهامسَ يُحاصِرُها. وعندما نظرت إلى القارورة من جديد، أدركت أنَّ البلّور كان شفَّافًا: فأيًّا كان المحتوى، استطاع بفضلها أن يتحرَّر. أعادت الفتاةُ القارورةَ إلى مكانها. أحسَّت بتيَّار هواءٍ باردٍ يجوب الغرفة، ليطفئ الشموعَ واحدةً تلو الأخرى. وفي حين كانت العتمة تتَّسع مجالًا، تبدَّى حضورٌ جديد في المكان. طيفٌ ثقيلٌ يتمدَّدُ على الجدران ليطليها بلون الظلام.

ظلّ.

تراجعت حنَّة بتأنٍّ نحو الباب. حطَّت يداها المرتجفتان على المقبض البارد من خلف ظهرها. دوَّرَتْهُ ببطء دون أن تحيدَ أنظارها عن الظلام، وتهيَّأت للخروج من الغرفة في عجالة. ثمّة شيءٌ يتقدَّمُ باتِّجاهها، لقد شعرت به فعلًا.

وبينما كانت تشدُّ المقبضَ لتُغلِقَ الغرفة، انقضَّت إحدى المنحوتات النافرة من الباب على الطوق الذي يُزيِّنُ عنقها. وفي اللحظة نفسها صدر صوتٌ عميقٌ ومُرعِبٌ من خلفها، فحيحُ ثعبانٍ كبير. شعرت حنَّة بدموع الفزع تنهال على خدَّيها. انقطع الطوقُ فأحسَّت بالحلية تسقط في الظلام. لكنَّها تخلَّصَت من الأسْر، فواجهت نفقَ الظلال الذي ينفتح أمامها. كان البابُ، المؤدّي إلى سلالم الجناح اللاحق، في الطرف الآخر، مفتوحًا. سمعت الهمسَ الشبحيَّ من جديد. أقرب. ركضت نحو السلالم. وبعد لحظات، استطاعت تحديدَ صوت المقبض وهو يدور في العتمة. تفلَّتَت منها صرخةُ ذعرٍ هذه المرَّة، وألقت الفتاةُ بنفسها على السلالم.

بدا أنَّ الهبوطَ إلى الطابق الأسفل بلا نهاية. كانت حنَّة تقفز الدرجات ثلاثًا ثلاث، لاهثةً، تحاول الحفاظَ على توازنها. وحين بلغت البابَ الذي يصلها بالجزء اللاحق من حديقة كريڤنمور، غصَّت ركبتاها وكاحلاها بالرضوض، لكنَّها لم تشعر بألم أو تكاد. فلقد أشعل الأدرينالينُ شرارةً في أوردتها وكان يدفعها إلى مواصلة الركض. كان الباب مغلقًا، لأنَّه خارج الاستعمال دومًا. كسرت حنَّة الزجاجَ بمرفقها وخلعت البابَ من الخارج. ولم تنتبه إلى جرح ذراعها إلّا حين لاذت بظلال الحديقة.

ركضت حتّى تخوم الغاب، وكان هواءُ الليلِ الباردُ يداعب ثيابَها المبلَّلةَ من العرق، ويجعلها تلتحم بجسمها. وقبل أن تتوغَّلَ في الدرب الذي يجتاز غابَ كريڤنمور، التفتت حنَّة نحو الدار مُتوقِّعةً أن ترى مُطارِدَها بين ظلال الحديقة. لم يكن ثمّة أثرٌ للشبح. أخذت نفسًا عميقًا. لفح الهواءُ الباردُ حلقها، وغرس في رئتيها مثقبًا مُتأجِّجًا. همَّت لاستئناف الركض لكنَّها رأت ذلك الطيفَ ملتصقًا بواجهة كريڤنمور. برز وجهٌ مُتجسِّدٌ من الظلام، وهبط الظلُّ زاحفًا بين الغراغيل كعنكبوتٍ عملاق.

انطلقت حنَّة في متاهة الظلام التي تهيمن على الغاب. ابتسم القمرُ آنذاك في الأرض البراح وصبغ الضبابَ باللون الأزرق. وضخَّمت الريحُ حفيفَ آلاف الأوراق حول الفتاة. كانت الأشجارُ تترقَّبُ مرورها كأرواحٍ مُتحجِّرة، تمدُّ أغصانها كبراثن مُتوعِّدة. فركضت بلا أملٍ نحو الضوء الذي يقتادها إلى نهاية ذلك النفق العجائبيّ، كأنَّه بابٌ نورانيٌّ يستعصي على المنال كلَّما اجتهدت في بلوغه.

دوَّى هديرٌ بين الحشائش واجتاح الغاب. كان الظلُّ يجتاز الأحراش، ويقلب كلَّ شيءٍ يعترض طريقه، مثل حفَّارةٍ قاتلة تتقدَّمُ نحوها. انفجرت حنجرتُها بصرخةٍ حادّة. وتسبَّبَت لها الأغصانُ والأجماتُ بعشرات الخدوش على يديها، على ذراعيها، على وجهها. وكان الإرهاقُ يضرب روحَها مثل مِدَقٍّ يُفقِدَها الحواسّ، ويهمس لها بأن تستسلم للتعب، أن تستلقي وتنتظر... إلّا أنَّها مضطرّةٌ إلى المتابعة. عليها أن تهرب من هناك. تبقَّت أمامها بضعة أمتار لتبلغ الطريقَ المؤدّية إلى البلدة.

ستصادف هناك سيَّارةً، أو شخصًا يساعدها. النجاة على مرمى حجر، ما بعد حدود الغاب.

اكتسحت ظلماتِ الأحراشِ أضواءُ سيَّارةٍ بعيدة، تحاذي شاطئَ الإنكليز. نهضت حنَّة وصرخت مستغيثةً. وبدا أنَّ الزوبعةَ خلف ظهرها تجتاز الحرشَ وتصعد بين أغصان الشجر. رفعت الفتاةُ أبصارها نحو قبَّة الأغصان التي تحجب القمر. تمدَّدَ الظلُّ ببطء. أصدرت حنَّة أنَّةً أخيرة. وانهال الظلُّ عليها من الأعلى، مثل مطرٍ من قطران. أغمضت الفتاةُ عينيها واستحضرت وجهَ أمِّها، باسمةً وثرثارة.

وبعد قليل، أحسَّت بأنفاس الظلّ الباردة على وجهها.

5. قلعةٌ وسط الضباب

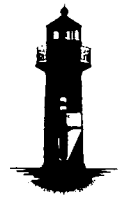

ظهر قاربُ إسماعيل في موعده الدقيق من حجاب الضباب الذي كان رابضًا على وجه الخليج. تبادلت إرين وأمُّها نظرةً، بينما كانتا جالستين في الترّاس يحتسيان فنجان قهوةٍ بالحليب.

- لا داعي لأوصيكِ بأن. . . - بادرت سيمون.

- لا داعي لتوصيني بذلك. - قاطعتها إرين.

- متى كانت آخر مرَّةٍ تحادثنا فيها أنا وأنتِ عن الرجال؟ - سألتها أمُّها.

- عندما أتممتُ عامي السابع وأقنعني جارُنا كلود بأن أعطيه تنّورتي مقابل أن يعطيني بنطلونه.

- يا له من مشهد.

- أمّاه، كان عمره خمسة أعوام.

- إذا كانوا على هذا الشكل في عامهم الخامس، فما بالكِ حين يبلغون الخمسة عشر عامًا!

- ستّة عشر.

زفرت سيمون. ستّة عشر عامًا. يا إلهي. ابنتُها تُخطِّطُ للفرار مع بحَّارٍ عجوز.

- نحن بصدد شابٍّ بالغٍ إذًا.

- يكبرني بسنةٍ وربع ليس إلّا. ما المشكلة في هذا؟

- ما زلتِ طفلةً يا إرين.

ابتسمت الفتاةُ لأمِّها بصبرٍ جميل. سيمون سوڤيل لا تصلح لمهام رتبة الرقيب.

- اطمئنّي يا أمّاه. أعرف ما الذي أفعله.

- هذا ما يخيفني تمامًا.

قطع القاربُ الشراعيُّ فتحةَ الخليج الصغير. حيَّاهما إسماعيلُ من مكانه. كانت سيمون تتمعَّنُ في الفتى بحاجبٍ مرفوع، دلالةً على الاستنفار.

- لماذا لا يصعد إلينا، فتُعرِّفيني عليه؟

- أمّاه...

هزَّت سيمون رأسها. لم تكن تأمل الكثير من حيلةٍ كهذه.

- هل تنتظرين منّي أن أقول لكِ شيئًا؟ - اقترحت بانسحابٍ مُعلَن.

- تمنَّي لي نهارًا سعيدًا.

ومن دون أن تنتظر ردًّا، هُرِعَت إرين نحو المرسى. رأت سيمون ابنتها تُمسِكُ يدَ ذاك الغريب (الذي بدا لعينيها المتوجِّستين أنَّه ليس بالفتى الصغير) وتقفز على متن القارب. وعندما التفتت إرين لتُودِّعَها، عصرت سيمون وجهها لترسم ابتسامةً، وبادلتها التحيّة. رأتهما ينطلقان باتِّجاه الخليج تحت شمسٍ ساطعةٍ وسماءٍ

صافية. وكان على سياج التراس نورسٌ ينظر إليها بتسليم، لعلَّهُ أمٌّ أخرى تواجه أزمة.

- هذا ليس عدلًا. - قالت للنورس - عندما يولدون، لا أحد يخبركِ بأنَّهم سيفعلون ما فعلتِهِ حين كنتِ في سنِّهم.

لم يكترث الطائرُ لهذه الاعتبارات، واتَّبعَ مثالَ إرين وحلَّقَ بعيدًا. ابتسمت سيمون من سذاجتها، وتهيَّأت للذهاب إلى كريڤنمور. العمل يداوي كلَّ علّة، قالت لنفسها.

*

وبعد دقائق من الرحلة، أصبح الشاطئُ البعيدُ مجرَّدَ خطٍّ أبيض بين السماء والأرض. وكانت الريحُ تنفخ شراع كيانيوس، في حين يشقُّ الحيزومُ عبابَ ذلك الرداء البلّوريّ المتشكِّل من انعكاساتٍ زمرّديّة، يتراءى القاعُ من نقاوتها. لم يكن لإرين تجربةٌ سابقةٌ في ركوب القارب إلّا تلك التوصيلة الوجيزة قبل يومين، فكانت ترنو مبهورةً بجمال الخليج الخلَّاب من ذلك المنظور. تحوَّلَ بيتُ الرأس إلى قطعةٍ بيضاء فوق الجرف، فيما تألَّقَت واجهاتُ أبنية البلدة بألوانٍ زاهية، وسط الانعكاسات الصاعدة من البحر. وفي البعيد كانت ذيولُ العاصفة تمتطي المدى. أغمضت إرين عينيها وراحت تصغي إلى صوت البحر الذي يُطوِّقُها. وعندما فتحتهما كان كلُّ شيءٍ على حاله هناك. كان حقيقةً.

اتَّزنَ المسارُ ولم يبقَ أمام إسماعيل شيءٌ يفعله سوى النظر إلى إرين، التي بدت ضحيّةَ سحرٍ بحريّ. بدأ يُحدِّقُ إليها بمنهجيّةٍ

علميّة، بدءًا بكاحليها الأبيضين، بصعودٍ بطيءٍ ودقيقٍ إلى حيث تخفي التنّورةُ - بوقاحةٍ غير معهودة - الجزءَ الأعلى من فخذي الفتاة. ثمَّ انتقل لتقييم التوزُّعات المحظوظة لجذعها الممشوق. استمرَّت العمليّةُ إلى أجلٍ غير مُسمَّى، حتّى استقرَّت عيناه، بشكلٍ مفاجئ، على عينيها. أدرك إسماعيل حينئذٍ أنَّ معاينته لن تمرَّ مرورَ الكرام.

- فيمَ تُفكِّر؟ - سألته.

- في الريح. - كذب إسماعيل ببراعة - إنَّها تتغيَّرُ وتتوجَّهُ نحو الجنوب. يحدث هذا قبل هبوب العاصفة. فكَّرتُ أنَّه قد يسرُّكِ أوَّلًا أن نبتعد عن الرأس. فالمنظر رائع.

- أيُّ منظر؟ - سألته إرين ببراءة.

لا شكَّ في هذه المرَّة، حدَّثَ إسماعيل نفسه، الفتاة تسخر منه. تجاهل طرافةَ رفيقته، وقاد القاربَ نحو حدّ التيَّار الموازي للجرف على بُعد ميلٍ عن الرأس. وما إن اجتاز ذلك الحدَّ، استطاعت إرين أن تتأمَّلَ رحابة الشاطئ الكبير والمقفر والبرّيّ الذي يمتدُّ حتّى الأبخرة المحيطة بجبل سان ميشيل، القلعة الشامخة وسط الضباب.

- هذا هو الخليج الأسود. - شرح إسماعيل - يُسمُّونه هكذا لأنَّ مياهه أعمق من مياه الخليج الأزرق كثيرًا، التي تُعدُّ في الأساس شريطًا رمليًّا بعمق ستّة أو سبعة أمتار. ترسانة بحريّة.

بدا لها هذا المصطلحُ الملاحيُّ أنَّه باللغة الصينيّة، لكنَّ

جمالَ المكان الفائق الروعة أصابها بالقشعريرة. التقت نظرتها بما ظنَّت أنَّه فراغٌ في الجرف: فاهٌ مُشرَّعٌ على البحر.

- هذه هي البحيرة الشاطئة. - قال إسماعيل - شكلها بيضويٌّ، تحدُّها التيَّارات، وترتبط بالبحر عبر منفذٍ ضيِّق. وفي الجانب الآخر مغارةُ الخفافيش. أترين ذلك النفق في الجرف؟ تلك هي. يقال إنَّ عاصفةً هبَّت في العام ١٧٤٦ وأغرقت سفينةَ قراصنة. وما زال حطامُ السفينة، والقراصنةُ، هناك في الداخل.

نظرت إليه إرين مُتشكِّكةً. قد يكون إسماعيل بحَّارًا ماهرًا، لكنَّه في الكذب مُجرَّد نوتي.

- هذه هي الحقيقة. - أكَّدَ - أذهب إلى هناك أحيانًا لأمارس الغطس. المغارة تتوغَّلُ في الجرف إلى ما لانهاية.

- هلّا اصطحبتني إليها؟ - سألته إرين، متظاهرةً بتصديق حكاية السفينة الشبح.

احمرَّ وجهُ إسماعيل قليلًا. لهذا السؤال تتمَّة. تعهُّد. بكلمة واحدة: خطورة.

- فيها خفافيش. هذا سبب تسميتها... - حذَّرَها الفتى، عاجزًا عن إيجاد حُجَّةٍ أنسب لثنيها.

- أحبُّ الخفافيش. فئرانٌ طائرة. - علَّقَت إرين، عازمةً على السخرية منه.

- كما تشائين. - رضخ إسماعيل.

ابتسمت له إرين ابتسامةً عذبة، تشتَّتَ على إثرها الفتى كلّيًّا. وما عاد يعلم إن كانت الريحُ تهبُّ من الشمال أم أنَّ صالبَ

المركب نوعٌ من الحلويات. وأسوأ ما في الأمر أنَّ الفتاةَ انتبهت إلى حيرته. حان وقتُ تغيير المسار. حرَّكَ الدفّةَ بحيث انحرف دائريًّا تقريبًا في حين شدَّ الشراعَ الأكبر، فمال القاربُ حتّى كادت إرين تلامس وجهَ الماء. شعرت بالبرودة فصرخت وهي تضحك. ابتسم إسماعيل. لم يكن يعرف ما الذي يرى فيها، لكنَّه كان واثقًا من أمرٍ واحد: لم يعد يستطيع أن يحيدَ أنظاره عنها.

- مسارُنا باتِّجاه المنارة. - أعلن.

وما هي إلّا ثوانٍ حتّى انزلق كيانيوس كسهمٍ فوق سطح الماء، ممتطيًا التيَّارَ ومدفوعًا بيد الريح الخافية. أحسَّ إسماعيل أنَّ إرين تتشبَّثُ بيده. كان القاربُ الشراعيُّ يهتزُّ كأنَّه يلامس الماء أو يكاد. وارتسم شريطٌ من زبدٍ أبيض على هيئة أكاليل خلفه. نظرت إرين إلى الفتى فأدركت أنَّه كان ينظر إليها أيضًا. ولهنيهةٍ هامت عيناها في عينيه، وأحسَّت إرين أنَّه يشبك يدها برفق. لم يكن العالمُ بعيدًا إلى هذه الدرجة من قبل.

*

وقبل منتصف نهار ذلك اليوم نفسه، تخطَّت سيمون سوڤيل عتبة المكتبة الشخصيّة للازاروس يان، التي كانت تحتلُّ صالةً بيضويّةً وهائلة الحجم في قلب دار كريڤنمور. كونٌ لانهائيٌّ من الكتب يتصاعد في دوَّامةٍ بابليّةٍ نحو منورٍ من زجاجٍ ملوَّن. آلافُ العوالم المجهولة والغامضة تتلاقى في تلك الكاتدرائيّة الكتبيّة التي لا حصر لها. راحت سيمون تُمعِنُ النظرَ في هذه الرؤيا

مذهولةً، حُوصِرَت أبصارُها في ضبابٍ شفيفٍ يتراقص صاعدًا نحو القبَّة. واستغرقت حوالي الدقيقتين قبل أن تكتشف أنَّها لم تكن بمفردها.

كان هناك شخصٌ أنيقُ الهندام، جالسًا إلى مكتبٍ تنيره أشعّةُ الضوء الهابط عموديًّا من المنور. سمع لازاروس خطواتها، فالتفت وهو يُغلِقُ الكتابَ الذي كان يتصفَّحُه: مجلَّدٌ عتيقٌ بجلدٍ أسود، يبدو أنَّه من مئات السنين. ابتسم في وجهها، ابتسامته الدافئة والمعدية.

- آه، سيِّدة سوڤيل. مرحبًا بكِ في ملاذي الصغير. - قال وهو ينهض.

- لم أشأ مقاطعتك...

- على العكس، يسرُّني أنَّكِ فعلتِها. - أجاب لازاروس - كنتُ أرغب في الحديث إليكِ عن طلبيّة كتبٍ من مؤسَّسة آرثر فرينشر...

- آرثر فرينشر اللندنيّة؟

أُنيرَ وجه لازاروس.

- هل تعرفينها؟

- كان زوجي غالبًا ما يشتري كتبًا منها أثناء رحلاته. من مركز برلنجتون المسقوف.

- كنتُ أعلم أنَّني ما كنتُ لأختارَ شخصًا مؤهَّلًا أفضل منكِ لهذا العمل. - قال لازاروس، فاحمرَّ وجهُ سيمون حياءً. - ما رأيكِ أن نتحدَّثَ في الأمر على فنجان قهوة؟ - دعاها.

أومأت سيمون بخجل. ابتسم لها لازاروس ثانيةً وأعاد

الكتابَ السميكَ الذي كان بين يديه إلى مكانه، بين مئات المجلَّدات المشابهة. نظرت إليه سيمون فلمحت عنوانَه المنقوشَ يدويًّا على غلافه. كلمةٌ واحدة، مجهولةٌ وغير مفهومة:

Doppelgänger

*

قبل منتصف النهار بقليل، أبصرت إرين جزيرةَ المنارة. قرَّرَ إسماعيل أن يطوف حولها مستهلًّا مناورةَ الاقتراب ليرسو في دخلةٍ صغيرة، صخريّةٍ وبرّيّة. صارت إرين تعلم شيئًا مّا عن الفنون الملاحيّة ومبادئ فيزياء الريح، بفضل شروحات إسماعيل. فاتَّبعت توجيهاته واستطاع كلاهما الصمودَ إزاء دفعة التيَّار، والولوجَ في الممرّ الصخريّ المؤدّي إلى مرسى المنارة القديم.

كانت الجزيرةُ عبارةً عن قطعةٍ صخريّةٍ خاويةٍ تنتأ في وسط الخليج. تستوطنها مستعمرةٌ غفيرةٌ من النوارس. راقب بعضُها الدخيلين بفضول. وحلَّقَ بعضُها الآخر عاليًا. رأت إرين في مسيرها أكواخًا خشبيّةً قديمةً ومحطَّمةً بسبب الإهمال وعشرات العواصف.

أمّا المنارة في حدّ ذاتها فهي برجٌ نحيل، مُتوَّجٌ بمصباحٍ منشوريٍّ كاشف، قائمٌ على منزلٍ صغيرٍ مُكوَّنٍ من طابقٍ واحد، لا شكَّ أنَّه كان مسكنًا لحارس المنارة.

- لا يأتي أحدٌ إلى هنا منذ أعوام، ما عداي أنا، والنوارس، وبعض السرطانات. - قال إسماعيل.

- دون احتساب شبح سفينة القراصنة. - مازحته إرين.

ساق الفتى القاربَ إلى المرسى وقفز إلى الأرض لتثبيت الحيزوم. ففعلت مثله إرين. وما إن أُحكِمَ رسوُّ الكيانيوس، أخرج إسماعيل سلّةَ زادٍ حضَّرتْها له زوجةُ عمِّه، المتيقِّنة من انعدام احتمالات الفوز باستحسان أيّ فتاةٍ بمعدةٍ خاوية، ناهيك بضرورة إشباع الغرائز وفق ترتيب الأولويّات.

- تعالي. إن كنتِ تحبّين حكايات الأشباح، فهذا المكان سيحظى باهتمامكِ...

فتح إسماعيل بابَ مسكن الحارس وأشار لإرين بأن تتقدَّمَه. دخلت الفتاةُ إلى المنزل القديم وأحسَّت أنَّ الزمنَ عاد بها عقدين على الأقلّ. ما زال كلُّ شيءٍ على حاله، تحت طبقةٍ من ضبابٍ أصدرتْه الرطوبةُ عامًا في إثر عام. عشراتُ الكتب، أغراضٌ وأثاثٌ لم تمسَّها يد، كما لو أنَّ شبحًا اختطف حارسَ المنارة في قلب الليل. نظرت إرين إلى إسماعيل باندهاش.

- انتظري لتري المنارة. - قال.

أخذها من يدها واقتادها إلى السلَّم الحلزونيّ نحو البرج. كانت إرين تشعر أنَّها دخيلةٌ تقتحم المكانَ العالقَ في الزمن، ومُغامِرةٌ على وشك اكتشاف لغزٍ مُحيِّر.

- ما الذي حدث للحارس؟

استغرق إسماعيل وقتًا ليجيب.

- ركب قاربه ذات ليلة، وهجر الجزيرة. لم يتكلَّف حتّى عناء لملمة أغراضه.

- وما الذي دفعه لفعل شيءٍ كهذا؟

- لم تتضَّح أسبابُهُ يومًا. - أجاب إسماعيل.

- وأنت، أيُّ أسبابٍ تراها دفعتْه لذلك؟

- الخوف.

ابتلعت إرين ريقها ونظرت خلف ظهرها، بانتظار أن تتفاجأ بصعود شبح تلك المرأة الغارقة، كجنّيٍّ نورانيٍّ على السلّم الحلزونيّ، وبراثنها ممتدَّةٌ نحوها، ووجهها أبيض كالخزف، وعيناها المشتعلتان محاطتان بهالةٍ سوداء.

- لا يوجد أحدٌ هنا يا إرين. إلّا أنتِ وأنا. - قال لها.

أومأت الفتاةُ بما ينمُّ عن عدم اقتناعها.

- ما عدا النوارس والسرطانات، ها؟

- تمامًا.

كان السلَّمُ يفضي إلى منصّة المنارة، وهي برج مراقبة على الجزيرة يكشف الخليج الأزرق كلّيًّا. خرجا إلى الهواء الطلق. كانت النسمةُ العذبةُ والشمسُ الساطعةُ تُبدِّدان كلَّ الأصداء الشبحيّة المستحضرة في داخل المنارة. تنفَّسَت إرين عميقًا واستسلمت لسحر المنظر الذي لا يمكن رؤيته إلّا من ذلك العلوّ.

- شكرًا لأنَّك أتيتَ بي إلى هنا. - همست.

أومأ إسماعيل وأشاح عنها نظرته متوتِّرًا.

- هل تريدين أن تأكلي شيئًا؟ أنا أكاد أموت من الجوع. - قال.

وهكذا جلس كلاهما على حافّة المنصّة، وتأرجحت سيقانُهما في الفراغ، وتناولا ما في السلّة من طيِّبات. لم تكن

شهيّةُ أيٍّ منهما مفتوحةً في الواقع، لكنَّ الطعامَ يشغل اليدين والذهن.

كان الخليجُ الأزرقُ في البعيد، غافيًا تحت شمس الظهيرة، غيرَ عابئٍ بما يحدث على تلك الجزيرة المنفصلة عن العالم.

*

بعد ثلاثة فناجين قهوة وأبديَّةٍ كاملة، ما زالت سيمون في رفقة لازاروس، متجاهلةً مرور الوقت. فالدردشةُ الودّيّةُ البسيطةُ تحوَّلَت إلى نقاشٍ طويلٍ وعميقٍ حول الكتب، والرحلات والذكريات القديمة. وبعد مضيّ ساعاتٍ قليلة، شعرت سيمون أنَّها تعرف لازاروس طوال حياتها. وللمرَّة الأولى منذ أشهر، فوجئت بنفسها تبوح بذكرياتٍ أليمة عن أيَّام أرمان الأخيرة، وقد أمدَّها ذلك بارتياح. كان لازاروس يصغي بإمعان، وبصمتٍ جليل. كان يعلم متى يُغيِّرُ الموضوع ومتى يسمح للذاكرة أن تتدفَّقَ باسترسال.

عزَّ عليها أن تعتبره ربَّ عملها. كان مبتكرُ الألعاب، في عينيها، أشبه بصديق، صديقٍ عزيز. وكلَّما انقضت الظهيرةُ، أدركت سيمون بين حسرةٍ وخجلٍ صبيانيٍّ أنَّ هذا الوفاقَ الرائعَ بينهما، لو أنَّه وقع في ظروفٍ أخرى، لكان بذرةً لشيءٍ آخر. تماوجت في روحها ظلالُ الترمُّل مثل ذيل عاصفة؛ فيما كان الحضورُ الخفيُّ لزوجته المريضة يلقي بظلاله على أرجاء كريثمور. شهودٌ تحجبهم الظلمة.

اكتفت ببضع ساعاتٍ من محادثةٍ بسيطةٍ لتقرأ في عينيه

أفكارها نفسها. لكنَّها قرأت فيهما أيضًا أنَّ رباطه بزوجته سيدوم إلى الأبد، وأنَّ المستقبلَ لا يُخبِّئُ لهما أكثر من الصداقة. صداقة عميقة. نهض جسرٌ خفيٌّ بين عالمين يفصل بينهما محيطٌ من الذكريات.

اجتاح مكتبَ لازاروس ضوءٌ ذهبيٌّ إيذانًا بالمغيب، لينسجَ بينهما شبكةً من انعكاساتٍ مُذهَّبة. تبادل لازاروس وسيمون نظرةً صامتة.

- هل لي أن أطرح عليك سؤالًا يا لازاروس؟

- بالتأكيد.

- أيُّ سببٍ جعلك تصبح مُخترِعًا لألعاب أطفال؟ كان زوجي الفقيد مهندسًا، وموهوبًا لا شكّ. لكنَّ عمله يكشف عن موهبةٍ ثوريّة. ولا أبالغ، حضرتك أدرى منّي. فلماذا ألعاب الأطفال؟

ابتسم لازاروس محافظًا على صمته.

- لستَ مرغمًا على الإجابة. - أضافت سيمون.

نهض الرجلُ ومشى ببطءٍ إلى رفّ النافذة. صبغ الضوءُ المذهَّبُ شخصَه.

- إنَّها قصّةٌ طويلة. - قال - عندما كنتُ طفلًا، كانت عائلتي تعيش في حيّ غوبلان القديم، بباريس. من الوارد أنَّكِ تعرفين المنطقة. حيٌّ فقيرٌ ومبتلى بأبنيةٍ قديمةٍ مظلمة وغير صحّيّة. مدينةٌ صغيرةٌ موحشةٌ ورماديّة، شوارعها كئيبةٌ ويطغى عليها البؤس. وكانت أوضاعه في تلك الأيّام متدهورةً بأسوأ ممّا تتذكَّرين. كنّا نشغل شقّةً صغيرةً في عمارةٍ متهالكة بشارع دي

غوبلان. وكان جزءٌ من واجهتها مُعزَّزًا بدعائم لتواجه تهديدات الانهيار، لكنَّ العائلات التي تسكن العمارةَ لم تكن ظروفُها تتيح لها الانتقال إلى مسكنٍ أفضل. وما زال يبدو لي من الإعجاز أنَّنا استطعنا أن نعيش هناك: أشقّائي الثلاثة، وأنا، وأبواي، وعمّي لوك. لن أسهبَ في الحديث...

كنتُ ولدًا انطوائيًّا. ولطالما بقيتُ كذلك. معظمُ أولاد الحيّ مهتمّون بأشياء تُشعِرُني بالملل، ومن جهةٍ أخرى كانت الأشياء التي تهمُّني لا تثير في كلّ مَن أعرفهم أيَّ فضول. تعلَّمتُ القراءة: معجزة؛ صارت الكتبُ أصدقائي. وكان ذلك يُسبِّبُ قلقَ أمّي في حال لم يكن لديها مشكلاتٌ أخطر في البيت: فهي تظنُّ أنَّ الطفولةَ السليمةَ تتمثَّلُ في التسكُّع بالطرقات، وتعلُّم عادات مَن يحيط بنا وأعرافهم.

وكان والدي يكتفي بانتظار أن نكبر أنا وأشقّائي بحيث نعود ببعض المال إلى العائلة.

ولم يكن الجميع محظوظين هكذا. ففي عمارتنا، كان يسكن فتىً من عمري يُدعى جان نيڤيل. كان جان وأمُّه، الأرملة، يعيشان في شقّةٍ ضيّقة بالطابق الأرضيّ. توفّي والدُ الفتى قبل ذلك بأعوام، جرَّاء إصابته بمرضٍ في مصنع البلاط الذي عمل فيه طوال حياته. أمرٌ شائع، على ما يبدو. عرفتُ هذا كلَّهُ لأنّي مع الوقت أصبحتُ الصديقَ الوحيدَ الذي استطاع جان الصغير الحصولَ عليه في الحيّ. كانت أمُّه، آن، تمنعه من الخروج من العمارة أو الفِناء الداخليّ. كان بيتُهُ سجنَهُ. يعيش مُحتَجَزًا في بيته.

قبل ذلك بثمانية أعوام، أنجبت آن نيڤيل توءمًا في مستشفى سان كريستيان القديم، بمونبارناس. جان وجوزيف. وُلِدَ جوزيف ميتًا. واعتاد جان خلال أعوام حياته الثمانية أن يتحمَّلَ ذنب قتله لشقيقه إبّان المخاض. هذا ما كان يظنُّه على الأقلّ. وقد تولَّت آن تذكيره، يومًا بيوم، أنَّ شقيقه وُلِدَ ميتًا بسببه؛ وأنَّها كانت ستحظى بطفلٍ رائع. لم يستطع جان أن ينال مودّةَ أمِّه مهما قال أو فعل.

إلّا أنَّها تُغدِقُ ابنها بالمحبّة المطلوبة على الملأ بطبيعة الحال. في حين أنَّ الواقعَ مختلفٌ عندما يكونان بمفردهما في تلك الشقّة. كانت آن تُذكِّرُه يوميًّا بأنَّه كسولٌ وبليد، وأنَّ نتائجه المدرسيّة متدنّية. مهاراتُهُ مشكوكٌ فيها. حركاتُهُ خرقاء. وجودُهُ لعنة، باختصار. أمّا جوزيف، فكان سيكون ولدًا محبوبًا، مجتهدًا، ودودًا... يتمتَّعُ بكلّ المزايا التي لن يقدر جان على امتلاكها أبدًا.

وسرعان ما أدرك الولدُ أنَّ الموت كان يجب أن يُغيِّبَه في غرفة ذلك المستشفى الحزينة، قبل ثمانية أعوام، عوضًا عن أخيه. كان يشغل مكان شخصٍ آخر... وأحرقت آن كلَّ الألعاب التي جهَّزتها طوال أعوام، للولد القادم، في المدفأة بعد أسبوعٍ على عودتها من المستشفى. لم يحظَ جان بأيّ لعبة. كانت مُحرَّمةً عليه. لم يكن يستحقُّها.

وذات ليلة، أفاق الصبيُّ وهو يصرخ، فهُرِعَت أمُّه إلى سريره وسألته عمّا دهاه. اعترف لها جان، مذعورًا، بأنَّه حلم بظلٍّ أو روحٍ شرّيرةٍ تطارده على امتداد نفقٍ لا ينتهي. وكانت إجابةُ الأمّ

بديهيّة. هذه إشارة. الظلُّ الذي راوده في المنام كان ظلَّ شقيقه المتوفّى وقد جاءه مطالبًا بالانتقام. عليه أن يبذلَ جهدًا إضافيًّا ليصبحَ ابنًا أفضل، ويطيعَ والدتَه في كلّ أمر، وألّا يضعَ أيَّ كلمةٍ من كلماتها أو تصرُّفٍ من تصرُّفاتها موضعَ نقاش. وإلّا فإنَّ الظلَّ ستنبعث فيه الحياةُ وسيعود لاقتياده إلى الجحيم. وبقولها هذا حملت ابنها ومضت فيه إلى السرداب، حيث تركته وحيدًا، في الظلام، مدَّة اثنتي عشرة ساعة، لعلَّه يتفكَّرُ في كلامها. وكانت هذه الأولى من بين مرَّاتٍ عديدة تحبسه فيها.

بعد عامٍ على تلك الواقعة، روى لي جان الصغير كلَّ شيءٍ في ظهيرة أحد الأيَّام. استبدَّ بي الرعب. كنتُ أريد مساعدته، مؤاساته، وتعويضه عن الشقاء الذي يحياه بطريقةٍ أو بأخرى. فلم يخطر في بالي حينذاك سوى جمع الفلوس التي ادَّخرتُها طوال أشهر في حصَّالتي، والذهاب إلى متجر ألعاب السيِّد جيرادو. لم يتسنَّ لي شراء الكثير بتلك النقود، لم أحصل إلّا على دميةٍ قديمة، على هيئة ملاكٍ كرتونيٍّ يُحرَّكُ بالخيوط. غلَّفتُها بورقٍ لامع، وانتظرتُ لليوم التالي أن تخرج آن نيڤيل إلى السوق. طرقتُ الباب وعرَّفتُ عن نفسي. ففتح لي جان وأعطيتُه الهديّة. هذا ملاك، فسَّرتُ له، وانصرفتُ.

لم أره طوال ثلاثة أسابيع. تصوَّرتُ أنَّه يستمتع بهديَّتي، طالما أنَّني لم أستمتع بمدَّخراتي. عرفتُ لاحقًا أنَّ الملاكَ القماشيَّ والكرتونيَّ لم يعش أكثر من يومٍ واحد. وجدته آن وأحرقتْه. وعندما سألتْه من أين جاء به، لم يشأ جان توريطي، فقال إنَّه صنعه بيديه.

وفي أحد الأيَّام كان العقابُ أشدَّ فظاعةً. خرجت آن عن طورها، حملت ابنها إلى السرداب وأغلقت عليه هناك، وهدَّدَته بأنَّ الظلَّ هذه المرَّة آتٍ لا محالة ليبحثَ عنه في الظلام ويخطفه.

أمضى جان نيڤيل أسبوعًا كاملًا هناك. تورَّطت أمُّه في مشاجرةٍ بسوق الهال، واحتجزتها الشرطة، رفقة آخرين، في زنزانةٍ جماعيّة. وعندما أُفرِجَ عنها، تسكَّعَت في الطرقات لأيَّام.

وعند عودتها وجدت البيتَ مقفرًا، وباب السرداب مقفلًا. ساعدها بعضُ الجيران على الهبوط إلى الأسفل. كان السرداب خاويًا. لا أثر لجان في أيّ زاوية...

توقَّفَ لازاروس قليلًا. التزمت سيمون الصمت، ريثما يُنهي مُصنِّعُ الألعاب قصَّته.

- لم ير أحدٌ جان نيڤيل في الحيّ. وقد تصوَّرَ معظم من عرف قصَّته أنَّ الطفل فرَّ من إحدى فتحات السرداب ليذهب أبعد ما استطاع. وأفترض أنَّ هذا ما حدث، على الرغم من أنَّكِ لو سألتِ أمَّه، التي ظلَّت أسابيع وأشهر تبكي بحرقةٍ فقدانَ ابنها، لكنتُ واثقًا من أنَّها ستجيبكِ بأنَّ الظلَّ قد خطفه... في البدء أسررتُ لكِ أنَّني كنتُ الصديق الوحيد لجان أغلب الظنّ. لكنَّ الإنصافَ يُحتِّمُ عليَّ أن أقول العكس. كان هو صديقي الوحيد. فبعد أعوام، عاهدتُ نفسي بأنَّني، لو رجع الأمرُ لي، ما كنتُ لأسمحَ أن يُحرَمَ أيُّ طفلٍ من الألعاب. لا يجوز أن يعيشَ أيُّ طفلٍ الكابوسَ الذي عذَّبَ طفولةَ صديقي جان. وما زلتُ حتّى اليوم أتساءل تُرى أين هو، وهل ما زال حيًّا. أتصوَّرُ أنَّ هذا التوضيحَ سيبدو لكِ غريبًا...

- على الإطلاق. - أجابت سيمون، ووجهها محجوبٌ بالعتمة.

انتقلت نحو الضوء وبعثت ابتسامةً عريضةً للازاروس.

- تأخَّرَ الوقت. - قال مبتكرُ الألعاب بلطف - عليَّ أن أذهبَ إلى زوجتي.

أومأت سيمون.

- شكرًا على الصحبة، سيّدة سيمون. - قال لازاروس وهو يخرج من الغرفة.

نظرت إليه منصرفًا، وزفرت بعمق. العزلة ترسم متاهاتٍ غريبة.

*

بدأت الشمسُ هبوطَها على الخليج، وذرفت عدساتُ المنارة ومضاتٍ بلون الكهرمان والأرجوان على البحر. غدت النسائمُ أعذب، وصُبِغَت السماءُ بالأزرق الفاتح، وتخلَّلَتها بعضُ الغيوم التي كانت تسافر تائهةً كالمناطيد القطنيّة البيضاء. كانت إرين مستلقية، مستندةً قليلًا إلى كتف إسماعيل، يسودها الصمت.

أحاطها الفتى بذراعه ببطء. رفعت عينيها. كانت شفتاها مواربتين وترتعشان بالكاد. أحسَّ إسماعيل بوخزةٍ في بطنه، ونمى إلى أذنيه طنينٌ غريب. هذا قلبه، يخفق بسرعةٍ قصوى. تقاربت شفاههما شيئًا فشيئًا وعلى خجل. أغمضت إرين عينيها. إمّا الآن وإلّا فلا، همس الصوتُ في فؤاده. فاختار الفتى الخيارَ الأوَّلَ والتصق فمُهُ بفمها. ودامت الثواني العشر التالية عشرَ سنوات.

فيما بعد، عندما شعر كلاهما بتساقط الحدود بينهما، وأنَّ كلَّ نظرةٍ وكلَّ إيماءةٍ كانت كلمةً من لغةٍ لا يسع غيرهما فهمها، ظلَّ إسماعيل وإرين متعانقين في صمتٍ على قمّة المنارة. ولو رجع الأمر لهما، لبقيا هناك حتّى يوم الحساب.

*

- أين تُفضِّلُ أن تكون بعد عشر دقائق؟ - سألته إرين فجأة.

تفكَّرَ إسماعيل في الجواب. لم يكن سهلًا.

- سؤالٌ وجيه. لا أدري.

- ما الذي تُفضِّلُ فعله؟ هل ستواصل مهنةَ عمِّك على القارب؟

- لا أعتقد أنَّها ستكون فكرةً سديدة.

- فماذا إذًا؟ - ألحَّت.

- لا أدري، أعتقد أنَّني أُفضِّلُ مهنةً سخيفة...

- وما هي هذه المهنة السخفية؟

غرق إسماعيل في صمتٍ طويل. انتظرته إرين بفارغ الصبر.

- مسلسلاتٌ إذاعيّة. أودُّ أن أكتب مسلسلاتٍ للراديو. - أجاب إسماعيل أخيرًا.

لقد قالها بالفعل.

ابتسمت له إرين. تلك الابتسامة الغامضة العصيّة على التعريف.

- أيُّ نوعٍ من المسلسلات؟

نظر إليها بإمعان. لم يكن قد تحدَّثَ بالموضوع مع أحدٍ من

قبل، ولم يشعر بالثقة اللازمة لفعلها. لعلَّ أفضلَ ما يمكن فعله أن يفردَ الأشرعة ويعودَ إلى الميناء.

- غموض. - أجاب متردِّدًا في النهاية.

- ظننتُ أنَّك لا تُصدِّقُ قصصَ الغموض.

- لا داعي لتصديقها لكتابتها. - ردَّ إسماعيل - منذ زمنٍ بعيدٍ وأنا أجمع قصاصات جرائد عن رجلٍ يكتب مسلسلات إذاعيّة. يُدعى أورسن ويلز. لعلّي أتمكَّنُ من العمل معه...

- أورسن ويلز؟ لم أسمع باسمه من قبل، لكنّي أتصوَّرُ أنَّه ليس من السهل الوصول إليه. هل لديك فكرة؟

أومأ إسماعيل بشكلٍ مبهم.

- عديني بألّا تُحدِّثي أحدًا بالأمر.

رفعت الفتاةُ يدها بإجلال. بدا لها تصرُّفُ إسماعيل صبيانيًّا، لكنَّ الموضوع يثير فضولها.

- اتبعيني.

عاد بها إسماعيل إلى مسكن الحارس. وهناك اقترب من صندوقٍ في إحدى الزوايا وفتحه. لمعت عيناه من الإثارة.

- في أوَّل مرَّةٍ أتيتُ فيها إلى هنا كنتُ أمارس الغوص، واكتشفتُ حطامَ القارب الذي يظنُّ الناسُ أنَّ تلك المرأة ركبته عشرين عامًا مضت. - قال بلهجةٍ ملغَّزة - هل تذكرين الحكاية التي رويتُها لكِ؟

- أضواء سبتمبر. المرأة الغامضة التي فُقِدَت في العاصفة... - ردَّت إرين.

- تمامًا. احزري ما الذي عثرتُ عليه في حطام القارب؟

- ماذا؟

أدخل إسماعيل يده في الصندوق، وأخرج كتيِّبًا، غلافه جلديّ، ومحفوظٌ بما يشبه العلبة المعدنيّة التي ليست أكبر من حافظة السجائر.

- محى الماءُ بعضَ الصفحات ولكن، ما زالت فيه فقراتٌ قابلةٌ للقراءة.

- كتاب؟ - سألت إرين بفضول.

- ليس كتابًا عاديًّا. - أوضح إسماعيل - إنَّه مذكَّرات. مذكَّرات المرأة إيَّاها.

*

أبحر الكيانيوس قبل الغروب بقليل، عائدًا إلى بيت الرأس. انتشر حقلٌ من النجوم على العباءة الزرقاء التي تُغطّي الخليج، في حين غرقت كرةُ الشمس النازفة في الأفق ببطء، مثل قرصٍ حديديٍّ مشتعل. كانت إرين تراقب إسماعيل بصمتٍ وهو يقود القارب. ابتسم لها الفتى وتابع بنظراته حركةَ الأشرعة، مهتمًّا باتِّجاه الريح التي تهبُّ من الغرب.

كانت إرين قد قبَّلَت فتيين قبله. الأوَّل شقيق إحدى رفيقاتها بالمدرسة، وكانت القبلةُ ليست أكثر من اختبار. أرادت أن تعرف الإحساسَ الذي يرافقها. لم يبدُ لها إحساسًا عظيمًا. والثاني، جيرار، كان خائفًا أكثر منها، ولم تُشفِ التجربةُ معه شكوكَ إرين بهذا الخصوص. تقبيلُ إسماعيل مختلف. فحين لثمت ثغره

شعرت بما يشبه التيَّارَ الكهربائيَّ يسري في جسمها. لمْسَتُهُ مختلفة. رائحتُهُ مختلفة. كلُّ شيءٍ فيه مختلف.

- فيمَ تُفكِّرين؟

حان دورُ إسماعيل في طرح السؤال، وقد أضناه الفضولُ حول تعابيرها السارحة.

أجابته إرين بإيماءةٍ ملغَّزة، إذ رفعت حاجبها.

رفع كتفيه وواظب على قيادة القارب نحو الرأس. رافقهما سربٌ من الطيور إلى المرسى. وكانت أضواءُ البيت ترسم خطوطًا متراقصةً على الخليج الصغير. أمّا في البعيد، فشكَّلَت أضواءُ البلدة دربًا من النجوم فوق البحر.

- لقد هبط الليل. - لاحظت إرين وقد دهمها القلق - لن يصيبك مكروه، أليس كذلك؟

ابتسم إسماعيل.

- كيانيوس حفظ طريقه عن ظهر قلب. لن يصيبني مكروه.

استند القاربُ إلى المرسى برفق. وكان نعيبُ الطيور من الجرف يُسمَعُ كأنَّه أصداءٌ بعيدة. والآن، توَّجَ شريطٌ أزرق داكن خطَّ الغسق المشتعل في المدى، وابتسم القمرُ من بين الغيوم.

- حسنًا... لقد تأخَّرَ الوقت. - بادرت إرين.

- أجل.

قفزت الفتاةُ إلى الأرض.

- سآخذ اليوميَّات. أعدك بأنّي سأحافظ عليها.

أومأ إسماعيل بدوره، فافترَّت من إرين ضحكةٌ عصبيّة.

- ليلة سعيدة.

تبادلا نظرةً تحت العتمة.

- ليلة سعيدة، إرين.

حلَّ إسماعيل حبال الرسوّ.

- كنتُ أُفكِّرُ في الذهاب إلى البحيرة الشاطئة في الغد. ربّما يُسعِدُكِ أن تأتي...

هزَّت الفتاة رأسها. وكان التيَّار يُبعِدُ القارب.

- سآتي لآخذكِ من هنا...

تلاشى القاربُ في الظلام. ظلَّت إرين هناك تنظر إليه ينطلق، إلى أن ابتلعته ظلماتُ الليل كلّيًّا. ثمَّ سارعت الخطى نحو بيت الرأس، كأنَّها تطير شبرين عن الأرض. أمُّها بانتظارها في الترّاس، جالسةً تحت الظلام. لم تكن في حاجةٍ إلى شهادةٍ في الهندسة البصريّة لتدركَ أنَّ سيمون رأت وسمعت كلَّ ما حدث عند المرسى.

- كيف كان نهارك؟ - سألت.

ابتلعت إرين ريقها. فابتسمت أمُّها بمكر.

- بإمكانكِ أن تروي لي.

جلست إرين بجانب أمِّها، وتعانقتا.

- وأنتِ؟ - سألتها الفتاة - كيف كان نهارك؟

تنهَّدَت سيمون وهي تتذكَّرُ الظهيرةَ التي أمضتها صحبة لازاروس.

شدَّت على عناق ابنتها وابتسمت في سرِّها.

- نهارٌ عجيب، يا إرين. أعتقد أنَّني هرمتُ.

- هراء.

نظرت البنتُ إلى عيني أمِّها.

- هل وقع شيءٌ يا أمّاه؟

ابتسمت سيمون ابتسامةً واهنة ونفت برأسها.

- أفتقد أباكِ. - أجابت في النهاية، بينما انزلقت دمعةٌ من خدَّها إلى شفتها.

- أبي مات. - قالت إرين - يجب أن تدعيه وشأنه.

- لستُ أدري ما إذا كنتُ أريد أن أدعه وشأنه.

عانقتها إرين مجدَّدًا وأحسَّت أنَّ سيمون تذرف دمعها في الظلام.

6. مذكّرات ألما مالتيس

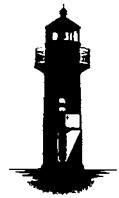

بزغ فجرُ اليوم التالي محاطًا بستارة الضباب. فوجئت إرين بخيوط الضوء الأولى وهي ما تزال مندمجةً في قراءة المذكّرات التي أخذتها من إسماعيل. إذ همَّت في مطالعتها على سبيل الفضول المحض، غير أنَّ الفضولَ تنامى خلال الليل حتّى تحوَّلَ إلى هوس. فمنذ السطر الأوَّل الذي أظلمَ عليه الزمانُ، تبيَّنَ أنَّ خطَّ تلك السيِّدة الغامضة، التي اختفت في مياه الخليج، يتمتَّعُ بهيروغليفيّةٍ مُسكِرة، كأنَّه لغزٌ لا حلول له يمنع الفتاةَ من النوم.

. . . اليوم، رأيتُ وجهَ الظلّ للمرَّة الأولى. كان يراقبني صامتًا من قلب العتمة، مُتحجِّرًا مُتربِّصًا. أعرف أيَّ قوَّةٍ تختزنها تانك العينان حقَّ المعرفة، القوَّة التي يقتات عليها الظلُّ: الحقد. أحسستُ بحضوره، وأدركتُ أنَّ أيَّامنا في هذا المكان ستتحوَّلُ، عاجلًا أم آجلًا، إلى كابوسٍ مرعب. أعي الآن حجمَ المساعدة التي يحتاج إليها، أعي الآن أنَّني لن أتركه وحيدًا، مهما كلَّفَ الأمر. . .

صفحةً وراء صفحة، بدا صوتُ المرأةِ السّرّيُّ يُكلِّمُها هامسًا، ويبوح لها بأسرارٍ وخفايا ظلَّت قيد الغرق والنسيان طوال أعوام. وبعد ستّ ساعاتٍ من البدء بقراءة المذكَّرات، أصبحت السيِّدةُ المجهولةُ أشبه بصديقةٍ خفيّة، وصوتٍ حاصرَه الضبابُ فانسدَّت أمامه الطرقُ، فاختار الفتاةَ لتحفظَ أسراره، وذكرياته، ولغزَ تلك الليلة، إحدى ليالي سبتمبر التي حملته إلى الموت في مياه جزيرة المنارة الباردة.

. . . حدث الأمر من جديد. وهذه المرَّة وقع على ثيابي. دخلتُ هذا الصباح إلى غرفة ملابسي، فوجدتُ دفّة الخزانة مفتوحةً، وثيابي كلَّها، التي أهداها لي في هذه السنوات، ممزَّقةً إلى أشلاء، مشقَّقَةً كما لو أنَّ مئة سكِّين حادّة مرَّت عليها. وقبل سبعة أيَّام كان دور خاتم خطوبتي. وجدتُه معوَّجًا ومهروسًا على الأرض. وقد اختفت مجوهراتٌ أخرى. وتخدَّشَت مرايا غرفتي. وفي كلّ يوم يغدو حضورُهُ أقوى، وغضبُهُ ملموسًا أكثر. هي مسألة وقت: ستكفُّ اعتداءاتُهُ عن استهداف أغراضي، وستتركَّزُ عليَّ شخصيًّا. إنَّه يكرهني أنا. يريد أن يراني أنا ميّتة. لا يتَّسع المجالُ في هذه المكان لكلينا. . .

أنهت إرين قراءة الصفحة الأخيرة من المذكَّرات، وكان الفجرُ يمدُّ سجَّادةً من لونٍ نحاسيّ على البحر. فكَّرَت أنَّها لم تعرف يومًا هذا القدر من الأشياء عن حياة أحد. لا أحد، بمن في ذلك أمُّها، كشف لها كلَّ أسرار روحه بالصدق الذي تكشف

به هذه المذكَّراتُ عن أفكار تلك المرأة التي - للمفارقة - لم تكن تعرفها. امرأةٌ ماتت قبل ولادة إرين بأعوام.

. . . ليس لديَّ مَن أحادثه، ليس لديَّ مَن أُطلِعُهُ على الرعب الذي يجتاح روحي يومًا بعد يوم. أودُّ في بعض الأحيان أن أعود إلى الوراء، أن أسترجع خطواتي في الزمن. إلّا أنَّني في تلك اللحظات أستوعب أنَّ خوفي وحزني لا يُقارَنان بمخاوفه وأحزانه، وأنَّه في حاجةٍ إليَّ، فلولا وجودي إلى جانبه لانطفأ ضوؤه إلى الأبد. لا أسأل غير الله أن يمدَّني بالعزيمة لكي أصمد، لكي أهربَ من متناول الظلِّ الذي يربض فوقنا. يتهيَّأ لي أنَّ كلَّ سطرٍ أكتبه في هذه المذكَّرات هو بمثابة السطر الأخير.

لسببٍ مّا، اكتشفت إرين أنَّها ترغب في البكاء. ذرفت دمعها في صمت، على ذكرى تلك السيِّدة الخفيّة التي أنارت مذكَّراتُها الضوءَ في وجدانها. لا يشي الكتيِّبُ بهويّة مؤلِّفته سوى عبر كلمتين في بداية الصفحة الأولى:

Alma Maltisse

وبعد قليل، رأت إرين شراعَ الكيانيوس يُفتِّتُ الضبابَ مُتَّجِهًا نحو بيت الرأس. أخذت المذكَّرات، وتوجَّهَت، على رؤوس أصابعها، نحو موعدها الجديد مع إسماعيل.

*

وسرعان ما شقَّ المركبُ طريقه في التيَّار الذي يجلد حدَّ

الرأس، وتوغَّلَ في الخليج الأسود. كان ضوءُ الصباح ينحت أشكالًا على المرتفعات الصخريّة التي تُشكِّلُ جزءًا كبيرًا من أجراف ساحل النورماندي: جدرانٌ صخريّةٌ تواجه المحيط. رسمت انعكاساتُ الشمس على الماء برقًا باهرًا من زبدٍ وفضّةٍ مشتعلة. ودفعت ريحُ الشمال القاربَ بشدّة، لتجعل الصالبَ يقصُّ سطحَ الماء كخنجر. مشهدٌ اعتياديٌّ بالنسبة إلى إسماعيل؛ ألفُ ليلةٍ وليلة في نظر إرين.

ففي نظر بحَّارةٍ غريرةٍ مثلها، كان هذا المنظرُ المفعمُ بالضوء والماء يبدو أنَّه يفي بوعود آلاف المغامرات وآلاف الألغاز التي ما زالت في انتظار مَن يكتشفها تحت رداء المحيط. وكان إسماعيل، على الدفَّة، يكشف أنَّه رجلٌ مُتبسِّمٌ على غير العادة، ويقود القاربَ نحو البحيرة الشاطئة. وقعت إرين ضحيّةً لسحر البحر ولم تُخفِ انبهارَها، لذا تابعت قصَّ ما اكتشفته من القراءة الأولى لمذكَّرات ألما مالتيس.

- كانت تكتب مذكَّراتها لنفسها بطبيعة الحال. - أوضحت الفتاة - ومن المستغرب أنَّها لا تذكر أحدًا باسمه أبدًا. كأنَّها تكتب حكايةً عن أشخاصٍ متخفِّين.

- عصيَّةٌ على الفهم. - علَّقَ إسماعيل، وكان منذ زمنٍ قد توقَّفَ عن قراءة المذكَّرات، واعتبرها مستحيلة.

- على الإطلاق. - اعترضت إرين - سوى أنَّ فهمها يشترط أن تقرأها امرأة.

بدت شفتا إسماعيل على وشك إطلاق ردٍّ يُفنِّدُ ادِّعاء مساعدته، لكنَّ أفكاره تراجعت لسببٍ مّا.

وبعد قليل، دفعت الريحُ الخلفيّةُ قاربَهما إلى مدخل البحيرة الشاطئة. وهو مضيقٌ بين الصخور يحاكي منفذًا إلى مرفأ طبيعيّ. كانت مياهُ البحيرة، التي لا يتجاوز عمقُها ثلاثة أمتارٍ أو أربعة، أشبه بحديقةٍ من الزمرّد الشفيف، والقاعُ الرمليُّ يومض كحجابٍ من شاشٍ أبيض تحت أقدامهما. تأمَّلَت إرين منتشيةً في السحر الذي يُخبِّئه نطاقُ البحيرة في داخلها. سربُ أسماكٍ ترقص تحت هيكل الكيانيوس، كسهامٍ فضّيّةٍ صغيرة تلتمع بصورةٍ متقطِّعة.

- هذا مذهل. - تلعثمت إرين.

- هذه هي البحيرة الشاطئة. - أوضح إسماعيل، بنبرةٍ واقعيّة.

وبينما كانت تحت تأثير الزيارة الأولى لذاك المكان، انتهز الفتى الفرصةَ لخفض الأشرعة وإرساء القارب. كان الكيانيوس يتمايل برفق، مثل ورقة شجرٍ في بركةٍ راكدة.

- جيِّد. هل تودّين رؤية هذه المغارة أم لا؟

فما كان من الفتاة إلّا أن توجَّهَت إليه بابتسامة تحدٍّ، ونزعت ثيابها قطعةً قطعة، دون أن تحيد عيناها عن عينيه. توسَّعَت حدقتا إسماعيل كالأطباق. لم تمدُّهُ مُخيِّلتُهُ بعرضٍ مماثلٍ مسبقًا. ابتسمت إرين على تعابير إسماعيل، وكانت مُجهَّزةً بزيّ سباحةٍ قصير، قصيرٍ لدرجةٍ لا تسمح لأمِّها باعتباره جديرًا بتلك التسمية. وبعد أن أبهرته بهذه الرؤية لمدَّة ثانيتين، الوقت اللازم لكي لا يعتاد ما حصل، غطست في الماء وغاصت تحت صفيحة الانعكاسات المتماوجة. ابتلع إسماعيل ريقه. فإمّا أنَّه بطيءٌ

جدًّا، وإمّا أنَّ هذه الفتاة أسرع ممّا ينبغي قياسًا به. لحق بها إلى الماء دون أن يُفكِّرَ مرَّتين. كان في حاجةٍ إلى حمَّام.

سبح إسماعيل وإرين حتّى مدخل مغارة الخفافيش. كان النفق يتوغَّلُ في الأرض مثل كاتدرائيّةٍ عالقةٍ في الصخر. يصدر من داخلها تيَّارٌ خفيفٌ يلامس الجلدَ تحت الماء. يُشكِّلُ سقفُ الكهف البحريّ قبَّةً متوَّجةً بمئات الشظايا الحجريّة الطويلة المتدلّية في الفراغ كأدمعٍ من جليدٍ مُتحجِّر. وتكشف انعكاساتُ الماء آلافَ التعرُّجات بين الصخور، فيكتسب القاعُ الرمليُّ ومضاتٍ فسفوريّةً طيفيّة تمتدَّ كسجَّادةٍ من ضوءٍ نحو الداخل.

غاصت إرين وفتحت عينيها تحت الماء. كان يتراقص أمامها عالمٌ من انعكاساتٍ مُتبدِّدة، عالمٌ مأهولٌ بمخلوقاتٍ غريبةٍ ومدهشة. أسماكٌ صغيرة يتغيَّرُ لونُ حراشفها بحسب اتِّجاه انعكاس الضوء. أعشابٌ تشعُّ بألوانٍ قزحيَّة من على الصخور. سرطاناتٌ دقيقةٌ تتراكض في القاع. ظلَّت تنظر إلى الكائنات التي تسكن الكهفَ البحريَّ حتّى كادت تختنق.

- إن بقيتِ هكذا، فسينمو لكِ ذيلُ سمكة، كالحوريّات. - قال إسماعيل.

غمزت له بعين وقبَّلَته في ضياء المغارة الخافت.

- أنا حوريّةٌ في الأصل. - همست، وولجت مغارة الخفافيش.

تبادل إسماعيل نظرةً مع سرطانٍ رواقيٍّ يرمقه من جدار الصخر، وبدا أنَّ لديه فضولًا أنثروبولوجيًّا حيال المشهد. لم

تسمح نظراتُ الكائن القشريّ الحكيم بأيّ مجالٍ للشكّ. كانوا يسخرون منه مجدَّدًا.

*

يوم غيابٍ كامل، فكَّرَت سيمون. مضت ساعاتٌ ولم تظهر حنَّة. تساءلت سيمون ما إذا كانت إزاء مشكلةٍ تتعلَّقُ كلّيًّا بالانضباط. ليتها كانت كذلك. أمضت نهارَ الأحد بانتظار خبرٍ عن الفتاة، وفكَّرَت أنَّه يجب أن تذهب إلى منزلها. وعكةٌ عابرة. التزامٌ مفاجئ. كانت ستكتفي بأيّ توضيح. قرَّرَت بعد ساعات انتظارٍ طويلة أن تواجهَ المعضلة. أمسكت الهاتفَ لتتَّصلَ بمنزل الفتاة فإذا هو يرنُّ مسبقًا. سمعت صوتًا مجهولًا، ولم تطمئنها نبرةُ صاحبه كثيرًا.

- طاب نهارك، سيِّدة سوڤيل. اسمي هنري فور. أنا القائدُ العامُّ للدرك ورئيسُ قسم الشرطة في الخليج الأزرق. - أفصح الرجل، كلُّ كلمةٍ أثقل من سابقتها.

ساد صمتٌ عصيبٌ على المكالمة.

- سيّدتي؟ - سألها الضابط.

- أسمعك.

- يصعب عليَّ إبلاغكِ...

*

اعتبر دوريان أنَّ عمله كمرسالٍ في ذلك اليوم قد أُنجِز. تمَّت المهامُ التي أوكلته بها سيمون على أكمل وجه، وبدت له تلك

الظهيرةُ إجازةً واعدةً ومريحة. وصل إلى بيت الرأس، لكنَّ أمَّه لم تعد من كريڤنمور بعد، ولا بدَّ أنَّ شقيقته ما تزال في نزهتها مع ما يشبه الخطيب الذي عثرت عليه. اجترع زجاجتين من الحليب الطازج، واحدةً تلو الأخرى، واعتراه شعورٌ مُستَهجنٌ من أنَّ البيت خالٍ من النساء، وهذا ما بدا له مربكًا بعض الشيء. اعتاد صحبتهما حتّى بدا له الصمتُ الناجمُ عن غيابهما مقلقًا.

أدرك دوريان أنَّه ما زال أمامه عدّة ساعاتٍ قبل مغيب الشمس، فانتهز الفرصةَ وقرَّرَ استكشافَ غاب كريڤنمور. فالأشكال المشؤومة في وضح النهار ليست سوى أشجار، وأجمات وأحراش، وفقًا لما قالته سيمون من قبل. توجَّهَ الصبيُّ بهذه الفكرة في ذهنه نحو قلب الغاب الموحش والمتاهيّ الذي يمتدُّ ما بين بيت الرأس ودار لازاروس يان.

تسكَّع عشر دقائق بلا غايةٍ محدَّدة، فإذا هو يلاحظ للمرَّة الأولى أثر علاماتٍ تبدأ ما بين الجرف لتلجَ إلى عمق الغاب، ولم يفهم لماذا تختفي عند مدخل أرضٍ براح. جلس الفتى القرفصاء وتلمَّسَ البصمات أو بالأحرى الآثار المختلطة والواضحة على الأرض. مهما كان مَن خلَّفها، أو أيًّا كان، لا بدَّ أنَّ وزنه مُعتَبَر. تفحَّصَ دوريان الأثرَ الأخيرَ إلى حيث يختفي. إن كانت للأدلّة مصداقيّة، فإنَّ الشخصَ توقَّفَ عن المشي في تلك النقطة ثمَّ تبخَّر.

رفع عينيه ولاحظ شبكةَ الضوء والظلال الممتدّة بين رؤوس أشجار كريڤنمور. مرَّ أحد طيور لازاروس بين الأغصان. اقشعرَّ بدنُ الولد لاإراديًّا. ألا يوجد حيوانٌ واحدٌ حيٌّ في هذا الغاب؟

لا حضور ملموسًا إلّا للكائنات الآليّة التي تظهر وتختفي بين الظلال، دون أن يتسنّى للمرء أن يتصوَّرَ من أين تأتي وإلى أين تتَّجه. تابعت عيناه التقصّي في الغابة المتداخلة حتّى لاحظتا صدعًا غائرًا في شجرةٍ مجاورة. اقترب دوريان من جذعها وتمعَّنَ في الخدش. أحدَثَ شيءٌ مبهمٌ جرحًا عميقًا في الخشب. هنالك تمزُّقاتٌ مشابهة تُقرِّحُ الجذعَ حتّى قمَّته. ابتلع الصبيُّ ريقه وقرَّرَ أن يلوذ بالفرار.

*

اقتاد إسماعيل إرين إلى صخرةٍ صغيرةٍ ومسطَّحة، ناتئة على بُعد شبرين من قلب المغارة، حيث استلقيا لالتقاط الأنفاس. كان الضوءُ المتسرِّبُ من المدخل يهتزُّ في الداخل، ليرسم رقصةَ ظلالٍ غريبةً على قبَّة المغارة وجدرانها. المياه هناك دافئةٌ أكثر من عرض البحر، ينبعث منها ما يشبه البخار.

- هل للمغارة مداخل أخرى؟ - سألت إرين.

- مدخلٌ آخر، لكنَّه خطير. الطريقة الوحيدة الآمنة للدخول والخروج هي عن طريق البحر، من البحيرة.

تأمَّلت الفتاةُ مشهدَ الضوء المتبدِّد الذي يكشف جوفَ المغارة. للمكان أجواءٌ ساحرةٌ وفاتنة. بدا لإرين أنَّها في قلب صالةٍ كبيرةٍ من بنايةٍ منحوتةٍ في الصخر، في مكانٍ أسطوريٍّ لا وجود له إلّا في الأحلام.

- إنَّه... خياليٌّ. - قالت.

أومأ إسماعيل.

- آتي إلى هنا أحيانًا لأمضي ساعاتٍ جالسًا على إحدى هذه الصخور، وأرى كيف يُغيِّرُ الضوءُ لونَه تحت الماء. إنَّه ملاذي الخاصّ...

- بعيدًا عن العالم، أليس كذلك؟

- بعيدٌ أكثر ممّا تتخيَّلين.

- أنت لا تحبُّ الناس كثيرًا، ها؟

- هذا منوطٌ بنوعيّة الناس. - أجاب بابتسامةٍ على شفتيه.

- أهو إطراء؟

- ربّما.

نقل الفتى أنظاره وتقصَّى في مدخل المغارة.

- من الأفضل أن ننصرف الآن. المدُّ قادم.

- وما المشكلة؟

- حين يرتفع المدُّ، تبدأ التيَّاراتُ بالدفع نحو داخل المغارة، فيمتلئ الكهفُ البحريُّ بالماء إلى أعلاه. هذا فخٌّ قاتل. قد تموتين غرقًا كالفأر.

وفجأةً تحوَّلَ سحرُ المكان إلى تهديد. تخيَّلَت إرين المغارةَ تمتلئ بماءٍ بارد، بلا إمكانيّة للهرب.

- لسنا في عجلة... - أوضح إسماعيل.

لم تُفكِّر إرين مرَّتين، وسبحت إلى المخرج، ولم تتوقَّف إلّا بعد أن ابتسمت لها الشمسُ من جديد. نظر إليها وهي تسبح بسرعةٍ فابتسم في سرِّه. الفتاة شجاعةٌ وجريئة.

أمضيا رحلة العودة صامتين. كانت صفحاتُ المذكَّرات تطنُّ

في رأس إرين كأصداء لم تشأ لها أن تخبو. غطَّت سلسلةُ غيومٍ بيضاء ومتلبِّدة السماءَ، لتمنح البحرَ صبغةً رصاصيّةً ومعدنيّة. وأمست الريحُ أبرد، فلبست إرين ثيابها. نظر إليها إسماعيل هذه المرَّة بعد أن انتهت، دلالةً على أنَّ الفتى غارقٌ في أفكاره أيًّا كانت.

وصل الكيانيوس قرب الرأس في منتصف الظهيرة، واتَّجه نحو بيت سوڤيل، بينما اكتنف الضبابُ جزيرةَ المنارة بأكملها. ساق إسماعيل القاربَ الشراعيَّ إلى المرسى ونفَّذَ عمليّة الرسوّ بمهارته المعتادة، على الرغم من أنَّ ذهنه سارحٌ على بُعد ألف كيلومتر عن هناك.

وعندما حانت لحظةُ الوداع، أمسكت إرين يده.

- شكرًا لأنَّكَ أخذتني إلى المغارة. - قالت وهي تقفز إلى الأرض.

- تشكرينني دومًا ولا أدري على ماذا... شكرًا لكِ أنتِ، على مجيئكِ.

كانت إرين تتحرَّقُ من رغبتها في أن تسأله متى سيلتقيان ثانيةً، لكنَّ فطرتها نصحتها بالتزام الصمت مجدَّدًا. حلَّ إسماعيل الحبلَ وابتعد الكيانيوس مع التيَّار.

وبينما كانت تنظر إلى مضيّ القارب، توقَّفَت إرين عند السلَّم الحجريّ المتشكِّل من الصخور. كان سربُ نوارس يرمقها منذ أن كانت في البحر حتّى وصلت إلى أضواء المرسى الخشبيّ. وهناك، بين الغيوم، رسم القمرُ جسرًا فضّيًّا على البحر، ليقتاد رحلة إسماعيل باتِّجاه البلدة.

صعدت إرين السلَّمَ الحجريَّ، تفترُّ منها ابتسامةٌ ليس في مقدور أحدٍ أن يراها. اللعنة كم تهوى هذا الفتى...

*

ما إن دخلت البيت حتّى أحسَّت إرين بوجود خطبٍ مّا. كلُّ شيءٍ مُرتَّب، والصمتُ والهدوءُ يُخيِّمان على كلّ شيء. كانت أضواءُ الصالة في الطابق الأرضيّ تتخلَّلُ العتمةَ الزرقاءَ التي مُنِيتْ بها تلك الظهيرةُ الغائمة. ودوريان جالسٌ على إحدى الأرائك يراقب ألسنة اللهب في المدفأة صامتًا. وسيمون تولي ظهرها للباب، وتنظر إلى البحر من نافذة المطبخ، وفي يديها فنجان قهوةٍ باردة. لا صوت إلّا لهمهمة الريح التي تلاعب دوَّارةَ السطح.

تبادل دوريان وشقيقته نظرةً. اقتربت إرين من أمِّها وحطَّت يدها على كتفها. التفتت سيمون سوڤيل. الدمع يترقرق في عينيها.

- ما الذي حدث يا أمَّاه؟

عانقتها سيمون. شبكت يدي أمِّها بيديها. كانتا باردتين. ترتجفان.

- حنَّة. - غمغمت سيمون.

حلَّ صمتٌ طويل. خدشت الريحُ مصاريعَ بيت الرأس.

- ماتت. - أضافت.

انهار العالمُ حول إرين، ببطء، مثل قلعةٍ من ورق.

7. دربُ الظلال

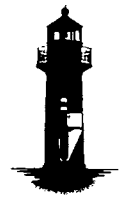

كانت الطريقُ الموازيةُ لشاطئ الإنكليز تعكس ألوان الغسق، وتبسط شريطًا أفعوانيًّا وأرجوانيًّا إلى البلدة. التفتت إرين خلفها، نحو بيت الرأس، وهي تضغط على دوَّاسات درَّاجة شقيقها. ما زالت سيمون تشعر بوطأة كلماتها، والرعب الذي طفح من عينيها، حين رأت ابنتها تخرج من البيت بعجالة، عند الغروب؛ لكنَّ صورتها عن إسماعيل المبحر باتِّجاه نبأ وفاة حنَّة، كانت أقوى من أيّ ندم.

أخبرت سيمون ابنتَها أنَّ مُتجوِّلَين اثنين، قبل عدّة ساعات، عثرا على جسد حنَّة في أحد جوانب الغابة. حفَّزَ النبأ حينئذٍ أحزانَ وآلام وشائعات كلِّ مَن حالفه الحظُّ بمعرفة تلك الفتاة السليطة اللسان. وعُرِفَ أنَّ أمَّها، إليزابيت، أصيبت بنوبةٍ عصبيّة على إثر معرفتها بما وقع، وأنَّها أمست تحت تأثير العقاقير المهدِّئة التي زوَّدَها بها الدكتور جيرو. ولكن، للحديث تتمّة.

عادت لتطفو على السطح شائعاتٌ حول سلسلة جرائم هزَّت

سكينةَ البلدة قبل أعوام. ثمّة مَن رأى في هذه المصيبة فصلًا جديدًا في ملحمة الجرائم المروِّعة، التي وقعت في غاب كريڤنمور في عقد العشرينات، ولم يُلقَ القبضُ على الجناة الضالعين فيها.

وآثَرَ آخرون التريُّثَ للتوصُّل إلى تفاصيل أدقّ حول الظروف التي أدَّت إلى المأساة. على أنَّ عاصفة الأقاويل لم تُسلِّط الضوءَ على السبب المحتمل للوفاة. فمنذ ساعاتٍ ما انفكَّ المتجوِّلان، اللذان صادفا الجثّة، يدليان بالإفادات للدرك؛ ويقال إنَّ طبيبين شرعيّين خبيرين كانا في طريقهما من مدينة لاروشيل. وعليه، فإنَّ موتَ حنَّة ما يزال لغزًا.

عجَّلَت إرين بقدر المستطاع، ووصلت إلى البلدة عندما كان قرصُ الشمس قد تداعى تمامًا في هاوية المدى. كانت الطرقاتُ خاويةً، والأشخاص القلّة يقطعونها صامتين، مثل ظلالٍ بلا أجساد. تركت الفتاةُ الدرَّاجةَ بجانب عمود إنارةٍ قديم يضيء مدخلَ زقاقٍ حيث منزل عمّ إسماعيل. المبنى بسيطٌ ومتواضع، منزل صيَّادين في جوار الخليج. ويبدو أنَّ آخر مرَّة طُليَتْ فيها الجدران تعود لعقودٍ خلت، وأنَّ الضوءَ الدافئَ لفانوسين يتَّقدان بالزيت يكشف ملامحَ واجهةٍ نخرتْها ريحُ البحر وملوحته.

انكمشت معدةُ إرين وهي تقترب من عتبة المنزل، وخشيت أن تطرق الباب. بأيّ حقٍّ تتجرَّأ على إزعاج العائلة المفجوعة في ساعةٍ كهذه؟ علامَ عزمت؟

توقَّفَت فجأةً، عاجزةً عن المضيّ إلى الأمام والرجوع إلى الخلف، عالقةً بين الشكّ وضرورة رؤية إسماعيل، والبقاء إلى

جانبه في محنةٍ كتلك. انفتح بابُ المنزل في تلك اللحظة تمامًا، وخرج الدكتور جيرو، الصارم والمكتنز، إلى الشارع. استشعرت عيناه اللامعتان والمدرَّعتان بعدستين وجودَ إرين في العتمة.

- أنتِ ابنة السيّدة سوڤيل، أليس كذلك؟

أومأت.

- إن جئتِ من أجل إسماعيل، فهو ليس في المنزل. - فسَّرَ جيرو - ما إن علم بمصاب ابنة عمِّه حتّى ركب القاربَ ومضى.

انتبه طبيبُ البلدة أنَّ وجه الفتاة يشحب.

- إنَّه بحَّارٌ ماهر. سيعود.

*

مشت إرين على المرسى. كان طيفُ الكيانيوس يتبدَّى في الضباب، يضيئه القمر. جلست الفتاةُ على حافّة الرصيف ونظرت إلى قارب إسماعيل يتَّجه نحو جزيرة المنارة. ليس بمقدور أحدٍ أو شيءٍ، في تلك اللحظة، أن ينتشله من عزلته التي اختارها. راودتها رغبةٌ في ركوب قاربٍ واللحاق به إلى حدود ذلك العالم السّرّيّ، لكنَّها عرفت أن أيَّ جهدٍ لا طائل من ورائه.

بدأت الصدمةُ الحقيقيّةُ للنبأ تشقُّ طريقها في ذهنها، فاغرورقت عيناها بالدمع. امتطت الدرَّاجةَ وعادت نحو البيت، حين اختفى أثرُ القارب.

وعلى طريق الساحل تخيَّلَت إسماعيلَ جالسًا بصمتٍ في برج المنارة، وحيدًا رفقة نفسه. تذكَّرَت عددَ المناسبات الكثيرة التي

سارت فيها بتلك الرحلة، في دواخلها؛ وتعهَّدَت بأنَّها مهما حدث، ما كانت لتتركَ الفتى يتوه في درب الظلال ذاك.

*

كان العشاءُ سريعًا في ذلك المساء. طقسٌ يقوم على السكوت والنظرات الهائمة، بينما تتظاهر سيمون وابناها بتناول شيءٍ قبل أن ينسحب كلٌّ إلى غرفته. وما حانت الحادية عشرة ليلًا إلّا وأقفرت الممرَّات، وخَبَتِ الأضواءُ ما عدا المصباح الليليّ في غرفة دوريان.

تسرَّبَت نسمةٌ باردةٌ من نافذته المفتوحة. كان دوريان مستلقيًا على السرير، يصغي إلى أصوات الغاب الشبحيّة، ونظراته هائمةٌ في الظلام. أطفأ الضوءَ قبل منتصف الليل بقليل وذهب إلى النافذة. بحرٌ أسود من أوراق شجرٍ يترجرج على هبِّ الرياح. حدَّقَ الصبيُّ إلى دوَّامة الظلال المتراقصة في الأحراش. أحسَّ بذلك الحضور يجوب الظلمة.

كان قصرُ كريڤنمور المتعرِّجُ يتبدّى ما وراء الغاب، إضافةً إلى مستطيلٍ منيرٍ في النافذة الأخيرة من الجناح الشماليّ. انبثقت هالةٌ مرتعشةٌ ومذهَّبةٌ من النافذة على حين غرَّة. أضواءٌ في الغاب. أضواء مصباحٍ أو مشعلٍ في السواد. ابتلع دوريان ريقه. ومضاتٌ خاطفةٌ تظهر وتختفي، لترسم دوائرَ في داخل الأحراش.

وبعد دقيقة، تدثَّرَ دوريان كنزته الثقيلة، وانتعل جزمته الجلديّة، وهبط السلالم على رؤوس أصابعه، وفتح بابَ الترّاس بحذرٍ شديد. الليل باردٌ والبحر يزمجر في الظلام، تحت

الجرف. اتَّبعت عيناه الأثرَ الذي رسمه القمر، شريطًا فضّيًّا يتلوَّى نحو قلب الغابة. وخزتْهُ معدتُهُ ليتذكَّرَ دفء غرفته وأمانها. زفر دوريان.

كانت الأضواءُ تثقب الضباب، كدبابيس بيضاء عند مشارف الغاب. وضع الولد قدمًا أمام أخرى وتقدَّمَ على ذلك النحو. حاصرته الظلالُ قبل أن ينتبه، وبدا بيتُ الرأس خلف ظهره بعيدًا، بعيدًا جدًّا.

*

لا الظلامُ ولا سكونُ العالم كلِّه في تلك الليلة استطاعا عقدَ صلحٍ بين النعاس وإرين. أبت إرين أن تنامَ في النهاية، حوالي منتصف الليل، وأشعلت الضوءَ فوق الدُّرج. كانت مذكَّرات ألما مالتيس في جوار القلادة الصغيرة التي أهداها لها والدها قبل سنوات، وما زال وجهُ الملاك منحوتًا في الفضّة. أخذت إرين المذكَّرات وفتحتها على الصفحة الأولى من جديد.

رحَّبَ بها الخطُّ الحادُّ والمتموِّج. كان الورقُ غارقًا بلونٍ أصفر باهت، كأنَّه حقلُ شيلم تعبث به الريح. تلمَّسَت عيناها الصفحاتِ سطرًا بعد سطر، واستأنفت إرين رحلتها ثانيةً في ذاكرة ألما مالتيس السّرّيّة.

ولم تكد تقلب الصفحة الأولى، حتّى حملها سحرُ الكلمات بعيدًا. لم تعد تسمع صوتَ الموج، ولا الريح في الغابة. كان ذهنها في عالمٍ آخر تمامًا...

. . . سمعتُهما يتشاجران هذه الليلة في المكتبة. كان يصرخ ويرجوه أن يدعه وشأنه، أن يهجر داره إلى الأبد. قال له إنَّه لا يحقُّ له البتّة الإمعانُ في ما كان يفعله بحياتنا. لن أنسى أبدًا صوتَ تلك القهقهة، مثل عواء حيوانٍ غاضبٍ وحاقدٍ ينفجر خلف الحيطان. اهتزَّت أرجاءُ الدار بتخبُّط آلاف الكتب المرميّة عن الرفوف. غضبه يتفاقم يومًا بعد يوم. منذ أن حرَّرتُ ذلك الوحشَ من حبسه، اكتسب قوَّةً باستمرار.

يقف حارسًا عند سريري في كلّ ليلة. أعرف أنَّه يخشى أن يختطفني الظلُّ لو غفلت عينُه عنّي لحظةً واحدة. مرَّت أيَّامٌ ولم يُحدِّثني عن الأفكار التي تتزاحم في رأسه، ولكن لا داعي لذلك. فهو لا ينام منذ أسابيع. وكلُّ ليلةٍ هي انتظارٌ عصيبٌ لا نهاية له. وضع في كلّ أنحاء الدار مئات الشموع، محاولًا أن ينيرَ كلَّ زاوية، كي لا يحتمي الظلُّ بالظلام. شاخ وجهُه عشرة أعوام في شهرٍ واحد.

أعتقد أحيانًا أنَّني السببُ في كلّ شيء، وأنّي إن اختفيتُ ستزول لعنتُه معي. ربّما يتوجَّبُ عليَّ أن أفعل ذلك، أن أبتعدَ عنه وأذهبَ إلى موعدي المحتوم مع الظلّ. لن نحظى بالسلام إلّا بهذه الطريقة. الأمر الوحيد الذي يمنعني عن الإقدام على هذه الخطوة هو أنَّني لا أستوعب فكرةَ أن أهجره. فمن دونه لا معنى لشيء. لا الحياة لها معنى ولا الموت. . .

رفعت إرين عينيها عن المذكَّرات. بدت لها متاهةُ شكوك ألما مالتيس مُربِكةً، وفي الوقت نفسه قريبةً بشكلٍ مقلق. الخطُّ

الفاصلُ بين الذنب والرغبة في الحياة حادٌّ جدًّا على ما يبدو، مثل سكِّينٍ مسمومة. أطفأت إرين الضوء. لم تتلاشَ الصورةُ من ذهنها. سكِّينٌ مسمومة.

*

توغَّلَ دوريان في الغاب متَّبعًا أثرَ الأضواء التي رآها تلتمع في الأحراش، كانعكاساتٍ قد تصدر من أيّ مكانٍ في الغابة. تحوَّلَت الأوراقُ المبلَّلةُ بالندى إلى سلسلة توهُّماتٍ مبهمة. وأمسى صوتُ خطواته آنذاك اعتراضًا مضنيًا على إرادته. سحب نفسًا عميقًا في النهاية وتذكَّرَ غايته: ما كان ليعودَ أدراجه قبل أن يعرفَ ما الذي يخفيه الغاب. هذا كلُّ شيء، ولا شيء سواه.

توقَّفَ الصبيُّ عند مدخل الأرض البراح حيث عثر في اليوم الماضي على البصمات. تماهت العلاماتُ حينذاك وصار التعرُّفُ عليها صعبًا. اقترب من الجذع الممزَّق وتحسَّسَ الشروخ. تعزَّزَت في مخيِّلته صورةٌ عن كائنٍ يتسلَّقُ الأشجارَ بسرعةٍ لامتناهية، مثل هرٍّ خارجٍ من الجحيم. وبعد ثانيتن، أنبأتْه طقطقةٌ خلف ظهره باقتراب شخصٍ مّا، أو شيءٍ مّا.

اختبأ دوريان في الحرش. خدَّشته أطرافُ الأجمات الحادّة. تكتَّمَ على أنفاسه وتوسَّلَ ألّا يسمعَ هذا الذي جاء باحثًا عنه ضرباتِ قلبه الخافق مثلما كان يسمعها هو في تلك اللحظة. وبعد قليل، فتحت الأضواءُ المرتعشةُ التي رآها من البعيد طريقًا بين ثغرات الحشائش، لتُحوِّلَ الضبابَ المتماوجَ إلى نفحةٍ حمراء.

سمع صوتَ خطواتٍ من الجهة الأخرى. أغمض عينيه،

متحجِّرًا كتمثال. توقَّفَت الخطوات. شعر دوريان بفقدان الأوكسجين، لكنَّه كان مستعدًّا لقضاء السنوات العشر التالية من دون تنفُّس. وفي النهاية، حين ظنَّ أنَّ رئتيه ستنفجران، أزاحت يدان أغصانَ الأجمة التي اختبأ فيها. استحالت ركبتاه هلامًا. وأعشاه ضوءُ المصباح. وبعد وقتٍ حسِبَه الولدُ أبديًّا، وضع الرجلُ الغريبُ المصباحَ على الأرض وجلس القرفصاء قبالته. تألَّقَ وجهٌ مألوفٌ بعض الشيء بجانبه، لكنَّ الهلع حال دون التعرُّف عليه. ابتسم الغريب.

- فلنرَ إذًا. هل يمكننا أن نعرفَ ما الذي تفعله هنا؟ - قال الصوت، صافيًا وودودًا.

أدرك دوريان أنَّه أمام لازاروس ببساطة. وحينها تنفَّسَ الصعداء.

*

مرَّت ربع ساعةٍ بأكملها حتّى تبدَّدت الرجفةُ من يديه. حدث ذلك عندما وضع لازاروس أمامه فنجان شوكولاتة ساخنة وجلس قبالته. كان الرجلُ قد صحبه إلى السقيفة المجاورة لمصنع الألعاب. وحضَّرَ له المشروب هناك بلا عجالة.

وبينما كانا يحتسيان الشوكولاتة ويراقب أحدهما الآخر من فوق الفنجان، انفجر لازاروس ضاحكًا.

- كدتَ تُميتني من الخوف يا بنيّ. - أكَّدَ له.

- قد يواسيك قولي بأنَّ خوفك لا يساوي الرعبَ الذي سبَّبتَه لي. - ردَّ دوريان وهو يشعر أنَّ الشوكولاتة الساخنة تبثُّ إحساسًا مريحًا بالهدوء في معدته.

- لا أشكُّ في هذا. - ضحك لازاروس - والآن، هلّا أخبرتني عمّا كنتَ تفعله خارج البيت؟

- رأيتُ أضواء.

- رأيتَ ضوء مصباحي. ألهذا خرجتَ؟ في منتصف الليل؟ أم تُراك نسيتَ ما الذي حلَّ بحنَّة؟

ابتلع دوريان ريقه، مع أنَّ اللعابَ بدا له رصاصةً فولاذيّةً من العيار الكبير.

- لا يا سيِّدي.

- جيِّد. لا تنسَ ذلك إذًا. التسكُّع في الظلام خطير. لديَّ انطباعٌ منذ عدَّة أيّام أنَّ هناك مَن يتجوَّلُ في الغاب.

- هل رأيتَ العلامات أنت أيضًا؟

- أيُّ علامات؟

وقصَّ عليه دوريان مخاوفه وهواجسه حيال ذلك الحضور المريب الذي شعر به في الغاب. ظنَّ في البدء أنَّه لن يقوى، لكنَّ لازاروس يوحي بطمأنينةٍ وثقةٍ ضروريَّتين لحلّ عقدة اللسان. وبينما استرسل في حكايته، أصغى إليه لازاروس بإمعان، دون أن يخفي عجبه وابتسامته إزاء التفاصيل الأكثر غرائبيّةً في القصّة.

- ظلّ؟ - سأله مستدركًا على حين غرَّة.

- حضرتك لا تُصدِّقُ أيَّ كلمةٍ ممّا أقول. - لاحظ دوريان.

- لا، لا. أُصدِّقُك. أو فلنقل إنّي أحاول أن أُصدِّقَك. لعلَّك تعي أنَّ ما تقصُّه عليَّ... فريدٌ نوعًا مّا. - قال لازاروس.

- ولكنَّك أنت أيضًا رأيتَ شيئًا. ولهذا كنتَ في الغاب. أليس كذلك؟

ابتسم لازاروس.

- أجل. أنا أيضًا، تهيَّأ لي أنّي رأيتُ شيئًا، لكنّي لا أقدر على سرد كثيرٍ من التفاصيل مثلك.

أنهى دوريان فنجانه.

- هل تريد مزيدًا؟ - عرض عليه لازاروس.

أومأ الولد. صحبةُ مخترع الألعاب ممتعة. كان يشاركه فنجان شوكولاتة ساخنة، في عزّ الليل، وهذه بحدّ ذاتها بدت له تجربةً تربويّةً ومثيرة.

ألقى دوريان نظرةً إلى الورشة التي كانا فيها، فلاحظ وجود جسمٍ ضخمٍ على إحدى طاولات العمل، يكسوه غطاء.

- هل تعمل على مشروعٍ جديد؟

أومأ لازاروس مؤكِّدًا.

- هل ترغب في رؤيته؟

جحظت عينا دوريان. لا داعي للإجابة.

- حسنًا ولكن اعلمْ أنَّه غير مُنجَزٍ بعد... - قال الرجل مقتربًا من الغطاء، وأشعل مصباحًا.

- أهو رجلٌ آليّ؟ - سأل الصبيّ.

- على طريقته، أجل. إنَّه غريب الأطوار في الواقع. خطرت فكرته في بالي منذ أعوام. والحال أنَّ ولدًا في عمرك تقريبًا هو الذي اقترحها عليَّ منذ زمنٍ بعيد.

- صديقٌ لحضرتك؟

ابتسم لازاروس، مشبعًا بالحنين.

- هل أنت مستعدّ؟ - سأل.

أومأ دوريان متحمِّسًا. رفع لازاروس الغطاء... فإذا بدوريان يندهش ويتراجع خطوةً إلى الوراء.

- لا تجزع يا دوريان، إنَّه مجرَّد آلة.

راقب دوريان ذلك الجسم الضخم. كان لازاروس قد صنع ملاكًا معدنيًّا، تمثالًا بطول مترين تقريبًا ومزوَّدًا بجناحين هائلين. وكان وجهُه الفولاذيُّ المنحوتُ يلتمع تحت قلنسوة. ويداه الكبيرتان قادرتان على إحاطة رأسه بقبضةٍ واحدة.

لمس لازاروس أحد النوابض في رقبة الملاك، ففتح المخلوقُ الآليُّ عينيه، كياقوتتين تضيئان كجمرتين. نظرتا إليه. هو تحديدًا.

أحسَّ دوريان بأنَّ أمعاءه تنكمش.

- أوقِفْهُ أرجوك... - توسَّل.

انتبه لازاروس إلى نظرة الصبيّ المذعورة وسارع إلى تغطية الآلة.

تنفَّسَ دوريان الصعداء حين لم يعد يرى ذلك الملاكَ الشيطانيّ.

- متأسِّف. - قال لازاروس - ما كان ينبغي لي إطلاعك عليه. إنَّه مجرَّد آلة يا دوريان. معدن. لا تجزع من ظواهر الأشياء. هذه لعبة ليس إلّا.

أومأ الولدُ عن غير اقتناع.

سارع لازاروس إلى سكب فنجانٍ طافحٍ من الشوكولاتة الساخنة وقدَّمَها له. تجرَّعَ دوريان السائلَ الكثيفَ والمريحَ برعاية

مخترع الألعاب. وعندما وصل إلى منتصفه، نظر إلى لازاروس وتبادلا ابتسامة.

- شيءٌ مخيف، ها؟ - سأله الرجل.

ضحك الفتى ضحكةً عصبيّة.

- ستظنُّ أنّي جبان.

- على العكس. قلّةٌ من الناس يغامرون في الخروج للتحرّي في الغاب ليلًا، لاسيّما بعد ما حدث لحنَّة.

- ما الذي حدث لها برأيك؟

رفع لازاروس كتفيه.

- يصعب قول ذلك. ينبغي لنا انتظار ما تفضي إليه تحقيقاتُ الشرطة.

- أجل، ولكن...

- ولكن ماذا...؟

- ماذا لو كان هناك شيءٌ مّا في الغاب حقًّا؟ - ألحَّ دوريان.

- الظلّ؟

أومأ دوريان بجدّيّة.

- هل سمعتَ يومًا عن «*Doppelgänger*»؟ - سأله لازاروس.

نفى الولد. نظر إليه مخترعُ الألعاب بطرف عينه.

- هذه كلمةٌ ألمانيّة. - فسَّر - تُستَخدَمُ في وصف ظلٍّ انفصل عن صاحبه لسببٍ مّا. هل ترغب في سماع حكايةٍ بهذا الخصوص؟

- أجل، من فضلك...

جلس لازاروس على كرسيٍّ قبالته وأخرج سيجارًا طويلًا.

كان دوريان قد تعلَّمَ في السينما أنَّ هذا النوع من الطربيدات يُسمّى بالسيجار الكوبيّ، وأنَّه ناهيك بسعره الباهظ، ينفث رائحةً لاذعة وثاقبة. وفي الواقع، كان غروشو ماركس، بعد غريتو غاربو طبعًا، بطلَ العروض الصباحيّة التي يحضرها دوريان في صالة السينما يوم الأحد. هذا في حين أنَّ الناس البسطاء من العامّة يقتصرون على تشمُّم الدخان من الدرجة الثانية. عاين لازاروس السيجارَ وأعاده إلى مكانه، على حاله، واستعدَّ للبدء بالحكاية.

- حسنًا، روى لي الحكايةَ زميلٌ قديم، منذ أعوامٍ طويلة. الزمان: عام ١٩١٥. المكان: مدينة برلين... لم يكن بين جميع الساعاتيّة ببرلين مَن هو أكثر غيرةً على عمله وأكثر احترافيّةً في منهجيَّته مثل هرمان بلوكلن. وفي واقع الحال، أوصلَهُ هوسُهُ في اختراع منظوماتٍ آليّةٍ دقيقة إلى صياغة نظريّةٍ حول العلاقة بين الزمن والسرعة التي يتحرَّكَ بها الضوءُ في الكون. كان بلوكلن يعيش محاطًا بالساعات في مسكنٍ صغيرٍ قائمٍ في المستودع الخلفيّ لمحلِّه، في شارع هاينريش. كان رجلًا انطوائيًّا. لا عائلة لديه. لا أصدقاء. صحبته الوحيدة تتمثَّلُ في هرٍّ عجوز، يدعى سلمان، يقضي أوقاته بجانبه صامتًا، بينما يُكرِّسُ بلوكلن أيَّامًا بأكملها لعلومه، داخل ورشته. ومع مرور الأعوام، تحوَّلَ اهتمامُه إلى هوس. فليس من النادر أن يُغلِقَ محلَّه في وجه الزبائن أيَّامًا بحالها. أيَّامٌ من أربع وعشرين ساعة، بلا استراحة، ينغمس خلالها في العمل على مشروعه المنشود: الساعة التامّة، الآلة الكونيّة لقياس الزمن.

وفي أحد تلك الأيَّام، عندما كانت عاصفةٌ من بردٍ وثلجٍ تكتسح برلين على مدى أسبوعين، تلقّى الساعاتيُّ زيارةً من قِبَلِ زبونٍ غريب الأطوار: رجلٌ نبيلٌ وموقَّر، يدعى أندرياس كوريلّي. كان كوريلّي يرتدي طقمًا أنيقًا من الأبيض البرَّاق، ولون شعره الطويل واللامع فضّيّ. عيناه تتخفَّيان بعدستين سوداوين. أوضح له بلوكلن أنَّ المحلَّ مُغلَق، لكنَّ كوريلّي ألحَّ متذرِّعًا بأنَّه قادمٌ من مكانٍ في منتهى البُعد لا لشيء سوى ليزوره. أعلَمَهُ بأنَّه كان على درايةٍ بنتائجه التقنيّة، وراح يُعدِّدُها بتفاصيلها على مسمعه، وهذا ما جعل الساعاتيَّ يتوجَّسُ بشدّة، إذ كان يظنُّ أنَّ اكتشافاته خافيةٌ على العالم، حتّى تلك اللحظة على الأقلّ.

وكان طلبُ كوريلّي لا يقلُّ غرابةً. أراد من بلوكلن أن يصنعَ له ساعة، وأيُّ ساعة. أراد لعقاربها أن تدورَ بالاتِّجاه المعاكس. والسبب وراء هذا التكليف هو أنَّ كوريلّي يعاني مرضًا سيطفئ شمعةَ حياته في غضون أشهر. ومن أجل هذا، أراد ساعةً تعدُّ الساعات والدقائق والثواني المتبقّية من عمره.

وكان هذا الطلبُ الغريبُ مرفوقًا بعرضٍ ماليٍّ سخيٍّ للغاية. فضلًا عن أنَّ كوريلّي سيضمن موردًا اقتصاديًّا لتمويل أبحاثه مدى الحياة. وبالمقابل، ليس أمام الساعاتيّ سوى بضعة أسابيع لاختراع تلك الآلة.

من نافل القول أنَّ بلوكلن وافق على الصفقة. أمضى أسبوعَين من العمل المكثَّف في ورشته. كان غارقًا في مهمَّته عندما عاد أندرياس كوريلّي، بعد عدَّة أيَّام، ليطرق بابه من جديد. وكانت الساعةُ جاهزة. تفحَّصَها كوريلّي، مبتسمًا، وبعد

أن امتدح العملَ قال إنَّ المكافأة مستحقَّةٌ فعلًا. اعترف بلوكلن مُجهَدًا أنَّه وضع روحه في هذا العمل. هزَّ كوريلّي رأسه. ثمَّ ضبط الساعة وانتظر من مُحرِّكها أن يشتغل. ترك لبلوكلن صرّةً من النقود الذهبيّة وغادر.

جُنَّ الساعاتيُّ من الفرح والطمع وهو يحصي المال، ونظر إلى انعكاس صورته في المرآة. رأى أنَّه صار أكبر سنًّا، وأنَّ جسمه قد هزل. ذلك أنَّه عمل كثيرًا. فقرَّرَ أن يأخذ لنفسه إجازة، وانصرف إلى الراحة.

وفي اليوم التالي ولجت أشعّةُ الشمس الساطعة من نافذته. ذهب بلوكلن متعبًا ليغسل وجهه، ونظر من جديد في المرآة. لكنَّه في هذه المرَّة صُعِقَ ممّا رأى. ففي الليلة السابقة، حين خلد إلى النوم، كان وجهه لرجلٍ في الحادية والأربعين من عمره، منهك ومرهق لكنَّه لا يزال شابًّا. أمّا حينذاك فكان قبالته رجلٌ يناهز الستّين عامًا. خرج مذعورًا لاستنشاق الهواء في المنتزه. وعاد إلى المحلّ، وعاين صورته ثانيةً. كان عجوزٌ هرمٌ ينظر إليه من المرآة. استبدَّ به الفزع، خرج إلى الشارع واصطدم بجارٍ له يسأله ما إذا صادف الساعاتيَّ بلوكلن. فهُرِعَ هرمان راكضًا من شدّة الهلع.

أمضى تلك الليلة في إحدى زوايا خمَّارةٍ نتنة، صحبة مجرمين ورجالٍ سيّئي السمعة. أيُّ شيءٍ أهوَنُ من البقاء وحيدًا. كان يشعر أنَّ جلده ينكمش دقيقةً تلو أخرى. وعظامه تزداد هشاشةً. ونَفَسَه يضيق.

وقبل منتصف الليل بقليل، اقترب منه رجلٌ لا يعرفه، سأله

إن كان بوسعه الجلوس إلى جانبه. نظر إليه بلوكلن. شابٌّ بهيُّ الطلعة، لا يتجاوز العشرينيّات من عمره. وجهه غير مألوف، باستثناء العدستين السوداوين اللتين تحجبان عينيه. أحسَّ بلوكلن باختلاجٍ في قلبه. إنَّه كوريلّي...

جلس أندرياس كوريلّي قبالته وأخرج الساعة التي صنعها بلوكلن قبل أيّام. سأله الساعاتيُّ محبطًا عن الظاهرة العجيبة التي حلَّت به. لماذا كان يشيخ بلمح البصر؟ فأظهر كوريلّي له الساعة. كانت عقاربها تدور ببطء بالاتِّجاه المعاكس. ثمَّ ذكَّرَه بكلماته: كان قد قال إنَّه وضع روحه في هذا العمل. لذا كانت روحُهُ وجسمُهُ يشيخان تدريجيًّا كلَّما مرَّت دقيقة.

أعشى الرعبُ عيني بلوكلن وتوسلَّ إليه أن يساعده. قال له إنَّه مستعدٌّ لفعل أيّ شيء، وللتنازل عن كلّ ما يلزم، شرط استعادة شبابه وروحه. ابتسم له كوريلّي وسأله إن كان واثقًا ممّا يقول. فكرَّرَ الساعاتيّ: مستعدٌّ لفعل أيّ شيء.

فقال كوريلّي حينذاك إنَّه لا مانع لديه من إرجاع الساعة، والروح، مقابل شيءٍ ليس فيه فائدةٌ فعليّةٌ لبلوكلن: ظلَّه. ارتبك الساعاتيُّ وسأله ما إذا كان هذا هو الثمن حقًّا؛ ظلّ؟! فأومأ كوريلّي، ووافق الآخرُ على الصفقة.

أخرج الزبونُ الغريبُ قارورةً بلّوريّة، فكَّ سدَّادتها ووضعها على الطاولة. فرأى بلوكلن أنَّ ظلَّه يدخل القارورة فورًا، مثل زوبعةٍ من غاز. أغلق كوريلّي القارورة، واستأذن الساعاتيَّ وخرج في الليل. وما إن رآه يختفي من باب الخمَّارة، انقلبت دورةُ عقارب الساعة التي كانت بين يديه.

وحين وصل بلوكلن إلى بيته، عند الفجر، عاد وجهه شابًّا من جديد. تنفَّسَ الساعاتيُّ الصعداء. لكنَّ مفاجأةً أخرى كانت في انتظاره. لم يجد هرَّه، سلمان، في أيّ مكان. بحث عنه في الشقّة برمَّتها، وحين وجده في النهاية صُعِقَ ذعرًا. كان الحيوانُ معلَّقًا من عنقه بسلكٍ كهربائيٍّ موصولٍ بأحد مصابيح الورشة. وكانت طاولةُ العمل مقلوبةً، والعدَّةُ مبعثرةً في الغرفة. كأنَّ إعصارًا قد مرَّ من هناك. كلُّ شيء مُحطَّم. ثمَّ كان هنالك كتاباتٌ على الجدران. خطَّ أحدُهم على الجدران، بطريقةٍ سيِّئة، كلمةً غير مفهومة:

نلكولب

عاين الساعاتيُّ ذلك الأثرَ المشين، واستغرق عدَّة دقائق ليفهم معناه. هذا اسمه، مكتوبًا بالعكس: نلكولب، بلوكلن. همس صوتٌ خلف ظهره، فالتفت فرأى انعكاسًا داكنًا لشخصه، طلسمًا شيطانيًّا لوجهه.

فأدرك الأمر عندئذ. ظلُّهُ يراقبه. ظلُّهُ نفسُهُ، يتحدَّاه. حاول أن يمسكه، لكنَّ الظلَّ ضحك كالضبع وتفشّى على الجدران. واقشعرَّ بلوكلن حين رآه يمسك سكِّينًا طويلة ويهرب من الباب، ويختلط في العتمة.

وقعت الجريمةُ الأولى في شارع هاينريش في تلك الليلة نفسها. أفاد عدَّة شهود بأنَّهم رأوا الساعاتيَّ يطعن مُجنَّدًا، كان مارًّا من الزقاق عند الفجر، بدمٍ بارد. أوقفت الشرطةُ بلوكلن وأخضعته لاستجوابٍ طويل. وفي المساء اللاحق، بينما كان

سجينًا في زنزانة، سقط قتيلان آخران. بدأ الناس يتحدَّثون عن مجرمٍ غامضٍ يتجوَّلُ بين ظلال الليل في برلين. حاول بلوكلن أن يُفسِّرَ ما جرى للسلطات، ولكن لم يلقَ آذانًا من أحد. تكهَّنت الصحفُ حول القدرة الغامضة لمجرمٍ يستطيع الهربَ في كلّ ليلة من زنزانةٍ تخضع لتدابير أمنيّةٍ مُشدَّدة، ويرتكبَ أفظع الجرائم التي تذكرها المدينة.

دام الرعبُ من ظلّ برلين خمسة وعشرين يومًا بالضبط. وكانت خاتمةُ تلك القضية المريبة غيرَ متوقَّعة وغيرَ مفهومة، مثل بدايتها تمامًا. ففي ليلة ١٢ يناير ١٩١٦، دخل ظلُّ هرمان بلوكلن إلى السجن المظلم الذي تديره الشرطة السّرّيّة. أقسم حارسُ الزنزانة أنَّه رأى بلوكلن يصارع ظلًّا، وأنَّ الساعاتيَّ طعنه في لحظةٍ معيَّنةٍ من الصراع. ولكن عند الفجر، وجد الحارسُ البديلُ بلوكلن ميّتًا في زنزانته، بطعنةٍ في القلب.

وبعد عشرة أيَّام، تطوَّعَ رجلٌ مجهولٌ يُدعى أندرياس كوريلّي بدفع تكاليف دفن بلوكلن في قبرٍ جماعيٍّ بمقبرة برلين. لم يحضر أحدٌ مراسم الدفن، سوى حفَّار القبور ورجلٍ غريب الأطوار يضع عدستين داكنتين.

وبقيت قضيّةُ جرائم شارع هاينريش مفتوحةً ومستعصية في أرشيف شرطة برلين...

- عجبًا... - همس دوريان في نهاية قصّة لازاروس - وهل حدث هذا حقًّا؟

ابتسم مبتكرُ الألعاب.

- لا، ولكنّي كنتُ متأكِّدًا من أنَّ الحكاية ستعجبك.

أغرق دوريان عينيه في الفنجان. فهم أنَّ لازاروس اختلق تلك القصَّة لا لشيء سوى لانتشاله من الفزع الذي تسبَّبَ به الملاكُ الآليّ. حيلةٌ موفَّقة، لكنَّها في نهاية المطاف تبقى حيلة. ربَّتَ لازاروس على كتفه ودّيًّا.

- يبدو لي أنَّ الوقت تأخَّرَ على لعبة المحقِّقين. سأرافقك إلى البيت، هيّا.

- هلّا وعدتَني بأنَّك لن تخبر أمّي بشيء؟ - توسَّلَ دوريان.

- شرط أن تعدني بأنَّك لن تتسكَّعَ في الغاب ليلًا بمفردك. إلى أن يتَّضحَ ما الذي وقع لحنَّة على الأقلّ...

تبادل الاثنان نظرة.

- موافق. - أكَّدَ الصبيّ.

صافحه لازاروس كأنَّه رجل أعمال قدير. ثمَّ ابتسم ابتسامة ملغَّزة، واقترب من خزانة، أخرج منها صندوقًا خشبيًّا وأعطاه لدوريان.

- ما هذا؟ - سأله الولدُ وقد ثار فضوله.

- لغز. افتحه.

أخذ دوريان يفتح الصندوق. كشف ضوءُ المصابيح تمثالًا فضّيًّا بحجم يده. نظر إليه دوريان مشدوهًا. ابتسم لازاروس.

- دعني أريك كيف يشتغل.

أمسك الرجلُ الغرضَ ووضعه على الطاولة. وما إن ضغطه بأصابعه حتّى فرد التمثالُ جناحين، ليكشف عن طبيعته: ملاك. مطابقٌ للذي رآه دوريان قبل قليل. لكنَّها نسخةٌ مصغَّرةٌ عنه.

- لن يخيفك بهذه الأبعاد، ها؟

أومأ دوريان مُتحمِّسًا.

- سيكون هذا ملاكك الحارس إذًا. ليحميك من الظلال...

رافق لازاروس الولدَ عبر الغاب حتّى بيت الرأس، وكان في الطريق يشرح له أسرار وتقنيّات صناعة الآلات الذاتيّة التشغيل والمنظومات الميكانيكيّة التي تبدو شقيقات السحر من حيث تعقيدها وعبقريَّتها. لازاروس يعرف كلّ شيء، ولديه إجاباتٌ على أصعب الأسئلة. لا يُشقُّ له غبار. وحين وصلا إلى نهاية الغاب، بدا دوريان مفتونًا وفخورًا بصديقه الجديد.

- تذكَّر شرطنا، موافق؟ - همس لازاروس - لا تجوُّلات ليليّة.

هزَّ دوريان رأسه واتَّجه نحو البيت. انتظر مخترعُ الألعاب في الخارج، ولم ينصرف إلّا عندما وصل الفتى إلى غرفته وحيَّاه من النافذة. ردَّ لازاروس التحيّة وولج في ظلال الغاب من جديد.

لم تفارق الابتسامةُ وجهَ دوريان بعد أن استلقى على السرير. بدت كلُّ مخاوفه وهواجسه قد تبخَّرَت. استراح، وفتح الصندوق وأخذ الملاكَ الآليَّ الذي أهداه له لازاروس. تحفة فنّيّة، بجمالٍ منقطع النظير. تحمل تعقيداتُ آليّته معها أصداء علمٍ غامضٍ وفاتن. تركه دوريان على الأرض، عند أرجل السرير، وأطفأ الضوء. لازاروس عبقريّ. ها هي الكلمة المناسبة. كم سمعها دوريان في الماضي، وفوجئ من فرط استعمالها، في حين لم

تكن تصلح للأفراد الموصوفين بها بأيّ طريقة. لكنَّه في النهاية عرف عبقريًّا حقيقيًّا. وكان صديقه.

أفسح الحماسُ مجالًا لنعاسٍ لا يُقاوَم. استسلم دوريان للتعب واقتاد ذهنَهُ لمغامرةٍ كان فيها وريثَ علوم لازاروس، ويخترع آلةً تقبض على الظلال وتُخلِّصُ العالمَ من شرور منظمّةٍ إجراميّة.

كان قد غطَّ في النوم عندما فرد التمثالُ الصغيرُ جناحيه ببطء، من دون سابق إنذار. حنى الملاكُ رأسَه إلى جانب، ورفع ذراعه. وكانت عيناه السوداوان، كدمعتين من السبج، تتلألآن في الظلمة.

8. المجهول

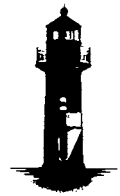

مرَّت ثلاثةُ أيَّامٍ ولمَّا يَرِد إرين أيُّ خبرٍ عن إسماعيل. لا أثر للفتى في البلدة، وقاربُه الشراعيُّ ليس راسيًا عند الرصيف. وكانت الجبهةُ الهوائيّةُ العاصفةُ تجتاح سواحل النورماندي، لتبسطَ على الخليج معطفًا من رمادٍ قد يمتدُّ ثلاثة أسابيع.

بدت طرقاتُ المدينة غافيةً تحت رذاذ المطر، في الصباح الذي شهد على رحلة حنَّة الأخيرة إلى المقبرة الصغيرة، عند قمَّة الهضبة الناتئة شمال شرق الخليج الأزرق. وصل التشييعُ حتّى أبوابها، ثمَّ أبدت العائلةُ رغبةً صريحةً في أن تُجرى مراسمُ الدفن بخصوصيّةٍ تامّة. عاد أهالي البلدة تحت المطر إلى بيوتهم، في صمتٍ خاشع، وقد خيَّمت عليهم ظلالُ ذكرى الفتاة.

تطوَّعَ لازاروس لتوصيل سيمون وابنيها إلى بيت الرأس، بينما كان الحشدُ ينفضُّ مثلما تتبدَّدُ كتلُ الضباب عند الفجر. حينئذٍ، لمحت إرين طيفَ إسماعيل الانطوائيّ يتأمَّلُ البحرَ الرصاصيَّ من قمَّة الصخرة التي تُتوِّجُ الأجرافَ المحيطةَ

بالمقبرة. اكتفت الفتاةُ وأمُّها بنظرةٍ متبادلة، لتسمح لها بالذهاب. ابتعدت سيَّارةُ لازاروس على امتداد طريق منسك القدّيس رولان، وصعدت إرين الدربَ المؤدّي إلى الجرف.

لاح في الأفق، فوق البحر، لمعانُ عاصفةٍ رعديَّةٍ تُضرِمُ الضوءَ في الغيوم، كأنَّها دبَّاباتٌ من معدنٍ مصهور. وجدت الفتاةُ إسماعيل على صخرة، هائم النظرات في المحيط. وكان رأسُ الخليج وجزيرةُ المنارة يتواريان في الضباب.

*

في طريق عودتهما إلى البلدة، أطلعها إسماعيل، بلا مقدِّمات، أين كان مختفيًا في الأيَّام الثلاثة الأخيرة. بدأ حكايته من لحظة تلقّيه النبأ.

انطلق بقاربه متَّجهًا إلى جزيرة المنارة، محاولًا الهرب من شعورٍ يستحيل الهرب منه. وتكفَّلت الساعاتُ اللاحقةُ، حتّى الفجر، بتصفية ذهنه وتركيز انتباهه على ضوءٍ جديدٍ في نهاية النفق: الكشفُ عن المسؤول عن تلك المأساة وتوعُّدُهُ بدفع الثمن. بدت الرغبةُ في الانتقام الترياقَ الوحيدَ القادر على تخفيف حدّة الألم.

لم تقنعه تفسيراتُ الدرك إطلاقًا. حتّى إنَّه اشتبه بالسّرّيّة التي تعمل بها السلطاتُ على القضيّة. وهكذا، قبل فجر اليوم التالي، قرَّرَ إسماعيل البدءَ بتحرّياته. مهما كلَّفَ الثمن. لم تعد القواعدُ موجودةً، اعتبارًا من تلك اللحظة. وفي تلك الليلة نفسها، تسلَّلَ إسماعيل إلى مختبر الطبّ الشرعيّ المرتجل الذي أسَّسَهُ الدكتور

جيرو. استعان بجسارته وكمَّاشتين، وقطَّعَ وصلات الجنازير وكلَّ ما كان يعترض دخوله.

أصغت إرين، ما بين الخوف وعدم التصديق، كيف اقتحم إسماعيل ذلك المكانَ الجنائزيَّ، منتظرًا خروج جيرو؛ وكيف بحث في أرشيف الطبيب عن الملفّ المتعلِّق بحنَّة، بين ضباب الفورمالين والعتمة المريبة.

لم يعرف من أين جاء بالدم البارد الذي جعله يُقدِمُ على خطوةٍ كتلك، لكنَّه بطبيعة الحال لم يخبرها عن الجثَّتين الملفوفتين اللتين رآهما هناك. كانتا لغطَّاسَيْن ساقهما الحظُّ العاثرُ في المساء السابق للغوص في تيَّارٍ بحريٍّ بمضيق لاروشيل، في محاولة استرداد شحنة سفينةٍ شراعيّةٍ جنحت عند الحواجز المرجانيّة.

أصغت إرين، شاحبةً كدميةٍ خزفيّة، إلى الحكاية المريعة من أوَّلها إلى آخرها، وما تضمَّنته من تعثُّر إسماعيل بإحدى طاولات العمليّات. وحين عادت حكايةُ الفتى إلى الهواء الطلق، تنهَّدت الفتاة. حمل إسماعيل الملفَّ إلى القارب، وأمضى ساعتين في محاولة فهم غابة المصطلحات الطبّيّة التي كتبها الدكتور جيرو.

ابتلعت إرين ريقها.

- إذًا، كيف ماتت؟ - غمغمت.

نظر إسماعيل في عينيها مباشرةً. وجد فيهما لمعانًا غريبًا.

- لا يعلمون كيف. لكنَّهم يعلمون لماذا. فبحسب التقرير الطبّيّ، سبب الوفاة الرسميّ هو سكتةٌ قلبيّة. - فسَّر - ولكن، في

تحليله النهائيّ، يلاحظ جيرو أنَّ حنَّة، برأيه، قد رأت شيئًا في الغاب سبَّبَ لها نوبة هلع.

هلع. ضاعت الكلمةُ في صدى ذهنها. ماتت صديقتُها حنَّة من الخوف، وما يزال سببُ ذلك الخوف موجودًا في الغاب.

- لا بدَّ أنَّ شيئًا قد وقع يوم الأحد، أليس كذلك؟ - قالت إرين - لا بدَّ أنَّ شيئًا قد وقع...

هزَّ إسماعيل رأسه ببطء. ومن البديهيّ أنَّه فكَّرَ قبلها في الأمر ذاته.

- أو في الليلة السابقة. - اقترح إسماعيل.

نظرت إليه إرين مستغربة.

- في تلك الليلة، كانت حنَّة في كريڤنمور. وفي اليوم التالي، لم يُعثر لها على أثر. إلى أن وُجِدَت ميّتةً في الغاب على الأقلّ. - قال الفتى.

- ماذا تقصد؟

- عرَّجتُ على الغاب. هنالك علامات. أغصانٌ محطَّمة. حصل اشتباك. أحدُهم لاحَقَ حنَّة من الدار.

- من كريڤنمور؟

أومأ إسماعيل ثانيةً.

- علينا أن نعرف ما الذي وقع في اليوم السابق لرحيلها. لعلَّ هذا يُوضِّحُ مَن أو ما الذي طاردها في الغاب.

- وكيف لنا أن نعرف ذلك؟ - قالت إرين - أقصد أنَّ الشرطة...

- لا تخطر في بالي إلّا طريقةٌ واحدة.

- كريڤنمور. - غمغمت.
- تمامًا. هذه الليلة...

*

فتح الغروبُ ثقوبًا بلون النحاس في عباءة السحب الإعصاريّة أثناء عبورها المدى. وكلَّما انبسطت الظلالُ على الخليج، أفرجَ الليلُ عن فسحةٍ خاليةٍ في قبّة السماء، تلوح من خلالها دائرةُ الضوء شبه المكتملة التي تحيط بالقمر الصاعد. كان ضوؤه الفضّيُّ يرسم نسيجًا من الانعكاسات في غرفة إرين. رفعت الفتاةُ للحظةٍ عينيها عن مذكَّرات ألما مالتيس، وتمعَّنَت في الكرة التي تبتسم لها من السماء. أربعٌ وعشرون ساعةً تفصل القمر عن اكتماله. بدرُ الصيفِ الثالثُ. ليلةُ الأقنعة في الخليج الأزرق.

لكنَّ شكلَ القمر في تلك اللحظة اكتسب لديها معنى آخر. فبعد عدَّة دقائق ستذهب إلى موعدها السّرّيّ مع إسماعيل، عند تخوم الغاب. بدت لها آنذاك فكرةُ اجتياز الظلام، والتوغُّل في أعماق كريڤنمور الموحشة، فكرةً متهوِّرة. أو بالأحرى، حماقة. ومن جهةٍ أخرى، كانت في تلك اللحظة تشعر أنَّها عاجزةٌ عن خذلان الفتى، مثلما حدث في الظهيرة، عندما أعرب لها إسماعيل عن نيَّته الذهاب إلى قصر لازاروس يان، للبحث عن إجاباتٍ حول وفاة حنَّة. وحين لم تستطع توضيح أفكارها، استأنفت الفتاةُ قراءةَ مذكَّرات ألما مالتيس ولاذت في صفحاتها.

لا أعرف عنه شيئًا منذ ثلاثة أيَّام. غادر على حين غرَّة

في منتصف الليل، موقنًا بأنَّه إذا ابتعد عنّي فإنَّ الظلَّ سيطارده هو. لم يشأ إخباري إلى أين كان متَّجهًا، لكنّي أظنُّ أنَّه وجد ملاذًا في جزيرة المنارة. لطالما ذهب إلى ذاك المكان المنعزل بحثًا عن السكينة والسلام، لديَّ انطباعٌ أنَّه عاد إلى هناك هذه المرَّة، مثل طفلٍ مذعور، ليواجهَ كابوسه. ورغم ذلك، جعلني غيابُهُ أشكُّ في ما كنتُ متيقَّنةً منه حتّى تلك اللحظة. ففي هذه الأيَّام الثلاثة لم يظهر الظلّ. بقيتُ حبيسة غرفتي، محاطةً بالأضواء، والشموع وقناديل الزيت. لم أترك للظلام مجالًا في أيّ زاويةٍ من زوايا الغرفة. حتّى إنّي كدتُ لا أتمكَّن من النوم.

وبينما أكتب هذ الأسطر، في قلب الليل، أرى من نافذتي جزيرة المنارة وسط الضباب. ضوءٌ يلمع بين الصخور. أعرف أنَّه هو، وحيدًا، محجوزًا في السجن الذي حكم به على نفسه. لم أعد أحتمل البقاء هنا ساعةً أخرى. فإن توجَّبَ علينا أن نواجهَ هذا الكابوس، أريد أن نكون معًا. وإن كُتِبَ علينا الموتُ أثناء المحاولة، فليُلاقِنا الموتُ جنبًا إلى جنب.

لم يعد يهمُّني أن أعيش يومًا أكثر أو أقلّ في هذا الجنون. أنا واثقةٌ أنَّ الظلَّ لن يمنحنا هدنة. لا أستطيع احتمال أسبوعٍ آخر مثل هذا. إنَّني صافية الوعي، وروحي متصالحةٌ مع ذاتها. أصبح خوفُ الأيَّام الأولى مجرَّد إرهاقٍ وإحباط.

في الغد، بينما يحتفل أهالي البلدة بالحفلة التنكُّريّة في الساحة الكبرى، سآخذ قاربًا من الميناء وأتَّجهُ للبحث عنه. لا تهمُّني العواقب. أنا مستعدَّةٌ لقبولها. يكفيني أن أكون بجانبه وأن أساعده حتّى النهاية.

حدسي يُحدِّثُني أنَّه ما زالت أمامنا فرصةٌ لتعود حياتُنا طبيعيّةً، سعيدةً، وهانئة. لا أطمح إلى أكثر من ذلك...

انتزعها ارتطامُ حصوةٍ بالنافذة من القراءة. أغلقت إرين الكتيِّبَ وألقت نظرةً إلى الخارج. كان إسماعيل ينتظرها عند عتبة الغاب. وبينما كانت ترتدي سترةً صوفيّةً ثقيلة، اختبأ القمرُ ببطءٍ بين الغيوم.

*

نظرت إرين من أعلى السلالم بحذرٍ إلى أمِّها. كانت سيمون، مرَّةً أخرى، قد استسلمت للنعاس على أريكتها المفضَّلة، قبالة الباب الزجاجيّ الكبير المطلّ على الخليج. في حضنها كتاب، وما زالت نظَّارةُ القراءة تمتطي أنفها كأنَّه مزلجة. وفي إحدى الزوايا ثمّة مذياعٌ خشبيّ، منقوشٌ بزخارف جامحة على طراز الآرت نوفو، يهمس أحداثًا مريعة من مسلسلٍ بوليسيّ. انتهزت إرين الفرصة، ومرَّت بجانب أمِّها على رؤوس أصابعها، وتسلَّلَت إلى المطبخ المؤدّي إلى الفِناء الخلفيّ لبيت الرأس. استغرقت العمليّةُ برمَّتها أقلّ من خمس عشرة ثانية.

كان إسماعيل ينتظرها في الخارج، مرتديًا سترةً جلديّة، وبنطلون عمل، وجزمةً تبدو أنَّها سافرت إلى القسطنطينيّة وعادت أكثر من ستّ مرَّات. وكانت النسمةُ الليليّةُ تحمل من الخليج ضبابًا خفيفًا وباردًا، ليبسطَ على الغاب إكليلًا من الظلمات المتراقصة.

زرَّت إرين سترتها إلى عنقها وأومأت لنظرة الفتى المتيقِّظة.

ومن دون أن يتبادلا أيَّ كلمة، توغَّلا على الدرب الذي يقطع الحرش. نفقٌ من أصواتٍ خفيّةٍ تسكن ظلالَ الغاب. حفيفُ الأوراق التي ترجرجها الريحُ يطغى على صوت البحر المتلاطم على الصخور. تبعت إرين خطوات إسماعيل. كان وجهُ القمر يتبدّى من حينٍ لحينٍ عابرًا شبكةَ السُّحُب التي تمتطي الخليج، لتُغرِقَ الغابةَ بعتمةٍ طيفيّةٍ مرتعشة. وفي منتصف المسير، أمسكت إرين يد إسماعيل ولم تتركها إلّا حينما تراءى لهما قصرُ كريڤنمور.

توقَّفا بإشارةٍ من الفتى خلف جذعٍ جريحٍ حتّى الموت جرَّاء صاعقة. مزَّقَ القمرُ طبقةَ الغيوم المخمليّةَ بضع ثوانٍ، فأضاءت هالةُ النور واجهةَ كريڤنمور، وأبرزت منحوتاتها النافرة وحوافّها، لتكشف عن صورةٍ باهرةٍ لكاتدرائيّةٍ يكتنفها ظلامُ الغابة الملعونة. تلاشت الرؤيةُ العابرةُ في بئرٍ من العتمة، وتشكَّلَ مستطيلٌ ضوئيٌّ مذهَّبٌ أسفل القصر. لاح جسمُ لازاروس يان عند عتبة المدخل الرئيس. أغلق مخترعُ الألعاب البابَ وراءه وهبط الدرجات ببطء، متَّجهًا إلى الدرب الذي يحاذي الأشجار.

- إنَّه لازاروس. يقوم بجولةٍ في الغاب كلَّ ليلة. - غمغمت إرين.

أومأ إسماعيل واستبقى الفتاة، وعيناه مُركَّزتان على مبتكر الألعاب وهو يسير نحو مشارف الغاب، باتِّجاههما. ألقت إرين نظرةً استفهاميّةً إلى إسماعيل. زفر الفتى ونظر حوله بعصبيَّة. سمعا خطوات لازاروس. أمسك إسماعيل ذراعَ إرين وسحبها إلى داخل جذع الشجرة الميّت.

- من هذه الجهة. بسرعة. - همس.

كان جذعُ الشجرة مفعمًا برائحةٍ قويّةٍ من الرطوبة والعفن. تسرَّبَ الضياءُ الخارجيُّ عبر فتحاتٍ صغيرةٍ في الخشب، ورسم سلَّمًا مفاجئًا ومُشكَّلًا من عتباتٍ ضوئيّةٍ تصعد في الجذع المجوَّف. أحسَّت إرين بوخزةٍ في معدتها. لاحظت فوق رأسها بمترين سلسلةً من نقاطٍ صغيرةٍ ومضيئة. عيون. كادت تفلت من حنجرتها صرخةٌ مدوّية، لكنَّ إسماعيل استبقها. اختنقت الصرخةُ في الحنجرة، في حين ما زال إسماعيل يستبقيها.

- مجرَّد خفافيش! حافظي على هدوئكِ! حبًّا بالربّ! - غمغم بينما كان لازاروس يمرُّ بجانب الجذع، باتِّجاه الغاب.

استطاع إسماعيل، بحنكته، أن يُبقي على إرين ساكتةً إلى أن ابتعدت خطواتُ مالك كريڤنمور. تحرَّكت أجنحةُ الخفافيش الخفيّة في الظلام. شعرت إرين بهواءٍ ينفح وجهها، مشبعًا برائحة الحيوانات الحادّة.

- ظننتُ أنَّكِ لا تخافين من الخفافيش... - قال إسماعيل - هيّا بنا.

لحقت به إرين إلى حديقة كريڤنمور، نحو الجانب الخلفيّ من القصر. وكلَّما تقدَّمت خطوةً، ردَّدَت في نفسها أنَّه لا أحد في الدار، وأنَّ إحساسَها بأنَّها تحت المراقبة هو مُجرَّد إيهامٍ من ذهنها.

وصلا إلى الجناح الملاصق لمصنع الألعاب القديم، وتوقَّفا عند باب ما بدا أنَّها ورشة أو غرفة تجميع. أخرج إسماعيل سكِّينًا وبثق نصلها. التمع انعكاسُ النصل في الظلمة. أدخل الفتى رأسَ السكّين في القفل وتحسَّسَ آليَّته بتركيز.

- تنحَّي جانبًا. يلزَمني مزيدٌ من الضوء.

تراجعت إرين بضع خطوات، وتقصَّت في الظلام المهيمن على مصنع الألعاب من الداخل. الزجاج مُغبَّشٌ بسبب أعوامٍ من الهجران، ومن المستحيل أن تتبيَّنَ ما الذي يوجد في الجهة الأخرى.

- هيّا، هيّا... - غمغم إسماعيل في نفسه، وهو يحاول فتحَ القفل.

نظرت إليه إرين وأسكتت صوتًا داخليًّا يُحدِّثُها بأنَّ اقتحام ممتلكاتٍ خاصّة بطريقةٍ غير مشروعة ليست فكرةً سديدة. ارتخى القفلُ أخيرًا بطقطقةٍ خافتة للغاية. أضاءت الابتسامةُ وجهَ إسماعيل. وانفتح البابُ سنتمترين.

- ولا أسهل. - قال وهو يدفعه برفق.

- فلنستعجل. - أضافت إرين - لن يطيل لازاروس جولته كثيرًا.

دخل إسماعيل. سحبت إرين نفسًا عميقًا وتبعته. كان الداخلُ مغمورًا بضباب الغبار الكثيف والعالق في ضياءٍ واهنٍ يتماوج مثل سحابة بخار. ورائحةُ منتجاتٍ كيميائيّةٍ متعدِّدة تتسيَّدُ الأجواء. أغلق إسماعيل البابَ خلفه، فوجد الاثنان نفسيهما قبالة عالمٍ من ظلالٍ عصيّةٍ على الفهم. فما تبقّى من مصنع ألعاب لازاروس يرزح تحت العتمة، غارقًا في سباتٍ عميق.

- لا أرى شيئًا. - غمغمت إرين، وهي تكبت لهفتها للخروج من هناك بأسرع ما يمكن.

- علينا أن ننتظر قليلًا حتّى تعتاد أعيننا الظلام. مسألة ثوانٍ.
- اقترح إسماعيل ولم يكن مقتنعًا كفاية.

مرَّت الثواني عبثًا. إذ لم تتبدَّد عباءةُ العتمة التي تكتنف مصنع لازاروس. حاولت إرين أن تتكهَّنَ مسارًا تتقدَّمُ فيه، فإذا عيناها تصطدمان بجسمٍ منتصبٍ ومُتسمِّرٍ على بُعد أمتارٍ عنها.

انقضَّ تشنُّجُ الذعر على بطنها.

- ثمّة أحدٌ غيرنا هنا يا إسماعيل. - قالت وتشبَّثت بذراع الفتى بقوَّة.

حدَّقَ إسماعيل في الظلام وابتلع ريقه. جسمٌ ذو ذراعين مبسوطتين يتمايل مُعلَّقًا. كان يتأرجح ببطء، مثل بندول، وشعره الطويل منسابٌ على كتفيه. تلمَّسَ الفتى جيبَ سترته بيدين مرتجفتين، وأخرج علبة أعواد ثقاب. ما زال الجسمُ على حاله، مثل تمثالٍ حيٍّ متأهِّبٍ للوثوب عليهما ما إن يشتعلَ ضوء.

أشعل إسماعيل عودَ ثقاب فأعشاهما بريقه أوَّلَ لحظة. فتشبَّثَت إرين بذراعه أكثر.

وبعد ثانيتين، انتزعت الرؤيةُ التي ظهرت أمام عينيها قواها. اجتاحتها هبَّةُ بردٍ كثيفة. تجسَّدَ أمامها جسمُ أمِّها، مُتدلّيًا من السقف ومبسوط الذراعين. سيمون، تتمايل على ضوء الشعلة الخافق.

- يا إلهي...

دار الجسمُ ببطءٍ حول نفسه ليكشفَ عن جانبه الآخر وما يحتويه من أسلاكٍ ومُسنَّنات تلمع في الضياء الذاوي. كان الوجهُ مقسومًا نصفين، أحدهما مُنجَز والثاني قيد الإتمام.

- هذه آلة، مجرَّد آلة. - قال إسماعيل، محاولًا أن يُهدِّئَ من روعها.

أمعنت إرين النظرَ في النسخة المريعة لسيمون. قسماتُها. لونُ عينيها، شعرُها. كلُّ تجعيدةٍ في بشرتها. كلُّ أثرٍ من وجهها، منسوخٌ على شكل قناعٍ رهيبٍ يخلو من التعابير.

- ما الذي يحدث هنا؟ - سألت.

أشار لها إسماعيل إلى ما بدا أنَّه بابٌ لمدخل الدار من الطرف الآخر من الورشة.

- من تلك الجهة. - اقترح وأبعَدَ إرين عن الجسم المشؤوم والمعلَّق في الفراغ.

تبعته الفتاةُ، مرتبكةً ومذعورة، وما زالت تحت تأثير تلك الرؤية.

انطفأت شعلةُ إسماعيل بعد لحظات، فالتفَّ بهما الظلامُ من جديد.

دخلا من الباب المؤدّي إلى الدار، فتفتَّحُ الظلُّ خلفهما مثل زهرةٍ سوداء، مكتسبًا كثافةً كبرى ليتفشّى على الجدران. اتَّجه الظلُّ نحو طاولة العمل في الورشة واخترق أثرُهُ الداكنُ الغطاءَ الأبيضَ الذي يخفي جسمَ الملاك الآليّ الذي أظهره لازاروس لدوريان في ليلة الأمس. تسلَّلَ الظلُّ ببطءٍ تحت الغطاء، وولجت كتلتُهُ البخاريّةُ في وصلات الهيكل الآليّ.

اختفى طيفُ الظلّ كلّيًّا داخل ذلك البنيان المعدنيّ. انبعث بخارٌ جليديٌّ من المخلوق الآليّ ليُشكِّلَ شبكةً عنكبوتيّةً متجمِّدة.

ثمَّ انفتحت عينا الملاك شيئًا فشيئًا في الظلمة، كالسبج المتوهِّج من تحت الغطاء.

نهض الهيكلُ العملاقُ ببطء، وفرد جناحيه. أسند قدميه إلى الأرض رويدًا رويدًا. خدَّشت مخالبُهُ سطحَ الخشب، وخلَّفَت فيه أثرًا لها. قبض الضوءُ الأزرقُ، الذي كان يتماوج في الهواء، على دوَّامة الدخان المتصاعد من عود الثقاب المطفأ الذي رماه إسماعيل. اجتازه الملاكُ والتحمَ في الظلمات، متتبِّعًا خطوات الفتيين.

9. الليلةُ المتحوِّلة

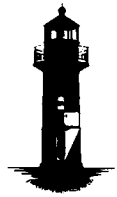

انتزعت أصداءُ الطقطقة البعيدة واللجوجة سيمون من حلمها الزاخر بالألوان المائيّة المتراقصة والأقمار الملتحمة بعملاتٍ فضّيّةٍ مُتوهِّجة. سمعت الصوتَ ثانيةً، لكنَّها في هذه المرَّة استيقظت كلّيًّا وأدركت أنَّ النعاسَ قهر نيَّتَها بقراءة فصلٍ آخر قبل منتصف الليل. وبينما كانت تمسك النظَّارة، سمعت الصوتَ من جديد، واستطاعت تحديده للمرَّة الأولى. كان أحدهم ينقر ببراجم يده على النافذة الكبيرة المطلّة على الترّاس. نهضت سيمون وعرفت وجهَ لازاروس الباسمَ من الجانب الآخر للزجاج. وسرعان ما شعرت بتضرُّج خدَّيها. فتحت البابَ الزجاجيَّ ونظرت إلى صورتها في مرآة المدخل. كارثة.

- مساء الخير، سيِّدة سوفيل. لعلَّ الوقتَ غيرُ مناسب... - قال لازاروس.

- إطلاقًا. أنا... في الحقيقة كنتُ أقرأ وغفوتُ.

- هذا يعني أنَّه ينبغي أن تُبدِّلي الكتاب. - علَّقَ لازاروس.

- أعتقد ذلك. ولكن، تفضَّلْ بالدخول.

- لا أريد إزعاجكِ.

- ما هذا الكلام؟ تفضَّلْ، أرجوك.

أومأ لازاروس موافقًا ودخل إلى البيت. مسحت عيناه الغرفةَ بسرعة.

- لم يشهد بيتُ الرأس حالًا أفضل من قبل. - لاحظ - تهانينا.

- هذا بفضل إرين. فهي مهندسة الديكور في العائلة. فنجان شاي؟ قهوة؟

- فنجان شاي سيكون رائعًا، ولكن...

- لا أودُّ سماع كلمةٍ أخرى. سيكون رائعًا بالنسبة إليَّ أيضًا.

تلاقت نظراتهما للحظة. ابتسم لازاروس بدفء. أخفضت سيمون عينيها، وقد باغتها الحياء، وركَّزَت على تحضير الشاي.

- لعلَّكِ تتساءلين عن سبب زيارتي. - بادَرَ مخترعُ الألعاب.

كانت سيمون في الواقع تتساءل عن ذلك قبل أن يبلغها صوتُ لازاروس بثوانٍ.

- إنَّني في كلّ ليلةٍ أقوم بجولةٍ في الغاب، حتّى الأجراف. فهذا يساعدني على الاسترخاء.

ساد صمتٌ يتخلَّله صوتُ الماء في الإبريق.

- هل سمعتِ عن الحفلة التنكُّريّة السنويّة في الخليج الأزرق، سيِّدة سوفيل؟

- بدر أغسطس الأخير. . . - تذكَّرت سيمون.

- تمامًا. كنتُ أتساءل. . . حسنًا، آملُ ألّا يُشعِرَكِ طلبي بالحرج، وإلّا لن أسمح لنفسي بتوجيهه إليكِ، آمل أن أكون واضحًا. . .

كان لازاروس متوتِّرًا مثل صبيٍّ مراهق. ابتسمت له سيمون ابتسامةً صافية.

- كنتُ أتساءل ما إذا كان يسرُّكِ أن ترافقيني إلى الحفلة هذه السنة. - اختتم الرجلُ طلبه أخيرًا.

ابتلعت سيمون ريقها. وانطفأت ابتسامةُ لازاروس شيئًا فشيئًا.

- متأسِّف. ما كان ينبغي أن أطالبكِ بهذا. أرجوكِ أن تقبلي اعتذاري. . .

- بسُكَّر أم من دون سُكَّر؟ - قاطعته سيمون بنبرةٍ لطيفة.

- عفوًا؟

- الشاي. بسُكَّر أم من دون سُكَّر؟

- ملعقتان صغيرتان.

أومأت سيمون ووضعت ملعقتين من السكَّر، ثمَّ أعطت الفنجانَ للازاروس وابتسمت له.

- ربّما ضايقتكِ بطلبي. . .

- على الإطلاق. كلُّ ما في الأمر أنّي لستُ معتادةً تلقّي طلبات مواعدة. ولكن، يسرُّني الذهاب مع حضرتك إلى تلك الحفلة الراقصة. - أجابت المرأة، متفاجئةً هي نفسها من قرارها.

أضاءت ابتسامةٌ عريضةٌ وجهَ لازاروس. وأحسَّت سيمون للحظةٍ أنَّها أصغر بثلاثين عامًا. إحساسٌ غامض، يتراوح بين الرفعة والسخف. إحساسٌ مُبهِجٌ على نحوٍ خطير. إحساسٌ أقوى من الحذر، والتعقُّل، والندم. كانت قد نسيت كم يواسيها أن تشعرَ بأنَّ أحدًا مّا يهتمُّ لأمرها.

أكملا المحادثة في ترّاس بيت الرأس. كانت النسمةُ البحريّةُ تهزُّ القناديل الزيتيّة المعلَّقة على الجدران. وكان لازاروس، جالسًا على السياج الخشبيّ، ينظر إلى رؤوس الأشجار المتمايلة في الغاب، أمام بحرٍ أسودَ وهامس.

أمعنت سيمون النظر في وجه مخترع الألعاب.

- تسرُّني معرفة أنَّكم مرتاحون في البيت. - قال لازاروس - كيف يتأقلم ابناكِ مع الحياة في الخليج الأزرق؟

- لا أشتكي. بل على العكس. وفي الواقع يبدو أنَّ إرين صاحبت أحد فتية البلدة. اسمه إسماعيل. هل تعرفه؟

- إسماعيل... أجل، طبعًا. فتىً طيِّب، على حدّ علمي. - قال لازاروس متحفِّظًا.

- آمل ذلك. وبكلّ الأحوال، ما زلتُ أنتظر أن تُقدِّمَه إرين إليّ.

- الشباب هكذا. ينبغي أن نضع أنفسنا مكانهم... - اقترح لازاروس.

- أعتقد أنَّني أفعل كبقيّة الأمَّهات: أجدني مُضحِكةً حين أحاول صون ابنتي وهي في الخامسة عشرة من عمرها.

- هذا طبيعيٌّ جدًّا.

- لا أعرف إن كنتَ تجدني كذلك أنت أيضًا.

ابتسم لازاروس، لكنَّه لم يقل شيئًا.

- ماذا تعرف عنه؟ - سألت سيمون.

- عن إسماعيل؟ حسنًا، القليل... - أجاب - أعرف أنَّه بحَّارٌ ماهر. يقال إنَّه فتىً انطوائيٌّ ومُقِلٌّ في صداقاته. ولكنّي، للأمانة، لستُ مطَّلعًا على أحوال البلدة بما فيه الكفاية... على أنّي لا أعتقد أنَّ الأمر يستدعي القلق.

*

كان صوتهما يتسلَّقُ إلى نافذة دوريان، مثل لوالب دخانٍ متصاعدةٍ من سيجارةٍ لم تنطفئ جيِّدًا، بشكلٍ مُتقلِّبٍ ومُتعرِّج، فمن المستحيل أن يتجاهله. همهمةُ البحر بالكاد تُغطّي على كلام أمِّه ولازاروس في الترّاس، مع أنَّه تمنّى للحظةٍ ألّا تتناهى تلك المحادثةُ إلى مسمعه. ثمّة شيءٌ يُقلِقُه في كلّ نبرة، في كلّ عبارة. شيءٌ لا يقوى على تعريفه، ويبدو أنَّه يضفي سمته الغامضة على كلّ انعطافةٍ في المحادثة.

ربّما عاد السببُ إلى سماع أمِّه تتكلَّم بأريحيّةٍ مع رجلٍ ليس بوالده، على الرغم من أنَّ هذا الرجل هو لازاروس، الذي رغب دوريان في أن يكون صديقه. وربّما بسبب الحميميّة التي صبغت كلمات كليهما. وربّما، قال لنفسه في النهاية، هي مجرَّد الغيرة، والتعنُّت الغبيّ بألّا تستمتعَ أمُّه بالمحادثة وجهًا لوجهٍ مع رجلٍ راشدٍ آخر. وهذا طبع الأنانيّة. الأنانيّة والجور. فسيمون، فضلًا

عن كونها والدته، هي امرأةٌ من لحمٍ وعظم في نهاية المطاف، تحتاج إلى الصداقة، وإلى رفقة شخصٍ آخر غير ابنيها. أيُّ كتابٍ جدير بهذه التسمية يؤكِّدُ ذلك بكلّ وضوح. راجع دوريان المظهرَ النظريَّ لهذه الحُجَّة. بدت له نموذجيّة. إلّا أنَّ المشكلة تكمن في تطبيقها.

اقترب دوريان من النافذة باستحياء، من دون أن يشعلَ ضوءَ الغرفة، وألقى نظرةً خاطفةً نحو الترّاس. «أنانيٌّ، وفوق هذا مُتلصِّص» - همس صوتٌ في باطنه. تخفَّى دوريان في زاوية الظلمة المريحة، وتمعَّنَ في ظلّ أمِّه المرسوم على أرض الترّاس. لازاروس، واقفًا على قدميه، يتأمَّلُ البحرَ بكتلته السوداء الكثيفة. ابتلع دوريان ريقه. هزَّت النسائمُ الستائرَ التي تحجبه، فتراجع لاإراديًّا إلى الخلف. نطق صوتُ أمِّه ببضع كلماتٍ لم يفهمها. استنتج أنَّ هذا ليس من شأنه، واعتراه الخزيُ لأنَّه تلصَّصَ وتنصَّت.

هَمَّ بالابتعاد عن النافذة، فإذا هو يلمح بطرف عينه حركةً في العتمة. التفت دوريان بحدّة، وأحسَّ أنَّ شعره يقشعرُّ من الهلع. الغرفة غارقةٌ في ظلام تُحزِّزُهُ بقايا ضياء أزرق يتسرَّبُ من بين الستائر المتمايلة. تلمَّسَت يدُهُ الدُّرجَ، بحذرٍ شديد، بحثًا عن زرّ المصباح. كان الخشبُ باردًا. استغرقت أصابعُه بعضَ الوقت للوصول إلى الزرّ. وحين كبسه، أُضيءَ جوفُ المصباح المعدنيُّ بنورٍ وامضٍ سرعان ما انطفأ ذاويًا. أعماه البريقُ البخاريُّ لجزءٍ من الثانية، ثمَّ عاد الظلامُ كثيفًا، كبئرٍ عميقةٍ من ماءٍ قاتم.

«احترق المصباح - حدَّثَ نفسه - وهذا شيءٌ عاديّ. لأنَّ

المعدن الذي يُصنَعُ منه سلكُ التوهُّج، الولفراميوم، عمره قصير» - هكذا علَّموه في المدرسة.

تلاشت هذه الأفكارُ المطمئنةُ بأكملها عندما لمح دوريان، مرَّةً أخرى، الحركةَ في الظلّ. أو، للدقّة، حركة الظلّ.

شعر بموجة بردٍ عندما انتبه إلى طيفٍ بدا أنَّه يتحرَّكُ في الظلام، أمامه. تشكَّلُ الطيفُ الأسودُ والغَبِشُ في منتصف الغرفة. «إنَّه يراقبني» - همس الصوتُ في ذهنه. بدا أنَّ الظلَّ يتقدَّمُ في العتمة، وأدرك دوريان أنَّ الأرضَ لا تهتزُّ تحت قدميه، إنّما ركبتاه اللتان ترتجفان رعبًا إزاء ذلك الشكل الطيفيّ القاتم الذي يدنو خطوةً في إثر خطوة.

تراجع دوريان بضعة أمتار حتّى أضفى عليه الضياءُ الطفيفُ المتسرِّبُ من النافذة هالةً من نور. توقَّفَ الظلُّ عند عتبة الظلام. أحسَّ دوريان أن أسنانه ستصطكُّ لكنَّه ضغط فكَّيه بشدّة ولجَمَ رغبتَه في إغماض عينيه. وفجأةً خُيِّلَ إليه أنَّه يسمع كلمات. واستغرق بعض الوقت ليستوعبَ أنَّه هو الذي كان ينطقها. بنبرةٍ جامدة لا أثر للخوف فيها. مكتبة سُر مَن قرأ

- اخرج من هنا. - غمغم دوريان باتِّجاه الظلال - قلتُ اخرج.

سمع صوتًا مخيفًا حينئذ، صوتًا يُشكِّلُ أصداء قهقهةٍ بعيدة، قاسية وشرّيرة. أطلَّت قسماتُ الظلّ في تلك اللحظة من العتمة كأنَّها سرابٌ من ماء السبج. سوداء. شيطانيّة.

- اخرج من هنا. - سمع دوريان نفسه يُردِّدُ ذلك.

تبدَّدَ الشكلُ البخاريُّ الأسودُ تحت عينيه، وقطع الظلُّ الغرفةَ بسرعةٍ مذهلة، مثل غيمةٍ من غازٍ محترق، حتّى وصل إلى الباب. وهناك شكَّلَ الطيفُ دوَّامةً خياليّةً اندسَّت في ثقب القفل، كزوبعةٍ من ظلامٍ تمتصُّها قوَّةٌ عنيدةٌ وخفيّة.

وفي تلك اللحظة أُضيءَ جوفُ المصباح مجدَّدًا، وعمَّ الغرفةَ ضياءٌ دافئ. انتزعت منه فرقعةُ الضوء الكهربائيّ المباغتةُ صرخةَ فزعٍ خنقها في حنجرته. فتَّشَت عيناه كلَّ زاويةٍ في الغرفة، فلم يجد أثرًا لما ظنَّ أنَّه رآه يتجلّى أمامه قبل ثوانٍ.

تنفَّسَ دوريان بعمق واتَّجه نحو الباب. وضع يده على المقبض. المعدن باردٌ كالجليد. تسلَّحَ بالعزيمة وفتح البابَ وتبصَّرَ في ظلال الممرّ. لا شيء.

أغلق بابَ الغرفة برفق وعاد إلى النافذة. كان لازاروس، في الأسفل، في الترّاس، يُودِّعُ والدته. وقبل أن ينصرف، انحنى مبتكرُ الألعاب ولثَمَ خدَّها. فشعر دوريان أنَّ معدته تنكمش لتغدو بحجم حبَّة بازلاء. ثمَّ رفع الرجلُ عينيه وابتسم له. فتجمَّدَ الدمُ في عروقه.

ابتعد مخترعُ الألعاب ببطءٍ نحو الغاب، تحت ضوء القمر. حاول دوريان أن يُحدِّدَ انعكاسَ ظلّ لازاروس لكنَّه لم ينجح. وسرعان ما ابتلعه الظلام.

*

بعد أن اجتازا ممرًّا طويلًا يصل مصنعَ الألعاب بالدار، ولج إسماعيل وإرين في أعماق كريثمور. بدا مقرُّ إقامة لازاروس،

تحت عباءة الليل، قصرَ ظلمات، وممرَّاتُهُ - المأهولةُ بعشرات المخلوقات الآليّة - تمتدُّ نحو العتمة في كلّ الاتِّجاهات. وكان الضوءُ الذي يعتلي المعراجَ اللولبيَّ وسط المقام يتبعثر كمطرٍ ذي انعكاساتٍ أرجوانيّةٍ ومذهَّبةٍ وزرقاء، تتردَّدُ داخل كريڤنمور، مثل فقاعاتٍ هاربةٍ من مشكال.

كانت أجسامُ الآلات الذاتيّة التشغيل، والوجوهُ الجمادُ على الجدران، غافيةً بما ينمُّ عن سحرٍ غريبٍ خطف أرواحَ العشرات ممّن سكنوا الدار في السابق. هكذا بدت في عين إرين. أمّا إسماعيل فكان أكثر عقلانيّةً، لم يرَ في تلك الاختراعات سوى انعكاسٍ لذهنيّة مخترعها المتاهيّة والمبهمة. غير أنَّ هذا لم يطمئنه على الإطلاق؛ بل على العكس، كلَّما توغَّلَ في مجالات لازاروس يان الخاصّة، بدا له الحضورُ الخفيُّ لصانع الألعاب طاغيًا أكثر ممّا مضى. لشخصيَّته وجودٌ في كلّ تفصيلٍ دقيقٍ من ذلك المبنى الباروكيّ: في السقف طاقٌ مرسومٌ بمشاهد من الحكايات الخرافيّة الشهيرة، وفي الأرض رقعةُ شطرنج شاسعةٌ تُكوِّنُ شبكةً مُشتِّتةً للذهن وخدَّاعةً للعين ولها تأثيرٌ بصريٌّ غريبٌ يوحي بعمقٍ لا نهاية له. المشيُ في كريڤنمور كان بمثابة التوغُّل في حلمٍ مُسكِرٍ ومُروِّعٍ في الآن ذاته.

توقَّفَ إسماعيل عند عتبة أحد السلالم، وتحرّى الصعودَ اللولبيّ إلى الأعلى بإمعان. في حين لاحظت إرين أنَّ وجهَ إحدى ساعات لازاروس الآليّة، على شكل شمس، كان يفتح عينيه ويبتسم. وفي اللحظة التي بلغت فيها العقاربُ منتصفَ الليل، دارت الكرةُ حول نفسها، وأفسحت الشمسُ مكانها لقمرٍ

يشعُّ بضوءٍ شبحيّ. وكانت عينا القمر الداكنتان والمتلألئتان تدوران ببطءٍ من جانبٍ إلى آخر.

- فلنصعد. - غمغم إسماعيل - غرفة حنَّة في الطابق الثاني.

- هنا عشرات الغرف يا إسماعيل. كيف سنُميِّزُ غرفتها؟

- حنَّة قالت لي إنَّ غرفتها في آخر أحد الممرّات، قبالة الخليج.

أومأت إرين، مع أنَّ كلامه لم يقنعها. كان الفتى يبدو مذهولًا مثلها من أجواء المكان، ولن يقرَّ بذلك حتّى بعد مئة عام. ألقى كلاهما نظرةً أخيرةً إلى الساعة.

- إنَّها منتصف الليل. سيعود لازاروس بعد قليل. - قالت إرين.

- هيّا بنا إذًا.

كان السلَّمُ يرتقي في لولبٍ بيزنطيٍّ يتحدَّى قانونَ الجاذبيّة، بتقوُّسِهِ التدريجيّ الشبيه بمسالك الوصول إلى قبّة كاتدرائيَّةٍ ضخمة. اجتازا مستراح الطابق الأوَّل، تراودهما دوخةُ الصعود. أمسك إسماعيل يد إرين وواصلا الصعود. أصبح انحناءُ الجدران أشدَّ حدَّةً، وتحوَّلَ العبورُ شيئًا فشيئًا إلى مريءٍ محفورٍ في الحجر، يُسبِّبُ الرهابَ من الأماكن الضيّقة.

- كدنا نصل. - قال الفتى وهو يقرأ صمتَ إرين المحزن.

وبعد أبديّةٍ لا تنتهي - تقارب الثلاثين ثانية في الحقيقة - استطاعا الخروج من ذلك المسلك المنحني والخانق، وبلغا بابَ مدخل الطابق الثاني في كريڤنمور. انفتح أمامهما الممرُّ الرئيسُ

في الجناح الشرقيّ. وكان قطيعٌ من الصور المتحجِّرة يتربَّصُ بهما في الظلام.

- من الأفضل أن ننفصل. - نصح إسماعيل.

- كنتُ أعلم أنَّك ستقولها.

- بالمقابل، قرِّري أنتِ أيّ الجانبين ترغبين في استكشافه.

- اقترح إسماعيل، في محاولةٍ منه لإضفاء الدعابة.

نظرت إرين إلى كلا الجهتين. في الجهة الشرقيّة ثلاثةُ أجسام مُقنَّعة حول قِدرٍ كبيرة: ساحرات. فأشارت الفتاةُ إلى الجهةً المعاكسة.

- ذاك الجانب.

- إنَّها مُجرَّد آلات يا إرين. - قال إسماعيل - ليس فيها حياة. ألعابٌ بسيطة.

- قل ذلك في الصباح.

- حسنًا، أنا سأستكشف هذا الجانب. نلتقي هنا خلال خمس عشرة دقيقة. وإن لم نجد شيئًا فهذا من سوء حظّنا. ننسحب. أعدكِ بهذا.

أومأت. أعطاها إسماعيل علبة أعواد الثقاب.

- تحسُّبًا.

وضعتها إرين في جيب سترتها ووجَّهت نظرةً أخيرةً إلى إسماعيل. انحنى الفتى ولثم ثغرها.

- حظًّا موفَّقًا. - غمغم.

وابتعد نحو طرف الممرّ المدفون في الظلام، قبل أن تجيبه. فقالت إرين في سرِّها: «حظًّا موفَّقًا».

ضاع صدى خطواته خلف ظهرها. سحبت إرين نفسًا عميقًا وتقدَّمَت نحو الطرف الآخر من الممرّ الذي يقطع محورَ الدار المركزيَّ، ليتشعَّبَ بعد ذلك عند المعراج الكبير. أطلَّت إرين إلى تلك الهاوية التي تهبط حتّى الطابق الأرضيّ. كانت حزمةٌ ضوئيّةٌ تسقط عموديًّا ممّا يشبه المنور المفتوح في قمّة القبَّة، لترسم قوسَ قزحٍ يُحزِّزُ الظلمات.

ومن تلك النقطة يغوص الممرُّ في اتِّجاهين: نحو الجنوب، ونحو الغرب. الجناحُ الغربيُّ هو الوحيد الذي يشرف على الخليج. توغَّلَت إرين في الممرّ الطويل بلا تردُّد، لتترك وراءها ضياءَ المنور المطمئن. انتبهت فجأةً لوجود حجابٍ شبه شفَّاف يقطع المرور: مُجرَّد ستارةٍ من شاش، يتَّخذ الممرُّ من بعدها ملمحًا مغايرًا. لم يعد هنالك أيُّ جسمٍ مُتسمِّرٍ في الظلام. ثمَّة حرفٌ مطرَّزٌ على الإكليل الذي يُثبِّتُ الستارةَ الفاصلة: «A».

أزاحت إرين بأصابعها حجابَ الستارة، واجتازت ذلك الحدَّ الغريب الذي بدا أنَّه يقسم الجناحَ الغربيَّ قسمين. نفحت نسمةٌ باردةٌ وخفيَّةٌ وجهها، وأدركت الفتاةُ للمرَّة الأولى أنَّ الجدران مكسوَّةٌ بشبكةٍ مُعقَّدةٍ من المنحوتات النافرة والمنقوشة في الخشب. رأت من هناك ثلاثة أبواب فقط. بابان على جانبي الممرّ، والثالث - الأكبر - في نهايته، مميَّزٌ بالحرف نفسه الذي رأته على الستارة قبل قليل.

سارت إرين ببطءٍ نحو ذلك الباب. كانت النقوشُ المحيطةُ به تعرض مشاهد غير مفهومة، تُجسِّدُ كائناتٍ غريبة. وكلُّ واحدٍ منها يصطفُّ بدوره إلى جانب أخريات، لتُكوِّنَ بحرًا من التصاوير

الهيروغليفيّة التي لم تفهم معنى أيٍّ منها. وحين وصلت إلى الباب في نهاية الممرّ، فكّرت أنّه من غير الوارد أن تشغلَ حنَّة غرفةً هناك تحديدًا. ورغم هذا، كان سحرُ المكان أعتى من الأجواء المشؤومة التي يشي بها كأنّه ضريحٌ محظور. خُيِّلَ إليها أنَّ حضورًا حادًّا يتأرجح في الهواء. حضورٌ يكاد يكون ملموسًا.

شعرت إرين بتسارعٍ في نبضها، ووضعت يدها المرتجفة على مقبض الباب. أوقفها شيءٌ مّا. حدس. ما زال هناك وقتٌ للعودة إلى الوراء، والوصول إلى إسماعيل، واللوذ بالفرار من تلك الدار قبل أن يلحظ لازاروس تسلُّلهما. دار المقبضُ برفقٍ بين أصابعها، وانزلق على جلد كفِّها. أغمضت إرين عينيها. لا يوجد سببٌ للدخول. كان يكفيها أن ترجعَ من حيث أتت. لا يوجد سببٌ للتسليم لذلك الجوّ الخياليّ، المناميّ، الذي يغريها بفتح الباب واجتياز تلك العتبة بلا عودة. فتحت الفتاةُ عينيها.

كان الممرُّ يعرض عليها دربًا للهروب بين الظلمات. زفرت إرين، وهامت نظرتُها في الانعكاسات التي تصبغ الشاش. وحينئذٍ تبدّى طيفٌ داكنٌ خلف الستارة وتوقَّفَ في الجانب الآخر.

- إسماعيل؟ - غمغمت.

بقي الطيفُ هناك بضع ثوانٍ، ثمَّ اختفى بين الظلال مثلما ظهر، دون أن يُصدِرَ أيَّ نأمة.

- أهذا أنت يا إسماعيل؟ - سألت الفتاةُ مجدَّدًا.

تغلغل سمُّ الفزعِ البطيءُ في عروقها. فتحت بابَ الغرفة، دون أن تحيد أنظارها عن تلك النقطة، ودخلت وأغلقته خلف

ظهرها. أعشاها الضوءُ الياقوتيُّ المتسرِّبُ من النوافذ الكبرى، الطويلة والضيِّقة، لبرهةٍ قصيرة. وبينما كانت حدقتاها تعتادان الإضاءةَ المتبدِّدة، استطاعت أن تشعلَ أحد أعواد الثقاب بيديها المرتجفتين. ساعدها ضوءُ الشعلةِ النحاسيُّ على كشف صالةٍ فخمةٍ وفاخرة، تمتاز بأبَّهةٍ وروعةٍ خارجتين من صفحات حكايةٍ خرافيّة.

السقفُ متاهةٌ خشبيّةٌ تتضمَّنُ دوَّامةً باروكيّةً تهبُّ في وسط الغرفة. في أحد الأطراف سريرٌ يُظلِّلُهُ سرادق عجيب، تتدلّى منه ستائرُ طويلةٌ ومذهَّبة. وفي وسط الغرفة طاولةٌ من مرمر، تعتليها رقعةُ شطرنج كبيرة، صُنِعَت حجارتُها من الكريستال المُخرَّم. وفي الطرف الثاني اكتشفت إرين منبعًا آخر لتلك الإضاءة التي تساهم في خلق ذلك الجوّ القزحيّ: فاهٌ مجوَّفٌ لمدفأةٍ أُحيلَ ما فيها من جذوعٍ غليظةٍ مشتعلةٍ إلى جمر. وفوق المدفأة عُلِّقَت لوحةٌ كبيرة. وجهٌ أبيض، تقاسيمُه أنعمُ ممّا يمكن تخيُّلُهُ على وجهٍ بشريّ، يحيط بعينين عميقتين وحزينتين لامرأةٍ ذات جمالٍ مؤثِّر. تراءت المرأةُ في الصورة مرتديةً ثوبًا أبيض طويلًا، وفي الخلفيّة جزيرةُ منارة الخليج.

اقتربت إرين من الصورة ببطء، رفعت عود الثقاب عاليًا حتّى ألهبت الشعلةُ أصابعَها. لعقت منطقةَ الحرق، ولاحظت وجودَ شمعدانٍ على مكتب. لم تكن في حاجةٍ ماسّةٍ إليه، لكنَّها أشعلت الشمعةَ بعود ثقابٍ آخر. فأشعَّت الشعلةُ بهالة ضياءٍ حولها ثانيةً. ثمّة كتابٌ ذو غلافٍ جلديّ، مفتوحٌ من نصفه، على المكتب.

حدَّدَت عينا إرين الخطَّ الذي كان مألوفًا لديها، على الورق

الخشن، تحت طبقة غبارٍ تُكدِّرُ قراءة الكلمات المكتوبة على الصفحة. نفخت الفتاةُ برفق، فتبعثرت غيمةً من آلاف الجزيئات البرَّاقة على الطاولة. أخذت الكتابَ بيديها وقلَّبته حتّى وصلت إلى صفحته الأولى. قرَّبته من الضوء فجالت عيناها على الكلمات المطبوعة بأحرفٍ فضّيّة. وكلَّما كانت تتبيَّنُ معنى ذلك كلِّه، اقشعرَّت رقبتُها بحدّة كأنّما غُرِسَت فيها إبرةٌ متجمِّدة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ألكساندرا ألما مالتيس

لازاروس جوزيف يان

١٩١٥

تفرقعت قطعةُ خشبٍ في النار، فبصقت شررًا صغيرًا تلاشى عند ملامسته الأرض. أغلقت إرين الكتابَ ووضعته على المكتب. انتبهت في تلك اللحظة أنَّ هناك أحدًا يراقبها، من خلف ستارة السرادق المتمايلة، في الطرف الثاني من الغرفة. جسمٌ هزيلٌ ملقى على السرير. امرأة. تقدَّمَت إرين بضع خطوات نحوها. رفعت المرأةُ يدها.

- ألما؟ - همست إرين، مذعورةً من نبرة صوتها نفسه.

قطعت الفتاةُ ما تبقّى من أمتارٍ تفصلها عن السرير وتوقَّفت. قلبُها يخفق بشدَّة، أنفاسُها تضيق. بدأت تزيح الستائر بتأنٍّ. وفي تلك اللحظة اجتازت هبَّةُ هواءٍ باردٍ الغرفةَ وهزَّت الستائر. التفتت إرين لتنظر نحو الباب. هنالك ظلٌّ على الأرض، كبقعة حبرٍ كبيرة، يتمدَّدَ تحت الباب. همس صوتٌ مريع، صوتٌ بعيدٌ وطافحٌ بالحقد، همس شيئًا مّا تحت الظلام.

وبعد هنيهةٍ انفتح البابَ وانصفق إلى داخل الغرفة، بقوَّةٍ قاهرةٍ اقتلعت مفاصلَه. وعندما برز من الظلام مخلبٌ ذو أظفارٍ حادّةٍ كالسكاكين الفولاذيّة الطويلة، صرخت إرين بأعلى صوت.

*

بدأ إسماعيل يُفكِّرُ أنَّه أخطأ في تحديد موقع غرفة حنَّة ذهنيًّا. فعندما وصفت ابنةُ عمِّه الدارَ على مسمعه، تخيَّلها الفتى على طريقته. لكنَّه حين دخلها وجد أنَّ هيكلَها المتاهيَّ عصيٌّ على الإدراك. فكلُّ غرف الجناح الذي قرَّرَ استكشافه كانت مغلقةً بإحكام. لم تفلح مهاراتُه في فكّ أيٍّ من الأقفال، ولم يتعاطف الزمنُ مع فشله الذريع.

تبخَّرَت الدقائقُ الخمس عشرة المتَّفق عليها سدىً، في حين بدأ يُفكِّرُ جدّيًّا بتعطيل البحث في تلك الليلة. وإنَّ نظرةً خاطفةً على الأثاث الكئيب في ذلك المكان يوحي بألف عذرٍ وعذر للفرار من هناك. اتَّخذ قراره بالخروج من الدار، فإذا هو يسمع صرخة إرين، بدت كهمسةٍ طفيفةٍ تصدر من مكانٍ خفيٍّ لتجتاحَ ظلماتِ كريڤنمور. انتشر الصدى في عدَّة اتِّجاهات. أحسَّ إسماعيل بشحنة الأدرينالين تضطرم في شرايينه، وانطلق بأقصى سرعةٍ تسمح له بها ساقاه، نحو الطرف الآخر من ذلك الممرّ الأثريّ.

توقَّفَ برهةً لينظر إلى النفق المريع المتشكِّل من ظلالٍ تنزلق على جانبيه. مرَّ تحت هالة المنور الشبحيّة في أعلى القبّة، وتخطّى تقاطعَ الممرّات حول المعراج الكبير. بدت شبكةُ البِلاط

تتوسَّع تحت قدميه، والممرُّ المخيفُ يطول أمام عينيه كما لو أنَّه يفضي إلى ما لا نهاية.

سمع صرخات إرين ثانيةً، وكانت هذه المرَّة أقرب. تجاوز إسماعيل الستارة الشفَّافة، وحدَّدَ موقعَ مدخل الغرفة في آخر الجناح الغربيّ أخيرًا. ألقى بنفسه إلى الداخل بلا تردُّد، غير مُدرِكٍ لما كان ينتظره هناك.

انفتحت أمام عينيه ملامحُ غامضةٌ لغرفةٍ أثريّة، على ضوء الجمر الوامض في المدفأة. اطمأنَّ برهةً حين تراءى له طيفُ إرين عند نافذةٍ كبيرةٍ صبغها الضياءُ الأزرق، لكنَّه سرعان ما رأى الرهبةَ العمياءَ في عيني الفتاة. التفت إسماعيل لاإراديًّا، فتكدَّرَ ذهنه ممّا تجلّى أمامه، وشُلَّت ساقاه كأنَّه يشهد رقصةَ ثعبانٍ تُسبِّبُ الإغماء.

جسمٌ عملاقٌ يبرز من بين الظلال ويفرد جناحيه الكبيرين، كأجنحة خفَّاش. أو شيطان.

مدَّدَ الملاكُ ذراعيه الطويلتين اللتين تنتهيان بمخلبين، مُكوَّنين بدورهما من أصابع طويلةٍ وقاتمة، ولمعت شفراتُ أظفاره الفولاذيّة أمام وجهه المغطّى بقلنسوة.

تراجع إسماعيل خطوةً إلى الوراء باتِّجاه النار، ورفع الملاكُ وجهه ليكشفَ عن تقاسيمه على ضوء اللهب. كان ذلك الجسمُ المريعُ أكثر من كونه آلةً بسيطة. لعلَّ شيئًا مّا تسلَّلَ إلى داخله، ليُحوِّلَه إلى دمية عرائس جهنّميّة، ويجعلَ حضورَه شرّيرًا وملموسًا. جاهد الفتى كي لا يغمض عينيه، وأمسك بطرف جذعٍ أُحيلَ نصفُه إلى جمرة. لوَّحَ به في وجه الملاك، مشيرًا إلى بابِ الغرفة.

- اذهبي نحو الباب ببطء. - همس لإرين.

تجاهلت إرين كلماته وقد شلَّها الخوف.

- افعلي ما أقوله. - أمرها إسماعيل بقوّة.

أيقظتها نبرةُ صوته، فأومأت وهي ترتجف وأخذت تمشي نحو الباب. وما لبثت أن قطعت مترين حتّى التفت وجهُ الملاك إليها مثل مفترسٍ متيقِّظٍ وصبور. شعرت إرين أنَّ قدميها تنصهران بالأرض.

- لا تنظري إليه وواصلي المشي. - أمرها إسماعيل، دون أن يكفَّ عن التلويح بالجذع في وجه الملاك.

خطت إرين خطوةً أخرى. استدار رأسُ المخلوق نحوها، فزفرت الفتاةُ خائفةً.

انتهز إسماعيل لحظة الشرود، فضرب الملاكَ على رأسه. أثارت الصدمةُ وابلًا من الشرر. وقبل أن يتسنّى للفتى استعادة الجذع، أمسكه الملاكُ بأحد مخالبه، وسرعان ما أحاله إلى فتاتٍ بأظفاره الطويلة خمسة سنتمترات والباترة مثل سكاكين الصيد. تقدَّمَ الملاكُ خطوةً نحو إسماعيل الذي أحسَّ بالأرض تهتزُّ تحت وطأة خصمه.

- أنت مُجرَّد آلةٍ لعينة. كتلةُ صفيحٍ لعينة... - غمغم محاولًا تناسي أثرَ الرعب الصادر من تينك العينين القرمزيّتين اللتين تبرزان من تحت قلنسوة الملاك.

ضاقت حدقتا المخلوق الشيطانيّتان شيئًا فشيئًا، حتّى أصبحتا خيطًا نازفًا على القرنيّتين السوداوين كالسبج، مثل عينَي هرٍّ كبير. تقدَّمَ الملاك خطوةً أخرى نحوه. ألقى إسماعيل نظرةً خاطفةً إلى

الباب. كان يبعد أكثر من ثمانية أمتار. ليس لديه منفذٌ للهرب، على خلاف إرين.

- حين أوعز إليكِ، اركضي نحو الباب ولا تتوقَّفي ما لم تخرجي من الدار.

- ما الذي تقوله؟

- لا تناقشي الآن. - اعترض إسماعيل ولم تحد عيناه عن المخلوق - اركضي.

كان الفتى يُجري حسبةً ذهنيّةً حيال الوقت اللازم ليركض إلى النافذة ويحاول الهربَ عبر حواف الواجهة، فحدث شيءٌ غير متوقّع: إرين، عوضًا عن التوجُّه نحو الباب واللوذ بالفرار، أمسكت قطعةَ خشبٍ مشتعلٍ وواجهت الملاك.

- انظر إليَّ أيُّها الحقير. - صاحت وأحرقت الرداء الذي يغطّيه، فصرخ الظلُّ المختبئُ فيه صرخةَ غضب.

ذُهِلَ إسماعيل ووثب نحو إرين، ورماها على الأرض قبل أن تُمزِّقَها شفراتُ المخلب الخمسُ إربًا. تحوَّلَ رداءُ الملاك إلى عباءةٍ من لهب، وجسمُ المخلوق العملاقُ إلى لولبٍ من نار. أمسك إسماعيل بذراع إرين وساعدها على النهوض. وحاولا معًا أن يركضا نحو المخرج، لكنَّ الملاك اعترض طريقهما بعد أن مزَّقَ عباءةَ اللهب التي تُدثِّره. فظهر هيكلٌ فولاذيٌّ مُتفحِّمٌ من بين النيران.

ما زال إسماعيل ممسكًا بالفتاة (التي يبدو أنَّها ستُقدِمُ على بطوليّاتٍ جديدة)، دفعها نحو النافذة وقذف كرسيًّا إلى الزجاج.

تطايرت الشظايا عليهما، ورفعت ريحُ الليل الباردةُ الستائرَ حتّى السقف. وكانت خطواتُ الملاك تتقدَّمُ خلفهما.

- هيّا بسرعة! اقفزي إلى الإفريز! - صاح الفتى.

- ماذا؟ - صُعِقَت إرين ولم تقتنع.

فدفعها إلى الخارج إذ لا وقت للمحاججة. اجتازت الفتاةُ الأفواهَ المفتوحة في الزجاج، ووجدت نفسها مُعلَّقةً على ارتفاع ما يقارب الأربعين مترًا في الفراغ. أحسَّت بانقباضةٍ بالقلب، موقنةً بأنَّها ستهوي إلى الأسفل بعد بضعة أعشارٍ من الثانية. لكنَّ إسماعيل لم يتراجع قيد أنملة، دفعها ثانيةً حتّى وصلت إلى الإفريز الضيّق الذي يحدُّ الواجهةَ، مثل ممرٍّ بين الغيوم. قفز من بعدها وما انفكَّ يدفعها. جمَّدَت الريحُ العرقَ المتصبِّبَ على وجهه.

- لا تنظري إلى الأسفل! - صرخ.

تقدَّما مترًا فإذا بمخلب الملاك يظهر من النافذة التي خلفهما، قدحت أظفارُهُ شررًا على الحجر وأحدثت فيه أربع ندبات. صاحت إرين، وارتجفت قدماها على الإفريز واختلَّ توازنُ جسدها بشكلٍ خطير.

- لا يمكنني التقدُّم يا إسماعيل. - أعلنت - إن خطوتُ مزيدًا سقطتُ.

- بل تستطيعين. كوني على ثقة. تشجَّعي. - ألحَّ عليها وأمسك يدها بقوّة - إن سقطتِ سقطنا معًا.

حاولت الفتاةُ أن تبتسم له. لكنَّ إحدى النوافذ التي أمامهما ببضعة أمتارٍ انفجرت بعنفٍ وتطايرت منها آلاف الشظايا الزجاجيّة

إلى الخارج. ظهرت مخالبُ الملاك، وبعد ذلك التصق جسمُهُ على الواجهة مثل عنكبوت.

- يا إلهي... - فزعت إرين.

حاول إسماعيل أن يتراجعَ ويسحبها معه. زحف الملاكُ على الحجر: اختلط طيفُهُ بوجوه الغراغيل الشيطانيّة التي تسند الإطارَ العلويَّ لواجهة كريفنمور.

تفحَّصَ الفتى المجالَ البصريَّ المنفتح أمامهما بسرعة. كان المخلوقُ يتقدَّمُ شبرًا بشبرٍ نحوهما.

- إسماعيل...

- أعرف، أعرف!

حسب الفتى الإمكانيّات المتوافرة لديهما للنجاة في حال القفز من ذلك العلوّ. صفر، للأمانة. أمّا خيار العودة إلى الغرفة فيستوجب وقتًا طويلًا: الملاكُ سيصل إليهما قبل أن يرجعا على الإفريز. كان يعلم أنَّه ليس أمامهما سوى ثوانٍ معدودة لاتِّخاذ قرار، أيًّا كان. شدَّت يدُ إرين على يده بقوّة، وما زالت ترتجف. وجَّهَ الفتى نظرةً أخيرةً إلى الملاك، يزحف نحوهما ببطءٍ ولكن بلا توقُّف. ابتلع ريقه ونظر إلى الجهة المعاكسة. كانت منظومةُ أقنية تصريف المياه تهبط على طول الواجهة حتّى الأرض. تساءل ما إذا كانت بنيتُها تتحمَّلُ وزن شخصين، وفي الآن ذاته حاول الإمساكَ بالأنبوب الغليظ، الذي يُمثِّلُ فرصتهما الأخيرة.

- تشبَّثي بي. - قال في النهاية.

نظرت إليه إرين؛ ثمَّ نظرت نحو الأرض: هاوية. استقرأت أفكاره.

- آهٍ يا ربَّاه!

غمز لها إسماعيل.

- حظًّا موفَّقًا. - همس.

انغرس مخلبُ الملاك على بُعد أربعة سنتمترات عن وجهها. صرخت إرين وتشبَّثت بإسماعيل، مُغمِضةً عينيها. كانا يهويان في هبوطٍ متسارع. وعندما فتحتهما ثانيةً كان كلٌّ منهما مُعلَّقًا في الهواء. نزل الفتى على طول قناة التصريف ولم يستطع كبح السقوط. صارت معدتُه في حلقه. وكان الملاكُ فوقهما يضرب الأنبوب بالواجهة. انتبه إسماعيل أنَّ الاحتكاكَ يُمزِّقُ جلدَ يديه ومرفقيه بلا هوادة، ويُسبِّبُ حرقةً ستتحوَّلُ بعد قليل إلى ألم حادّ. زحف الملاكُ نحوهما وحاول أن يمسكَ الأنبوب... فما كان من وزنه الثقيل إلّا أن اقتلعه عن الجدار.

هوت كتلةُ المخلوق الحديديّةُ في الفراغ، تجرُّ وراءها منظومةَ الأقنية برمَّتها، فتقوَّسَت وأودت بإسماعيل وإرين إلى الأرض. صارع الفتى كي يحافظ على توازنه، لكنَّ الألم والسرعة اللتين كانا يهبطان بها نالتا من جهوده.

كانا يسقطان في البركة الكبيرة المحاذية للجناح الغربيّ. وجاء الارتطامُ بصفيحة المياه السوداء المتجمِّدة شديدًا. دفعتهما قوَّةُ السقطة إلى قاع المستنقع الزلق. شعرت إرين بالمياه الباردة تتغلغل في أنفها وتلسع حلقها. وراودتها نوبةُ فزع. فتحت عينيها تحت الماء فلم تر سوى ظلام دامس. ظهر طيفٌ بجانبها: إسماعيل. أمسكها الفتى وحملها إلى السطح. وخرجا إلى الهواء وهما يسحبان أنفاسًا طويلة.

- بسرعة. - ألحَّ عليها.

لاحظت إرين آثارَ الجروح على يديه وذراعيه.

- ليست خطيرة. - كذب الفتى وهو يقفز من المستنقع.

لحقت به. وكانت ثيابهما مبلَّلةً، وبردُ الليل يُلصِقُها بالجسد ويُحيلها إلى رداء صقيعٍ أليمٍ على الجلد. تحرَّى إسماعيل في الظلال المحيطة بهما.

- أين هو؟ - سألت إرين.

- لعلَّ أثر السقطة جعله...

ولم يكد ينهي جملته حتّى تحرَّكَ شيءٌ بين الأجمات. وسرعان ما عرفا تينك العينين القرمزيّتين. ما زال الملاكُ هناك، ولا يبدو عازمًا على أن يتركهما بسلام، أيًّا كانت دوافع تحرُّكاته.

- اركضي!

اندفعا بسرعةٍ قصوى نحو مشارف الغاب. كانت ثيابُهما المبلَّلةُ تعيق حركتهما، ناهيك بتسرُّب البرد إلى العظام. سمعا صوتَ الملاك في الحرش. سحب إسماعيل الفتاةَ بقوّة، واتَّجه بها نحو قلب الغابة، حيث يتكثَّفُ الضباب.

- إلى أين نذهب؟ - تباكت إرين، مدركةً أنَّهما يتوغَّلان في منطقةٍ من الغاب تجهلها.

لم يتكبَّد إسماعيل عناء الإجابة، واقتصر على سحبها يائسًا. شعرت إرين أنَّ حشائشَ الأرض تخدش كاحليها، فيما استنزف الإرهاقُ عضلاتها. لن تتحمَّلَ البقاءَ طويلًا على هذه الوتيرة. سينقضُّ عليهما ذلك المخلوقُ في غضون ثوانٍ، داخل الغاب، ليمزِّقهما أشلاء بمخالبه.

- لم أعد أستطيع...

- بل تستطيعين!

كان الفتى يجرُّها، وهي تعاني الدوار، وتسمع كيف تتفتَّتُ الأغصانُ المكسَّرةُ خلفها على بُعد أمتارٍ عنهما. ظنَّت للحظةٍ أنَّه سيُغمى عليها، لكنَّ وخزةَ ألمٍ في الساق أعادتها إلى الوعي الموجع. ظهر أحدُ مخالب الملاك من الأجمات وجرح فخذها. صرخت الفتاة. تبيَّنَت وجهَه خلفها، وحاولت أن تغمضَ عينيها، لكنَّها لم تستطع أن تشيحَ نظرها عن ذلك المفترس الجهنَّميّ.

وفي تلك اللحظة ظهر أمامهما مدخلُ كهفٍ متوارٍ بالأحراش. وثب إسماعيل إلى الداخل وما انفكَّ يجرُّها خلفه. كان يأخذها إلى هذا المكان إذًا. مغارة. هل ظنَّ إسماعيل أنَّ الملاكَ سيكفُّ عن مطاردتهما هناك؟ وفجأةً سمعت إرين صوتَ المخالب تخدش صخورَ الكهف. جرَّها إسماعيل على امتداد النفق الموحش إلى أن توقَّفَ عند فتحةٍ في الأرض، فجوةٍ في الفراغ. تنبثق منها ريحٌ باردة، مشبعةٌ بالملوحة. ومصحوبةٌ بزئيرٍ حادٍّ يصدر من الظلام. ماء. البحر.

- اقفزي. - أمرها الفتى.

عاينت إرين الفتحة السوداء. لا بدَّ أنَّها تُفضِّلُ مدخلًا مباشرًا إلى الجحيم على هذا.

- ما الذي في الأسفل؟

زفر إسماعيل نافدَ الصبر. خطواتُ الملاك تقترب. تقترب أكثر.

- مدخلٌ إلى مغارة الخفافيش.

- المدخل الثاني؟ قلتَ إنَّه خطير!

- ليس أمامنا خيار...

تلاقت نظراتُهما تحت الظلام. طقطقت مخالبُ الملاك الأسود خلفهما بأمتار. أومأ لها إسماعيل. أمسكت الفتاةُ يده وأغمضت عينيها، وسقطت في الفراغ. انقضَّ الملاكُ عليهما واجتاز مدخلَ المغارة وسقط في الداخل.

كان الهبوطُ عبر الظلمات لا نهاية له، إلى أن غطسَ جسداهما في البحر، ولسع البردُ كلَّ مسامةٍ من جلدهما. وعندما عادا إلى السطح، لم يجدا سوى خيط ضياء يتسلَّلُ من الحفرة في سقف المغارة. وكان تردُّدُ المدّ البحريّ يدفعهما إلى جدران صخرةٍ مدبَّبة.

- أين هو؟ - سألت إرين أثناء سعيها للتغلُّب على الرجفة التي أثارتها برودةُ الماء.

تعانق الاثنان بصمت، بانتظار أن يظهر ذلك الاختراعُ الجهنَّميُّ من البحر بين فينةٍ وأخرى، ليضعَ حدًّا لحياتهما في ظلام الكهف. لكنَّ تلك اللحظة لم تحن. أدرك إسماعيل الأمرَ قبلها.

كانت عينا الملاك القرمزيّتان تلمعان بحدّةٍ من القاع. وزنُهُ الثقيلُ يمنعه من الصعود إلى السطح. سمعا زمجرةَ غضبٍ تكتسح المياه. كان الظلُّ يتلوّى من الغضب، إذ استوعب أنَّ دميته الإجراميّة وقعت في فخٍّ تجعله غير ذي جدوى. لن تصعد تلك

الكتلةُ الحديديّةُ إلى السطح أبدًا. حُكِمَ عليها بالبقاء في قاع المغارة إلى أن يحيلها البحرُ إلى كومة خردةٍ صدئة.

بقي الفتيان هناك، ينظران إلى بريق تينك العينين وهو يذوي ويختفي تحت الماء إلى الأبد. تنفَّسَ إسماعيل الصعداء. وبكت إرين بصمت.

- انتهى الكابوس. - غمغمت وهي ترتجف - انتهى.

- كلا. - قال إسماعيل - تلك مُجرَّد آلة، بلا حياةٍ أو إرادة. كان يُحرِّكُها شيءٌ من الداخل. مَن حاول قتلنا ما يزال هناك...

- ولكن، ما هو؟

- لا أدري...

دوَّى انفجارٌ في قاع المغارة حينئذ. وصعدت غيمةٌ من فقاعاتٍ قاتمةٍ إلى السطح، لتندمجَ في طيفٍ أسود يزحف على جدران الصخرة وصولًا إلى الفتحة في الأعلى. توقَّفَ الظلُّ هناك وحدَّقَ إليهما.

- هل سيمضي في حاله؟ - سألت إرين مذعورةً.

اجتاحت المغارةَ قهقهةٌ قاسيةٌ ومسمومة. نفى إسماعيل برأسه.

- سيتركنا هنا... - قال الفتى - ليتكفَّلَ المدُّ بما تبقّى...

هرب الظلُّ عبر فتحة المغارة.

زفر إسماعيل واقتاد إرين إلى صخرةٍ صغيرةٍ ناتئةٍ تتيح حيِّزًا لكليهما. رفعها إلى الصخرة وعانقها. كانا يرتجفان بردًا، كانا

جريحين، لكنَّهما اكتفيا بالاستلقاء والتنفُّس العميق قليلًا، ولاذا بالصمت. ثمَّ شعر إسماعيل أنَّ الماءَ يلامس قدميه، فأدرك أنَّ البحرَ يرتفع، والمدَّ آت. صحيحٌ أنَّ ذاك المخلوق طاردهما حتّى هناك، لكنَّ خيارَ الوقوع في الفخّ كان من تدبيره...

تركهما الظلُّ لميتةٍ بطيئةٍ ومريعة.

10. عالقان

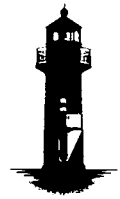

كان البحرُ يزأر وأمواجُه تتلاطم على مدخل مغارة الخفافيش. اقتحمت تيَّاراتُ الخليج الأسود الباردةُ المنافذَ بين الصخور، لتصدرَ صوتًا رهيبًا بسبب صدى الكهف، الغارق في الظلام. والفتحةُ فوقهما، بعيدةُ المنال، أشبه بذروة قبَّة. ارتفع منسوبُ المياه عدَّة سنتمترات في غضون دقائق. انتبهت إرين فورًا أنَّ سطحَ الصخرة التي يشغلانها كان يتقلَّص. ملمترًا بعد ملمتر.

- البحرُ يرتفع. - غمغمت.

اكتفى إسماعيل بهزّ رأسه، يائسًا.

- ما الذي سيحلُّ بنا؟ - سألته وهي تعي الإجابة، لكنَّها أملت أنَّ الفتى، المعروف بصفته منبعَ مفاجآتٍ لا ينضب، قد يتمكَّن من إيجاد حيلة اللحظة الأخيرة.

نظر إليها عابسًا. فتحطَّمت آمالُ إرين على الفور.

- عندما يرتفع المدُّ، يغلق مدخلَ المغارة. - شرح إسماعيل

- ولا يوجد مخرجٌ آخر من هذا المكان سوى الفتحة التي في الأعلى، ولكن لا وسيلة للوصول إليها.

صمت قليلًا وتكدَّرَ وجهه.

- نحن عالقان في فخّ. - اختتم كلامه.

تجمَّدَت دماءُ إرين، من فكرة أنَّ البحرَ يرتفع ببطءٍ ليغرقا فيه كالفئران، ضمن كابوسٍ من بردٍ وظلمة. حين كانا يهربان من ذلك المخلوق، ضخَّ الأدرينالينُ في شرايينهما ما يكفي من التهيُّج لتكدير قدرتهما على التفكير. والآن، بدا احتمالُ الموت البطيء، مصحوبًا بالارتجاف بردًا تحت الظلام، أمرًا لا يطاق.

- لا بدَّ من وجود طريقةٍ أخرى للخروج من هنا. - ألحَّت.

- لا يوجد.

- فماذا سنفعل؟

- حاليًّا، ننتظر.

فهمت إرين أنَّه لا يجوز أن تضغطَ على الفتى بغية الحصول على إجابات. فمن الوارد أنَّه خائفٌ أكثر منها، لكونه يعي مخاطرَ تلك المغارة. واستنتجت بعد تفكيرٍ مُتمعِّنٍ أنَّه لا بأس من تغيير الموضوع.

- رأيتُ شيئًا... عندما كنّا في كريڤنمور. - بادرت - حين دخلتُ إلى تلك الغرفة، رأيتُ شيئًا يخصُّ ألما مالتيس...

رماها إسماعيل بنظرةٍ حادّة.

- أعتقد... أعتقد أنَّ ألما مالتيس وألكساندرا يان هما شخصٌ واحد. ألما مالتيس هو اسم ألكساندرا قبل أن تتزوَّج لازاروس يان. - فصَّلَت إرين.

- مستحيل. ألما مالتيس غرقت في جزيرة المنارة منذ أمدٍ بعيد... - اعترض إسماعيل.

- لكنَّ جثمانها لم يعثر عليه أحد...

- مستحيل. - أصرَّ الفتى.

- حين كنتُ في تلك الغرفة، أمعنتُ النظر في صورتها و... كان هنالك شخصٌ مستلقٍ على السرير. امرأة.

فرك إسماعيل عينيه وحاول أن يُصفّي ذهنه.

- مهلًا. فلنفترض أنَّكِ على حقّ. فلنفترض أنَّ ألما مالتيس وألكساندرا يان شخصٌ واحد. فمن تكون المرأةُ التي رأيتِها في كريڤنمور؟ من تكون المرأةُ التي ظلَّت طوال هذه الأعوام حبيسةً هناك، بهويّة زوجة لازاروس المريضة؟ - سأل.

- لا أدري... كلَّما عرفنا عن هذه القصّة، قلَّ استيعابي لها. - قالت إرين - وهناك شيءٌ آخر يقلقني. ما الذي يعنيه الجسمُ الذي رأيناه في مصنع الألعاب؟ نسخةٌ عن أمّي. يقشعرُّ بدني لمجرَّد التفكير في الأمر. لازاروس يصنع لعبةً لها وجه أمّي...

بلَّلت موجةٌ باردةٌ كاحليها. ارتفع منسوبُ المياه، منذ أن جلسا هناك، شبرًا على الأقلّ. تبادلا نظرةً متشائمة. زأر البحرُ ثانيةً فارتدَّ الصدى مدويًّا في مدخل المغارة. ستكون ليلةً طويلةً جدًّا.

*

خلَّفَ منتصفُ الليل على الجرف شريطًا من ضبابٍ يتصاعد،

عتبةً عتبة، من المرسى إلى بيت الرأس. ما زال قنديلُ الزيت يتأرجح ذاويًا في الترّاس. كان الصمتُ مطبقًا، باستثناء صوت البحر وحفيف أوراق الشجر في الغاب. دوريان في سريره، ممسكًا بكأسٍ زجاجيّةٍ صغيرة فيها شمعةٌ مشتعلة. لم يشأ أن تنتبه أمُّه إلى الضوء، ولم يعد يثق بالمصباح بعد ما حلَّ به. كانت الشعلةُ تتمايل على أنفاسه، مثل روح جنّيّةٍ من نار. وكانت انعكاساتُ الضوء تُشكِّلُ عرضًا لأشكالٍ عجيبةٍ في كلّ زاوية. زفر دوريان. لم يكن ليُغمِضَ عينًا في تلك الليلة حتّى لو قبض مقابل ذلك ذهبَ الدنيا.

بعد أن ودَّعت لازاروس، أطلَّت سيمون على غرفة ابنها لتتأكَّدَ من أنَّه على ما يرام. وكان دوريان قد تقوقع تحت الأغطية وهو في كامل ثيابه، مستعرضًا أحد تأويلاته الأنطولوجيّة لنوم الأبرياء الهانئ، فانسحبت أمُّه إلى غرفتها راضيةً وعازمةً على تقليده. ومنذ تلك اللحظة مرَّت ساعات، أو ربّما سنوات، بحسب تقديرات الصبيّ. وعدته الليلةُ الطويلةُ بمعرفة مدى تحمُّل أعصابه المشدودة كأوتار البيانو. وكلَّما رأى انعكاسًا، أو سمع نأمةً، أو استشعر ظلًّا، تأهَّبَ قلبه لخفقانٍ مُروِّع.

خبت شعلةُ الشمعة تدريجيًّا، حتّى استحالت فقاعةً زرقاء، لا يُشتِّتُ ضياءُها شملَ الظلام إلّا قليلًا. وسرعان ما عادت العتمةُ لاحتلال المكان الذي انجلت عنه من قبل على مضض. سمع دوريان تنقيطَ الشمع الساخن يتصلَّبُ في الكأس. وكان الملاكُ الحديديُّ، الذي أهداه له لازاروس، رابضًا على الدُّرج، على بُعد سنتمترات، يراقبه بصمت. «كفى» - قال دوريان في

نفسه، عازمًا على استخدام طريقته المفضَّلة لمكافحة الأرق والكوابيس: أن يأكل شيئًا مّا.

أزاح عنه الأغطية ونهض. قرَّرَ ألّا ينتعلَ الحذاء، منعًا لمئة ألف قرقعة تصدر عن قدميه كلَّما أراد أن يتحرَّكَ خلسةً في بيت الرأس. استجمع ما تبقَّى من شجاعته، وقطع الغرفةَ حتّى الباب على رؤوس قدميه. استغرق وقتًا لا بأس به لفتح القفل دون إثارة جعجعة المفاصل الصدئة في منتصف الليل، لكنَّ الأمر استحقَّ العناء. فتح البابَ ببطءٍ مفرط وتقصَّى في العتمة. كان الممرُّ يتوه في الظلام، وخيالُ السلَّم يرسم شبكةً ضوئيّةً تتخلَّلها الظلالُ على الجدران. لا حركة لأيّ ذرَّة غبارٍ في الهواء. أغلق دوريان البابَ خلفه ومشى بحذرٍ إلى السلَّم، مرورًا بغرفة إرين.

كانت شقيقتُه قد خلدت للنوم منذ ساعات، بحُجَّة صداعٍ رهيب، مع أنَّ دوريان تكهَّنَ أنَّها ما تزال تقرأ أو تكتب رسائل غرام مقرفة لحبيبها البحَّار، الذي أصبحت تقضي معه ساعات أكثر ممّا في اليوم من ساعات. فمنذ أن رآها بفستان سيمون، علم أنَّه لن يترقَّبَ منها سوى شيءٍ واحد: مشاكل. وبينما كان ينزل الدرجات على طريقة المستكشف الهنديّ، أقسم دوريان لنفسه أنَّه كان سيحافظ على كرامته تامّةً في حال تحامَقَ ووقع في فخّ الحبّ. نساءٌ مثل غريتا غاربو لا يكترثن لحماقاتٍ من ذلك النوع. لا رسائل غراميّة، لا أزهار. قد يكون جبانًا، لكنَّه ليس بسخيف.

وصل إلى الطابق الأرضيّ، وانتبه أنَّ ضبابًا متشابكًا يُطوِّقُ البيت، وأنَّ بخارًا مُتلبِّدًا يحجب الرؤيةَ من كافّة النوافذ. اختفت

الابتسامةُ التي ارتسمت على شفتيه وهو يسخر من شقيقته في نفسه. «مجرَّد ماء متكثِّف» قال في سرّه «مجرَّد ماء متكثِّف ويتحرَّك. مبادئ الكيمياء». وبفضل هذه النظريّة العلميّة المطمئنة، تجاهل عباءةَ الضباب المتسرِّب من ثغرات النوافذ، واتَّجه إلى المطبخ. وهناك، تبيَّنَ أنَّ لقصّة الحبّ بين إرين *والقبطان إعصار* جوانبَ إيجابيّة: فمنذ أن بدأت تواعده، لم تعد تمسُّ علبة الشوكولاتة السويسريّة الشهيّة التي كانت سيمون تحتفظ بها في دُرج الخوان.

لعق شفتيه كالقطّ، وانقضَّ على البونبونة الأولى. فَقَدَ حواسّه من لذَّة انفجار التروفل واللوز والكاكاو. فهو يعدُّ الشوكولاتة أنبل اختراع، بعد علم الخرائط طبعًا، ابتكره الإنسانُ حتّى تلك اللحظة. ولاسيّما البونبون. «السويسريّون، شعبٌ عبقريّ - قال في نفسه - بارعون في صنع الساعات وشوكولاتة البونبون: وهذان جوهر الحياة». توقَّفَت اعتباراتُه النظريّةُ الوديعةُ جرَّاء صوتٍ مباغت. تكرَّرَ الصوت على مسامع دوريان، فتجمَّدَ في مكانه وانزلقت البونبونةُ الثانيةُ من بين أصابعه. أحدهم يطرق على الباب.

حاول الولدُ أن يتبلع ريقه، لكنَّ فمه كان جافًّا. طرقتان أخريان على باب البيت. تقدَّمَ دوريان في الصالة دون أن يحيد بصرُهُ عن الباب. كانت أنفاسُ الضباب تتسرَّب من تحت العتبة. طرقتان أخريان على الباب. وجد دوريان نفسه أمامه وتردَّدَ للوهلة الأولى.

- مَن بالباب؟ - سأل بصوتٍ مكسور.

لم يحصل على جوابٍ سوى طرقتين أخريين. اقترب من النافذة، لكنَّ عباءةَ الضباب حجبت عنه الرؤيةَ كلّيًّا. لم يسمع خطوات في الترّاس. كان الزائرُ المجهولُ قد مضى. لعلَّه مسافرٌ ضلَّ السبيل. عاد دوريان باتِّجاه المطبخ فإذا هو يسمع نقرتين جديدتين، لكنَّهما على زجاج النافذة هذه المرَّة، من مسافة عشرة سنتمترات عن وجهه. وثب قلبُه من صدره. تراجع نحو وسط الغرفة، حتّى ارتطم ظهرُهُ بكرسيّ. أمسك بشمعدانٍ حديديٍّ ولوَّحَ به.

- ارحل... - همس.

خُيِّلَ إليه أنَّه يرى وجهًا يتشكَّلُ في الضباب، في الجانب الآخر من الزجاج، لجزءٍ من الثانية. ثمَّ انفتحت النافذةُ على مصراعيها، مدفوعةً بعاصفةٍ عنيفة. اكتسحت هبَّةُ بردٍ عظامَه، ورأى بعينين مذعورتين بقعةً سوداء تتَّسع على الأرض.

ظلّ.

تموضع الطيفُ أمامه وبدأ يتَّخذ حجمًا، ليرتفعَ عن الأرض مثل دميةٍ داكنةٍ مُعلَّقةٍ بخيوطٍ خفيّة. حاول الصبيُّ أن يضربَ الدخيلَ بالشمعدان، لكنَّ الحديدَ اخترق الشبحَ القاتمَ بلا جدوى. تراجع دوريان خطوةً إلى الخلف، فانقضَّ عليه الظلّ. يدان بخاريَّتان سوداوان تشدَّان على عنقه، وما أبرد ملمسهما على الجلد! تشكَّلت ملامحُ وجهٍ قبالته. فاقشعرَّ بدنه من رأسه إلى قدميه. وهكذا تبلورت قسماتُ والده على بُعد سنتمترات عن وجهه. ابتسم له أرمان سوفيل. ابتسامةٌ ذئبيّةٌ، ضارية وطافحةٌ بالحقد.

- مرحبًا يا دوريان. جئتُ أبحث عن أمِّك. هلّا اقتدتَني إليها يا دوريان؟ - همس الظلّ.

جمَّدَت نبرةُ ذلك الصوت روحَه. ليس صوتَ أبيه. وهذان الضوءان، الشيطانيّان والمشتعلان، ليسا عينيه. وتلك الأسنانُ الطويلةُ والحادّةُ، الناتئةُ من بين الشفاه، ليست أسنان أرمان سوڤيل.

- أنت لست أبي...

تبدَّدَت ابتسامةُ الذئب، وذابت ملامحُ الوجه مثلما يذوب الشمعُ بالنار.

ثُقِبَت أذناه بزمجرةٍ وحشيّة، تدوّي بالحقد والغضب، ودفعته قوَّةٌ خفيّةٌ إلى الجانب المعاكس من الغرفة. ارتطم دوريان بإحدى الأرائك فانقلبت.

نهض بمشقّةٍ مصدومًا، فرأى الظلَّ يصعد السلَّم، كأنَّه بقعةٌ من القطران انبعثت فيها الحياةُ فزحفت على الدرجات.

- أمّاه! - صرخ دوريان وركض خلفه.

توقَّفَ الظلُّ برهةً وغرز عينيه في عيني الطفل. وتكوَّنَت على شفتيه السوداوين كلمةٌ بكماء. اسمه.

انفجر زجاجُ النوافذ في البيت كلّه، وتطايرت الشظايا القاتلة، واخترق الضبابُ بيتَ الرأس مصحوبًا بزمجرة عالية، في حين واصل الظلُّ صعودَه إلى الطابق الأعلى. انطلق دوريان وراءه، ليطاردَ ذلك الشكلَ الشبحيَّ الذي يطفو على الأرض ويتقدَّم نحو باب غرفة سيمون.

- كلّا! - صاح الولد - لا تلمسْ أمّي!

ابتسم له الظلُّ ثمَّ تحوَّلَت كتلتُه البخاريّةُ السوداءُ إلى دوَّامةٍ تغلغلت في قفل الباب. واختفى بعد ثانية.

ركض دوريان نحو الباب، لكنَّه قبل أن يبلغه طار اللوحُ الخشبيُّ مُقتَلَعًا من مفاصله بقوَّة زوبعة، وتحطَّمَ بعنفٍ في الطرف الآخر من الممرّ. وقع دوريان على جنبه واستطاع أن ينجو على بُعد ملمترات.

وعندما نهض، انفتحت عيناه على رؤيةٍ كابوسيّة. كان الظلُّ يركض على جدران غرفة سيمون. وأمُّهُ، الهامدةُ في سريرها سريرها، ينعكس خيالُ جسمها على الحائط. رأى دوريان الشبحَ الأسود ينزلق على الجدران، وشفتاه الطيفيَّتان تحطّان على شفتي أمِّه. تحرَّكَت أمُّه في نومها بشدّة، رهينةَ كابوسٍ غامض. أمسكها مخلبان خفيّان ورفعاها عن الأغطية. اعترض دوريان طريقه. فأصيب بضربةٍ أخرجتْه من الغرفة. حمل الظلُّ سيمون بين ذراعيه، ونزل السلَّمَ راكضًا. جاهد دوريان كي لا يفقد وعيه، نهض ولحق به إلى الطابق الأرضيّ. التفت إليه الظلُّ ورمق أحدهما الآخرَ لبرهة.

- أعرف مَن تكون... - غمغم الصبيّ.

ظهر عليه وجهٌ جديد، غريبٌ عنه: ملامحُ شابّ، حسن المحيّا، لامع العينين.

- أنت لا تعرف شيئًا. - قال الظلّ.

لاحظ دوريان أنَّ عيني الشبح تمسحان الغرفةَ وتتوقَّفان على الباب المؤدّي إلى السرداب. انفتح البابُ الخشبيُّ الرديءُ على

حين غرّة، وأحسَّ الفتى بحضورٍ خفيٍّ يدفعه إلى ذلك الاتِّجاه دون أن يقوى على فعل شيءٍ لمقاومته. سقط على السلَّم، نحو الظلام. وانغلق البابُ مثل لوحٍ حجريٍّ صلد.

فهم دوريان أنَّه سيفقد الوعي خلال ثوانٍ. وفي الأثناء تناهت إلى مسمعه قهقهةُ الظلّ، الشبيهة بضحكة الضبع، وهو يخطف أمَّه ويمضي بها نحو الغاب، تحت الضباب.

*

كلَّما ارتفع المدُّ في داخل المغارة، شعر إسماعيل وإرين بحصارٍ خانق، وفخٍّ محكمٍ يضيق بهما. نسيت إرين اللحظةَ التي حرمتهما المياهُ من ملاذهما الآنيّ على الصخرة. ما عاد بالإمكان لمسها. كانا تحت رحمة المدّ واستطاعتهما على التحمُّل. كان البردُ يجلد عضلاتهما مُحفِّزًا ألمًا حادًّا، كأنَّ مئة إبرة تخزهما. بدأت حساسيّةُ يديها تخبو، والتعبُ يفرد براثنَه الحديديّةَ للإمساك بكاحليها وسحبها نحو الأسفل. حدَّثَها صوتٌ باطنيٌّ بأن تستسلمَ وتنضمَّ لنومةٍ هادئةٍ تنتظرها تحت الماء. كان إسماعيل يساعد الفتاةَ على الطفو، ويشعر أنَّ جسمَها يرتجف بين ذراعيه. لم يكن يدري كم سيصمد هكذا. ولا كم تبقّى لبزوغ الفجر وابتداء الجزر.

- لا تُبقي ذراعيكِ ثابتتين. حرِّكيهما. لا تكفّي عن التحرُّك.

- قال وهو يئنّ.

أومأت الفتاةُ، على مشارف الإغماء.

- نعستُ... - همست كأنَّها تهذي.

- لا. لا تغفي الآن. - أمرها إسماعيل.

نظرت إليه عينا إرين المواربتان دون أن تراه. رفع ذراعه ولمس السقفَ الحجريَّ الذي حملهما إليه المدّ. كانت التيَّاراتُ الداخليّةُ تبعدهما عن الفتحة في الأعلى، وتجرفهما إلى أعماق المغارة، لتغلقَ منفذَ الهرب الوحيد. فعلى الرغم من كلّ جهودهما في البقاء تحت الفتحة، ما من وسيلةٍ للإمساك بشيءٍ وتجنُّب قوَّة التيّار القاهرة التي تبعدهما عن هناك على هواها. لم يعد هناك من حيِّزٍ إلّا لالتقاط الأنفاس. والمدُّ العنيدُ يرتفع أكثر فأكثر.

غمر الماءُ وجهَ إرين قليلًا. أمسكها إسماعيل ورفعها. كانت الفتاةُ هامدةً كلّيًّا. فكم سمعت عن أناسٍ أقوياء وذوي خبرة ماتوا بالطريقة نفسها، تحت رحمة البحر. يتغلَّبُ البردُ على الجميع. ففي البدء يُخدِّرُ العضلات بعباءته المميتة ويُشتِّتُ الذهن، ثمَّ ينتظر بصبرٍ طويلٍ أن تستسلمَ الضحيّةُ لعناق الموت.

هزَّ إسماعيل الفتاةَ وتموضَعَ قبالتها. هذرت إرين بكلامٍ غير ذي معنى. صفعها إسماعيل بقوّةٍ دون تردُّد. ففتحت عينيها وصاحت من الفزع. لم تعرف أين هي. كانت تحت الظلام، محاطةً بمياهٍ باردةٍ، وتسندها ذراعُ شخصٍ آخر. ظنَّت أنَّها استيقظت من أسوأ كوابيسها. فإذا هي تستعيد كلَّ ما حدث. كريڤنمور. الملاك. المغارة. عانقها إسماعيل فلم تتمالك بكاءها: أجهشت مثل طفلٍ مذعور.

- لا تتركني للموت هنا. - همست.

تلقّى الفتى كلماتها كطعنةٍ مسمومة.

- لن تموتي هنا. أعدكِ بهذا. لن أسمح بذلك. سينخفض

المدُّ قريبًا، وربّما لن تمتلئ المغارةُ كلّيًّا... سنخرج من هنا بعد قليل.

أومأت إرين وعانقته بقوّةٍ أكبر. عسى أن يؤمن بكلماته بقدر ما آمنت بها رفيقتُه.

*

صعد لازاروس عتبات المعراج الكبير في قصر كريڤنمور ببطء. كانت أنفاسُ حضورٍ غريبٍ تتماوج تحت هالة المنور في أعلى القبّة. بإمكانه أن يستشعره في رائحة الهواء، في الطريقة التي تنسج بها جزيئاتُ الغبار شبكةَ الذرَّات الفضّيّة عندما يحاصرها الضوء. وصل إلى الطابق الثاني، فحطَّت عيناه على الباب في آخر الممرّ، ما وراء الستارة. كان مفتوحًا. ارتجفت يداه.

- ألكساندرا؟

رفعت هبّةُ ريح باردة الستائرَ المتدلّيةَ في الممرّ المعتم. استبدَّ به شعورٌ مشؤوم. أغمض لازاروس عينيه ورفع يده إلى جنبه. اندلعت غصّةُ ألمٍ في صدره، وانتشرت حتّى الذراع اليمنى، مثل فتيلٍ يسحق أعصابَه بقسوة.

- ألكساندرا؟ - قال وهو يئنُّ من جديد.

ركض لازاروس إلى باب الغرفة وتوقَّفَ عند العتبة، نظر إلى آثار الصراع والنوافذ المهشَّمة، المتروكة للضباب البارد الآتي من الغاب. جمع قبضةَ يده حتّى أحسَّ بأظفاره تنغرس في راحته.

- اللعنة...

مسح العرقَ المتصبِّبَ عن جبينه، واقترب من السرير، وأزاح ستائرَ السرادق برقّةٍ هائلة.

- متأسِّفٌ يا عزيزتي... - قال وهو يجلس على حافّة السرير - متأسِّف...

لفت انتباهَهُ صوتٌ غريب. كان باب الغرفة يتمايل من جانبٍ إلى جانب. نهض لازاروس واقترب من العتبة بحذر.

- مَن هناك؟ - سأل.

لم يحصل على جواب، لكنَّ الباب انغلق. تقدَّمَ لازاروس خطوتين نحو الممرّ وتقصّى في الظلام. وحين سمع الهمسَ فوقه، كان قد فات الأوان. ضربةٌ مكتومةٌ على رقبته أطاحته أرضًا، يكاد يفقد وعيه. شعر بأيدٍ تمسكه من كتفيه وتجرُّه على امتداد الممرّ. استطاعت عيناه أن تخطف رؤيةً عابرة: كريستيان، الرجلُ الآليُّ الذي يحرس بابَ الدار. التفت بوجهه نحوه. وكان بريقٌ حادٌّ يلمع في عينيه.

ثمَّ أُغميَ عليه.

*

أحسَّ إسماعيل ببزوغ الفجر، بسبب انكفاء التيَّارات التي كانت تدفعهما إلى داخل المغارة طوال الليل بلا هوادة. خفَّت قبضةُ البحر الخفيّةُ رويدًا رويدًا، وسمحت له بسحب إرين المغماة عليها نحو الجانب الأعلى من الكهف، حيث يتيح لهما منسوبُ المياه التقاطَ الهواء. وعندما رسم الضياءُ المترجرجُ في القاع الرمليّ دربًا لضوءٍ أبيض نحو مخرج المغارة، إيذانًا ببدء الجزر، أطلق إسماعيل صيحةَ ابتهاجٍ لم يسمعها أحد، بمن فيهم

رفيقته. كان الفتى يعلم أنَّه ما إن يتدنّى منسوبُ البحر، ستتكفَّلُ المغارة بنفسها بإرشادهما إلى الطريق نحو البحيرة الشاطئة والهواء الطلق.

مرَّت ساعتان تقريبًا مذ كانت إرين تطفو بفضل مساعدة إسماعيل حصرًا. إذ تمكَّنت من البقاء مستيقظةً بالكاد. لم يعد جسمُها يرتجف، لأنَّها سلَّمت أمرَها للتيَّار كي يهدهدها مثل غرضٍ جامد. وبينما كان إسماعيل ينتظر انحسارَ المدّ ليخرجا، أدرك أنَّها لولاه كانت ستموت منذ ساعات.

حين كان يسندها ويهمس لها بكلمات التشجيع التي لم تفهمها، تذكَّرَ إسماعيل القصصَ التي رواها البحَّارةُ عن لقاءاتهم بالموت: فإذا أنقذ أحدُهم حياةَ رفيقه في البحر، اتَّحدت روحُهما إلى الأبد برابطٍ خفيّ.

انكفأ التيَّارُ شيئًا فشيئًا، واستطاع إسماعيل أن يجرَّ إرين نحو البحيرة الشاطئة، ليُخلِّفَ وراءه مدخلَ المغارة. رسم الفجرُ ضفيرةً من الكهرمان في الأفق، وأوصل الفتى رفيقتَه إلى الضفّة. وعندما فتحت عينيها، مشدوهةً، رأت وجهَ إسماعيل الباسم يُحدِّقُ إليها.

- نحن على قيد الحياة. - غمغم.

رفع إسماعيل أنظارَه للمرَّة الأخيرة وتأمَّلَ ضوءَ الفجر على الغاب والأجراف. أجملُ منظرٍ مؤثِّرٍ شهده في حياته. ثمَّ استلقى بجانب إرين على الرمل الأبيض، واستسلم للإرهاق. لا شيء كان سيوقظهما من تلك الغفوة. لا شيء.

11. الوجهُ خلف القناع

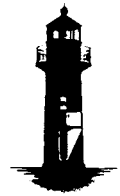

حالما فتحت إرين عينيها، رأت عينين سوداوين وثاقبتين تراقبانها بحذر. جفلتْ فانتفض النورسُ مذعورًا، وحلَّقَ بعيدًا. شعرت إرين بجفافٍ وألم في شفتيها، وضغطٍ لاذعٍ على جلدها، ووخزاتٍ حارقةٍ في كافّة جسدها. بدت لها عضلاتُها قد استحالت إلى خرقة، ودماغُها إلى هلامٍ مائع. سرت موجةُ غثيانٍ من فم معدتها إلى رأسها. وحين حاولت النهوض، أدركت أنَّ ذلك الحريقَ الغريبَ الذي ينهش جلدَها كالأسيد مصدرُهُ الشمس. نَمَتْ على شفتيها نكهةٌ مريرة. وكان سرابٌ ما يشبه الخليجَ الصغيرَ بين الصخور يتماوج حولها مثل الأحصنة الدوَّارة. لم تشعر بإحساسٍ سيّئٍ كهذا من قبل.

استلقت من جديد وانتبهت إلى وجود إسماعيل بجانبها. ولولا أنفاسه المخنوقة لظنَّت أنَّه مات. فركت عينيها ووضعت يدًا على عنق رفيقها. تأكَّدت من نبضه. داعبت إرين وجهَ إسماعيل، ففتح عينيه بعد قليل. أعشته الشمسُ للوهلة الأولى.

- تبدين في حالٍ مزرية. . . - غمغم وهو يبتسم بمشقّة.

- فماذا لو رأيتَ حالك! - ردَّت الفتاة.

نهضا وهما يترنَّحان، مثل غريقين رمتهما العاصفةُ على الشاطئ، ولاذا بفيء ما تبقَّى من جذعٍ مُحطَّم أسفل الجرف. وكان النورسُ الذي حرس نومهما، قد هبط على الرمل ثانيةً، إذ لم يُشبعْ فضولَه بعد.

- كم الساعة يا تُرى؟ - سألتْ إرين، وهي تصارع قصفَ كلماتها على صدغيها.

أظهر إسماعيلُ ساعتَه على مرآها. كانت ممتلئةً بالماء، وعقربُ الثواني المفصولُ مثل أنقليسٍ مُتحجِّرٍ في حوض سمك. ظلَّلَ الفتى عينيه بكلتا يديه وحدَّقَ إلى الشمس.

- الساعة تجاوزت منتصفَ النهار بالتأكيد.

- كم نمنا؟ - سألته.

- ليس بما فيه الكفاية. - ردَّ إسماعيل - ينقصني أسبوعٌ كاملٌ من النوم.

- لا وقت لدينا الآن. - ألحَّت إرين

هزَّ رأسه موافقًا وتمعَّنَ في الجرف بحثًا عن مخرجٍ ممكن.

- لن يكون سهلًا. فأنا لا أعرف كيفيّة الوصول إلى البحيرة الشاطئة إلّا عن طريق البحر. . . - قال.

- ماذا يوجد خلف الجرف؟

- الغاب الذي قطعناه ليلة أمس.

- وماذا ننتظر إذًا؟

تفحَّصَ إسماعيلُ الجرفَ ثانيةً. كان مثل دغلٍ من حرابٍ

حادّة. يتطلَّبُ صعودُ تلك الصخور وقتًا طويلًا، ناهيك باحتمالاتٍ لامحدودة لمواجهةٍ مؤسفةٍ مع قانون الجاذبيّة، وتكسُّر عظام الرقبة. جالت في ذهنه صورةُ بيضةٍ تنسحق على الأرض. «خاتمة مناسبة» - قال في سرِّه.

- هل تجيدين التسلُّق؟ - سأل إسماعيل.

رفعت إرين كتفيها. نظر الفتى إلى قدميها العاريتين والملطَّختين بالرمال. ذراعان وساقان بيضاء بلا أيّ وقاية.

- كنتُ أمارس الجمباز في المدرسة، وكنتُ الأفضل في التوازن على الحبل. - قالت - أعتقد أنَّ هذا يشبه التسلُّق.

زفر إسماعيل. مشكلاتُه لا تنتهي.

*

عادت سيمون سوڤيل، لبضعة أجزاءٍ من الثانية، فتاةً في الثامنة من عمرها مجدَّدًا. رأت مجدَّدًا تلك الأضواءَ النحاسيّةَ والفضّيّةَ التي ترسم أطيافًا دخانيّةً مُتقلِّبة. أحسَّت مجدَّدًا بأريج الشمع المشتعل، والأصوات الهامسة في العتمة، والرقصة الخفيّة التي تؤدّيها مئاتُ الشموع المتوهِّجة في قصر العجائب والغوامض الذي سحر ذكريات طفولتها: كاتدرائيّة سانت إتيان العتيقة. لكنَّ السحرَ لم يدم سوى ثوانٍ.

كلَّما تقصَّت عيناها المتعبتان الظلماتِ الكئيبةَ التي تحيط بها، أدركت سيمون أنَّ تلك الشموعَ ليست في أيّ مُصلّى: بقعُ الضوء المتراقصة على الجدران مُجرَّد صورٍ قديمة، ولا وجود لتلك الأصوات والهمسات البعيدة إلّا في ذهنها. عرفت بالفطرة أنَّها ليست في بيت الرأس، ولا في أيّ مكانٍ آخر يمكنها أن

تتذكَّره. أمدَّتها ذاكرتُها بأصداء مُتشوِّشة عن الساعات الأخيرة. تذكَّرَت أنَّها دردشت مع لازاروس في الترّاس. تذكَّرَت أنَّها حضَّرَت لنفسها كأس حليبٍ ساخنٍ قبل أن تخلدَ للنوم. تذكَّرَت الكلماتِ الأخيرةَ التي قرأتها من الكتاب الذي يتربَّعُ على الدُّرج.

وتذكَّرَت بالكاد أنَّها، بعد أن أطفأت الضوء، حلمت بصراخ طفلٍ وانطباعٍ غريبٍ بأنَّها تستيقظ في قلب الليل لتتأمَّلَ الظلال التي بدت أنَّها تمشي في الظلام. وبعد ذلك، تخبو ذاكرتُها كحوافّ لوحةٍ غير مُنجَزة. تلمَّسَت يداها نسيجًا قطنيًّا فأدركت أنَّها ما تزال في ثوب المنامة. نهضت واقتربت ببطءٍ من الجدار الذي يعكس ضوءَ عشرات الشموع البيضاء، المصفوفة بإتقانٍ على أذرع شمعداناتٍ مُخطَّطةٍ بدموع الشمع.

همست الشُّعَلُ بنبرةٍ واحدة؛ بصوتٍ بدا لها أنَّها سمعته مسبقًا. توسَّعَت حدقتاها بضياء تلك الشموع المذهَّبة، فصفى ذهنها. عادت الذكرياتُ واحدةً واحدة، مثل أولى قطرات المطر عند الفجر. عادت مُحمَّلةً بنوبة الفزع الأولى.

تذكَّرَت الملمسَ الباردَ لأيدٍ خفيّةٍ كانت تسحبها تحت الظلام. تذكَّرَت صوتًا همس في أذنها في حين كانت كلُّ عضلةٍ من جسمها تتحجَّر، حتّى عجزت عن التصرُّف إزاء ما يجري. تذكَّرَت شكلًا مُكوَّنًا من ظلال، يحملها عبر الغاب. تذكَّرَت أنَّ ذلك الظلَّ الشبحيَّ غمغم باسمها، وأنَّ الذعر شلَّها فاستوعبت أنَّها لا تعيش كابوسًا. أغمضت سيمون عينيها وحملت يديها إلى فمها، وكبتت صرخةً مدوّية.

خطرت في بالها سلامةُ ابنيها أوَّلًا. تُرى ما الذي حلَّ بإرين

ودوريان؟ أما يزالان في البيت؟ هل اختطفهما ذلك الشبحُ الخارق؟ حوَّلَتِ الفجيعةُ القاسيةُ كلًّا من تلك الأسئلة إلى نارٍ تضطرم في روحها. ركضت نحو ما بدا أنَّه باب، وحاولت فتحَ القفل بلا جدوى، وهي تصيح وتصرخ، إلى أن نال منها الإنهاكُ وغلبتها الخيبة. ثمَّ أعادها الهدوءُ الباردُ إلى الواقع.

كانت أسيرة. ولا بدَّ أنَّ مَن جعلها رهينةً هناك قد اختطف ابنيها أيضًا. لا يجدر بها في تلك اللحظة أن تُفكِّرَ أنَّه أذاهما أو أصابهما بمكروه. إن عزمت على إنقاذهما حقًّا، فعليها أن تتمالكَ أعصابَها وتسيطرَ على هواجسها. شدَّت سيمون قبضتيها وهي تُردِّدُ تلك الكلمات. سحبت نفسًا عميقًا بعينين مغمضتين، وشعرت أنَّ قلبها يستعيد نبضه المنتظم.

فتحت عينيها بعد قليل، وراحت تتبصَّرُ أرجاءَ الغرفة. يجب أن تفهم ما الذي يجري أوَّلًا، فهذا سيُعجِّلُ في خروجها من هناك لإغاثة إرين ودوريان.

سجَّلَت عيناها فورًا وجودَ أثاثٍ صغيرٍ ومُتقشِّف. أثاث يناسب الأطفال، بسيط البنيان، أقرب إلى الفقر. كانت سيمون في غرفة طفل، لكنَّ حدسَها أخبرها بأنَّ الغرفة لم يسكن فيها أيُّ طفلٍ منذ أمدٍ بعيد. كان كلُّ ما فيها يوحي بالشيخوخة والتداعي. ذهبت سيمون نحو السرير وجلست عليه، وتأمَّلت الغرفةَ من هناك. لا تحتوي غرفةُ النوم على براءة. لا تنمُّ إلّا عن قتامة. وشرور.

عاود سمُّ الخوفِ البطيءُ جريانَه في عروقها، لكنَّها تجاهلت إشاراته. أمسكت شمعدانًا واقتربت من الجدار. قصاصاتٌ

جرائد لا تُحصى، وصورٌ تُشكِّلُ جداريّةً تتوه في الظلمة. لاحظت العشوائيّةَ التي أُلصِقَت بها تلك الصورُ على الجدار. متحفٌ مشؤومٌ من ذكرياتٍ تنتشر أمام عينيها، وبدت كلٌّ من تلك القصاصات أنَّها تُعلِنُ بصمتٍ رهيبٍ عن وجود مغزىً معيَّن. صوتٌ يحاول الظهورَ من الماضي. قرَّبَت سيمون الشمعةَ على بُعد سنتمراتٍ عن الجدار، فانجرفت بسيلٍ من الصور والمطبوعات والكلمات والرسوم.

وسرعان ما رصدت عيناها اسمًا مألوفًا من بين عشرات الأنباء: دانيال هوفمان. أضاء هذا الاسمُ ذاكرتها بسرعة البرق. الشخصيّةُ الغامضةُ من برلين، والتي كان ينبغي لسيمون أن تفرزَ مراسلاته عن بقيّة الرسائل، بحسب تعليمات لازاروس. الفردُ الغامضُ الذي كانت رسائلُهُ ينتهي بها المطاف في النار، مثلما اكتشفت سيمون بنفسها عن طريق الصدفة. ورغم ذلك، ثمّة شيءٌ غير منطقيٍّ في الأمر. الرجلُ الذي تتحدَّثُ عنه تلك المقالات لا يعيش في برلين. وبالحُكم على تواريخ إصدار الصحف، يجب أن يكون في سنٍّ مُتقدِّمة للغاية. حارت سيمون، فتعمَّقَت في نصّ المقال.

كان هوفمان، بحسب القصاصات، رجلًا ثريًّا، فاحشَ الثراء. وعلى بُعد سنتمرات من المقال، يظهر في الصفحة الأولى من اللوفيغارو خبرٌ عن حريقٍ في مصنع ألعاب. لقي هوفمان مصرعه في تلك الكارثة. التهمت النيرانُ المبنى بأكمله، وتجمَّعَ حشدٌ مصعوقٌ بهذا المشهد الجهنَّميّ. وبين الناس طفلٌ مذعور، يُحدِّقُ إلى الكاميرا بنظرةٍ هائمة.

وتظهر النظرةُ ذاتُها في قصاصةٍ أخرى. يتحدَّثُ المقالُ هذه المرَّة عن قصَّةٍ مخيفةٍ لفتىً ظلَّ محبوسًا في سرداب، ومتروكًا في ظلماته، طوال سبعة أيَّام. اكتشفت الشرطةُ وجوده حينما عثروا على أمِّه ميّتةً في إحدى غرف البناية. وكان وجهُ الطفل، الذي لم يتعدَّ سبعةَ أعوامٍ من عمره أو ثمانية، كان مثل مرآةٍ بلا قاع.

اقشعرَّ بدنُها، تركَّبَت أجزاءُ أحجيةٍ مُروِّعةٍ في ذهنها. ولكن، هنالك أمرٌ آخر، فسطوةُ تلك الصور مُخدِّرةٌ ومذهلة. كانت القصاصاتُ تتقدَّمُ في الزمن. كثيرٌ منها تتحدَّثُ عن أناسٍ مختفين، وأشخاصٍ لم تسمع سيمون باسمهم في حياتها. من بينهم فتاةٌ ذات جمالٍ باهر، ألكساندرا ألما مالتيس، وريثةُ إمبراطوريّة مصانع تعدين في ليون، ويُشار إليها في مجلَّةٍ مرسيليّةٍ بأنَّها خطيبةُ مهندس شابٍّ ومرموق، فضلًا عن كونه مخترع ألعاب، يُدعى لازاروس يان. القصاصةُ تحتوي على صورةٍ يظهر فيها الثنائيُّ الرائعُ وهما يُوزِّعان الألعابَ في ميتم بحيّ مونبارناس. كان كلاهما يشعُّ سعادةً وتألُّقًا. «قطعتُ عهدًا حازمًا على نفسي، بأن يتسنَّى لجميع أطفال هذا البلد اقتناءُ لعبة، مهما كانت ظروفهم» - يُصرِّحُ مبتكرُ الألعاب في أسفل الصورة.

ولاحقًا، تُعلِنُ صحيفةٌ أخرى عن زواج لازاروس يان وألكساندرا مالتيس. التُقِطَت صورةُ الخطوبة الرسميّةُ عند أعتاب معراج كريڤنمور.

كان لازاروس فيها مفعمًا بعنفوان الشباب، يعانق خطيبتَه الجميلة. لا شيء في تلك الصورة الخياليّة يُكدِّرُ أجواءها، ولا حتّى غيمةٌ عابرة. وقد اشترى رجلُ الأعمال الشابُّ، لازاروس

يان، القصرَ المهيبَ ليجعلَ منه مقامًا لهما. ويحتفي المقالُ بصورٍ أخرى لكريڤنمور.

تتلاحق الصورُ والقصاصاتُ وتتزايد أكثر فأكثر، لنُضخِّمَ معرضَ الشخصيّات والأحداث الماضية. توقَّفَت سيمون ورجعت إلى الوراء. لم يفارقها وجهُ ذاك الطفل، الهائم والمذعور. ركَّزَت فيه بصرَها حتّى ولجت إلى تلك النظرة الحزينة، حتّى عرفت فيه نظرةَ مَن علَّقَت عليه آمالًا بالخير والصداقة. لم تكن تلك نظرةَ جان نيڤيل الذي حدَّثَها عنه لازاروس. فهي تعرف تلك النظرةَ جيِّدًا، تعرفها بصورةٍ مؤلمة. إنَّها نظرةُ لازاروس يان.

خيَّمَت على قلبها غمامةٌ سوداء. تنفَّسَت سيمون بعمق وأغمضت عينيها. ولسببٍ مّا، وقبل أن يصدر الصوتُ خلف ظهرها، أدركت أنَّ في الغرفة شخصًا آخر.

*

وصل إسماعيل وإرين إلى قمّة الجرف قبل الرابعة بقليل. وكانت الكدماتُ والجروحُ التي نقشتها الصخورُ على أذرعهما وسيقانهما شهودًا على صعوبة التسلُّق. هذا ثمنُ عبور الدرب المحظور. فعلى الرغم من أنَّ إسماعيل تصوَّرَ أنَّ الصعودَ عسير، وجده في الواقع أسوأ وأخطر من كلّ تصوُّراته. وكانت إرين قد أبدت له شجاعةً لم يرَ مثيلًا لها، فلم تتذمَّر قطّ، ولم تفتح فمها بكلمة جرَّاء الخدوش التي مزَّقَت جلدها.

كانت الفتاةُ قد جازفت بالتسلُّق عبر منحدراتٍ ما كان لأيّ عاقلٍ أن يطأها بقدميه. وحينما بلغا مستوى الغاب أخيرًا، اكتفى

إسماعيل بمعانقتها بصمت. لم تكن لكلّ مياه المحيط قدرةٌ على إطفاء الطاقة المشتعلة في تلك الفتاة.

- هل تعبتِ؟

نفت الفتاةُ برأسها مقطوعةَ الأنفاس.

- ألم يخبركِ أحدٌ من قبل بأنَّكِ أكثر الناس عندًا في هذا الكوكب؟

افترَّت شبهُ ابتسامةٍ من شفتيها.

- انتظر لتتعرَّفَ على أمّي.

وقبل أن يتسنّى لإسماعيل الردُّ، أمسكته من يده وجرَّته نحو الغاب. وكانت البحيرةُ الشاطئةُ تتراءى خلفهما، في أسفل الهاوية.

لو أنَّ أحدًا قال له بأنَّه سيتسلَّقُ تلك الأجراف الجهنَّميّة يومًا مّا، لم يكن ليُصدِّقه. إلّا أنَّه كان مستعدًّا لفعل أيّ شيء، مهما بلغت خطورته، كرمى لإرين.

*

التفتت سيمون ببطءٍ نحو الظلام. كانت تستشعر وجودَ الدخيل، بل وحتّى همسَ أنفاسه المتباطئة. تحوَّلَ وهجُ الشموع إلى هالةٍ متماسكة، تغدو الغرفةُ ما وراءها مسرحًا واسعًا بلا أبعاد. تقصَّت سيمون في العتمة التي تخفي الزائر. فاضت بها طمأنينةٌ غير معهودة، أمدَّتها بصفاء ذهنٍ فاجأها. كانت حواسُّها تلتقط كلَّ تفصيلٍ دقيقٍ لما يحيط بها، بحذاقةٍ مدهشة. وكانت تُسجِّلُ في ذهنها كلَّ هزَّةٍ في الهواء، كلَّ نأمة، كلَّ انعكاس.

وعلى هذه الحال تمترست بذلك الهدوء الغريب من نوعه، وظلّت ساكتةً في مواجهة الظلمات، في انتظار أن يُعرِّفَ الزائرُ عن نفسه.

- لم أكن أتوقَّع أن ألتقي بكِ هنا. - قال صوتٌ نابعٌ من الظلّ، بنبرةٍ ذاويةٍ ومنهكة - هل أنتِ خائفة؟

نفت سيمون برأسها.

- جيِّد. لا ينبغي لكِ أن تخافي. لا ينبغي.

- هل تُفكِّرُ في البقاء مختبئًا هناك، يا لازاروس؟

تبع سؤالَها صمتٌ طويل. تعالت في خلاله أنفاسُ لازاروس.

- أُفضِّلُ البقاءَ هنا. - أجاب في النهاية.

- لماذا؟

لمع شيءٌ في العتمة، لمعانًا خاطفًا، أشبه بومضة.

- لِمَ لا تجلسين، سيِّدة سوفيل؟

- أُفضِّلُ البقاءَ واقفةً.

- كما ترغبين. - صمت الرجلُ قليلًا - لعلَّكِ تتساءلين عمّا حدث.

- هذا من بين أمورٍ كثيرة. - قاطعته سيمون، بحدَّة الغيظ المتسرِّب من نبرة صوتها.

- ربّما من الأبسط أن تطرحي عليَّ أسئلةً وأنا أحاول الإجابة عليها.

زفرت سيمون غاضبةً.

- سؤالي الأوَّل والأخير: أين المخرج؟ - انفعلت.

- أخشى أنَّ هذا غير ممكن. ليس بعد.
- لِمَ لا؟
- أهذا سؤالٌ آخر؟
- أين أنا؟
- في كريڤنمور.
- وكيف وصلتُ إلى هنا ولماذا؟
- جاء بكِ أحدهم...
- حضرتك؟
- لا.
- مَن إذًا؟
- شخصٌ لا تعرفينه... بعد.
- أين ابناي؟
- لا أدري.

تقدَّمَت سيمون نحو الظلام، وقد احمرَّ وجهُها غضبًا.

- أيُّها السافل اللعين!

سارت نحو المكان الذي يصدر منه الصوت. تصوَّرَت عيناها تدريجيًّا طيفَ شخصٍ جالسٍ على أريكة. إنَّه لازاروس. ولكن، ثمّة شيءٌ غريبٌ على وجهه. توقَّفَت سيمون.

- هذا قناع. - قال لازاروس.

- لأيّ غاية؟ - سألت وهي تشعر أنَّ الصفاءَ الذي راودها يتلاشى بشكلٍ متسارع.

- الأقنعة تكشف عن وجوهنا الحقيقيّة...

حاولت سيمون ألّا تفقد هدوءها. الرضوخُ للغضب لن يفيدها في شيء.

- أين ابناي؟ أرجوك...

- سبق أن قلتُ لكِ يا سيِّدة سوفيل: لا أدري.

- ما الذي ستفعله بي؟

رفع يده المغلولة في قفَّازٍ من الحرير الساتان. فلمع سطحُ القناع ثانيةً. هو الوميضُ نفسه الذي لاحظتْهُ منذ قليل.

- لن أؤذيكِ يا سيمون. لا تخافي. عليكِ أن تثقي بي.

- ألا ترى أنَّ الطلبَ في غير محلِّه؟

- هذا لمصلحتكِ. أحاول أن أحميكِ.

- ممَّن؟

- اجلسي، أرجوكِ.

- ما الذي يحدث هنا؟ لِمَ لا تُخبِرني بما يحدث هنا؟

لاحظت سيمون كيف يصبح صوتُها هشًّا وصبيانيًّا. شعرت أنَّها تشارف على الهستيريا، فشدَّت قبضتيها وتنفَّسَت بعمق. تراجعت بضع خطوات وجلست على أحد الكراسي المحيطة بطاولةٍ فارغة.

- شكرًا. - غمغم لازاروس.

ذرفت دمعةً صامتة.

- قبل كلّ شيء، يجب أن تعرفي مدى أسفي الشديد لتورُّطكِ في هذا كلِّه. لم أكن أعتقد البتّة أنَّنا سنصل إلى هذه اللحظة... - صارحها مخترعُ الألعاب.

- لا وجود لطفلٍ اسمه جان نيفيل، أليس كذلك؟ - سألته

سيمون - ذلك الطفل هو أنت. فالقصَّةُ التي رويتَها لي... هي نصف حقيقة قصَّتك.

- أرى أنَّكِ اطَّلعتِ على مجموعة القصاصات خاصَّتي. ومن الوارد أنَّ هذا دفعكِ إلى تكوين أفكارٍ مثيرةٍ للاهتمام، لكنَّها خاطئة.

- الفكرة الوحيدة التي كوَّنتُها، يا سيّد يان، هي أنَّ حضرتك شخصٌ مريض وتحتاج إلى مساعدة. لا أعرف كيف استطعتَ الإتيان بي إلى هنا، لكنّي أؤكِّدُ لك أنَّني فورَ خروجي سأتَّجه إلى الشرطة مباشرةً. الاختطافُ جريمة...

بدا قولُها مضحكًا وبلا معنى.

- هل أفهم من كلامكِ أنَّكِ عازمةٌ على الاستقالة من عملكِ، سيِّدة سوفيل؟

استفزَّتها هذه السخريةُ المبطَّنةُ والمريبة. لم تكن تُصدِّقُ أنَّ تعليقًا كهذا قد يصدر من لازاروس الذي تعرفه. إلّا أنَّ الحقَّ يقال: إن كان هناك ما هو مؤكَّدٌ في الأمر، فهو أنَّها لا تعرفه على الإطلاق.

- افهمْ ما تشاء. - ردَّت بفتور.

- جيِّد. في هذه الحالة، تحصلين على موافقتي إذا أردتِ التوجُّهَ إلى السلطات. ولكن، قبل ذلك، اسمحي لي بأن أُكملَ أجزاءَ القصَّة التي لا بدَّ أنَّها تشكَّلَت في مُخيِّلتكِ.

حدَّقَت سيمون إلى القناع، الشاحب والخالي من أيّ تعبير. وجهٌ خزفيٌّ يصدر عنه ذلك الصوتُ الباردُ والمتجافي. أمّا العينان، فهما بئران قاتمتان.

- كما ترين، يا سيمون الموقَّرة، المغزى الوحيد الذي يمكن استنتاجه من هذه القصَّة، أو أيّ قصَّةٍ في العموم، هو أنَّه في هذه الحياة الواقعة، خلافًا للتخييل، لا شيء كما يبدو عليه...

- عِدْني بشيءٍ يا لازاروس. - قاطعته.

- إن كان في حدود الممكن...

- عِدْني بأنَّك ستسمح لي بالذهاب من هنا مع ابنيَّ، إذا استمعتُ إلى قصَّتك. أُقسِمُ لك أنّي لن أتَّجهَ إلى السلطات. سأصطحب عائلتي وأغادر هذه البلدة إلى الأبد. لن تعرف عنّي شيئًا. - توسَّلَت سيمون.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ظلَّ القناعُ صامتًا لحظات.

- أهذا ما ترغبين فيه؟

أومأت وهي تكبت دمعها.

- إنَّكِ تُخيِّبين أملي يا سيمون. ظننتُ أنَّنا أصبحنا صديقين. صديقين مُقرَّبين.

- أرجوك...

شدَّ القناعُ قبضته.

- موافق. إن كنتِ تريدين العثور على ابنيكِ، فافعلي ذلك. في الوقت الملائم...

*

- هل تذكرين أمَّكِ، سيِّدة سوڤيل؟ كلُّ الأطفال يحتفظون في قلوبهم بمكانٍ مخصَّصٍ للمرأة التي أنجبتهم. إنَّها كالنور الذي لا يخبو أبدًا. نجمةٌ في السماء. ولقد أمضيتُ معظمَ حياتي في

محاولة إطفاء ذلك النور. ونسيانها كلّيًّا. لكنَّ الأمر ليس سهلًا. على الإطلاق. آمل أنَّكِ ستستمعين إلى قصَّتي جيِّدًا، قبل أن تحكمي عليَّ وتُدينيني. لن أطيل عليكِ. فالحكاياتُ الجيِّدةُ تحتاج إلى كلماتٍ قليلة...

أتيتُ إلى الدنيا في ليلة ٢٦ ديسمبر عام ١٨٨٢، في بيتٍ قديمٍ بإحدى أتعس الطرقات وأكثرها كآبةً في حيّ غوبلان، بباريس. مكانٌ مظلمٌ وموبوءٌ بالتأكيد. هل قرأتِ فيكتور هوغو، سيِّدة سوڤيل؟ ستفهمين عمّا أتحدَّثُ إذًا. أنجبت أمّي مولودَها هناك، بمساعدة جارتها نيكول. وكان الطقس شتاءً، واستغرقتُ بضع دقائق لأصيحَ مثلما هو متوقَّعٌ من أيّ وليد. حتّى إنَّ أمّي ظنَّت في البدء أنّي وُلِدتُ ميتًا. وحين رأت أنَّ ظنونها ليست في محلِّها، فسَّرتِ المسكينةُ الأمرَ بأنَّه معجزة، وقرَّرَت - يا لسخرية القدر - أن تُسمّيني لازاروس.

أتذكَّرُ سنوات طفولتي باعتبارها تسلسلًا من الصراخ في الشوارع، ووعكات مرضٍ طويلة تنتاب والدتي. في إحدى ذكرياتي الأولى، أراني في حضن نيكول، الجارة، أصغي إلى تلك المرأة البارعة وهي تروي لي أنَّ أمّي مريضةٌ جدًّا، وأنَّها لا تستطيع تلبية مطالبي، لذا ينبغي أن أكونَ مؤدَّبًا وأذهبَ للعب مع الأطفال الآخرين. وكان الأطفالُ الآخرون الذي تتحدَّثُ عنهم مجموعةً من الأولاد الأشقياء الذين يتسوَّلون من الفجر وحتّى الغروب، ويتعلَّمون قبل بلوغهم سبعةَ أعوام أنَّ البقاءَ في الحيّ منوطٌ بأن يصبحوا إمّا مجرمين وإمّا رجالَ شرطة. ولا لزومَ لتوضيح أيّ الخيارين هو الأفضل.

وكانت بارقةُ الأمل الوحيدةُ في تلك الأيَّام، في حيِّنا، تتجلّى في شخصيَّةٍ غامضةٍ تحتلُّ أحلامنا. كان يُدعى دانيال هوفمان، اسمه أقرب إلى الخيال بالنسبة إلينا جميعًا، حتّى إنَّ كثيرين منّا كانوا يشكُّون في وجوده. فبحسب الأسطورة، كان هوفمان يقطع شوارعَ باريس مُتنكِّرًا بأزياءٍ مختلفة، ومنتحلًا هويَّاتٍ عديدة، يُوزِّعُ على الأولاد الفقراء ألعابًا اخترعها بنفسه في مصنعه. سمع به كلُّ أطفال باريس، وكلُّهم حلموا بأن يحالفهم الحظُّ يومًا مّا.

كان هوفمان إمبراطورَ السحر والخيال. لا شيء يتغلَّبُ على قوَّة جاذبيَّته: العمر. فكلَّما كبر الأولادُ وخلت أرواحُهم من إمكانيّة التخيُّل واللعب، امَّحى اسمُ دانيال هوفمان من ذاكرتهم؛ إلى أن يأتي يومٌ ينضجون فيه فيعجزون حتّى عن التعرُّف عليه عندما يسمعونه من أبنائهم...

دانيال هوفمان كان أمهرَ مُبتكرٍ للألعاب من قبل ومن بعد. كان لديه مصنعٌ كبير في حيّ غوبلان. يقع في بنايةٍ أشبه بكاتدرائيّةٍ مهيبةٍ تنهض وسط ظلمات ذلك الحيّ المخيف والمحفوف بالمخاطر والبؤس. يرتقي في منتصفه برجٌ رفيعٌ مثل إبرةٍ تناطح السحاب. وكانت أجراسُهُ تُقرَعُ إيذانًا بالفجر والغروب في كلّ يومٍ من السنة. وأصداؤها تُسمَعُ في كلّ أرجاء المدينة. وكنّا نحن فتية الحيّ نعرف المصنع، لكنَّ الكبارَ لا يستطيعون رؤيته، يظنُّون أنَّ في مكانه مستنقعًا شاسعًا من المستحيل اختراقه، كأنَّه منطقةٌ مهجورةٌ في قلب ظلمات باريس.

لم يرَ أحدٌ وجهَ دانيال هوفمان الحقيقيَّ إطلاقًا. يقال إنَّ

مخترعَ الألعاب يسكن في إحدى صالات قمّة البرج ولا يبرح منها أبدًا، إلّا عندما يتجوَّلُ مُتنكِّرًا في شوارع باريس عند الغروب، ويهدي الألعابَ لأطفال المدينة المحرومين. ولا يطالبهم في المقابل إلّا بشيءٍ واحد: قلبُ الطفل، ووعدُهُ الأبديُّ بالمحبّة والطاعة. وكان جميعُ أولاد الحيّ مستعدّين لوهب قلوبهم بلا تردُّد. لكنَّ الدعوةَ لا تصل إلى الجميع. تتحدَّثُ الشائعاتُ عن مئات الألبسة التنكُّريّة المختلفة التي تخفي هويَّته. وهناك مَن يتوهَّمُ قائلًا إنَّ دانيال هوفمان لا يستخدم اللباسَ نفسَهُ مرَّتين.

ولكن، فلنعد إلى أمّي. ما يزال المرضُ الذي أشارت إليه نيكول لغزًا بالنسبة إليَّ. أتصوَّرُ أنَّ بعضَ الناس، مثل بعض الألعاب، يولدون بخللٍ خُلُقيٍّ أحيانًا. وهذا ما يُحوِّلنا جميعًا، بشكلٍ أو بآخر، إلى ألعابٍ مُعطَّلة، ألا توافقينني الرأي؟ والحال أنَّ العلَّةَ التي عانتها والدتي أمست مع الوقت فقدانًا تدريجيًّا لقواها العقليّة. فعندما يعتلُّ الجسد، ينحرف العقلُ عن طريق الصواب. هذه سنَّةُ الحياة.

وهكذا تعلَّمتُ أن أكبرَ في عزلةٍ لا صاحب لي فيها سوى الحلم بأن يأتي دانيال هوفمان يومًا لنجدتي. أذكر أنَّني، في كلّ ليلةٍ قبل أن أنام، كنتُ أطلب من ملاكي الحارس أن يأتيني به. كلَّ ليلة. وهكذا بدأتُ أصنع ألعابًا بنفسي، مدفوعًا أغلبَ الظنّ بخيالاتي المتعلِّقة بهوفمان.

كنتُ أستخدم ما أجده من بقايا في قمامة الحيّ. وهكذا صنعتُ قطاري الأوَّل، وقلعةً من ثلاثة طوابق. وأتبعتُهما بتنّينٍ كرتونيّ، ثمَّ مركبةٍ طائرة، قبل أن تصبح رؤيةُ الطائرات في

السماء أمرًا اعتياديًّا. لكنَّ لعبتي المفضَّلة كان اسمها *جابرييل*. جابرييل عبارةٌ عن ملاك. ملاكٌ عجيبٌ صنعتُهُ بيديَّ هاتين لكي يقيني من رعب الظلام ووعيد القدر. صنعتُهُ ببقايا مكواةٍ وخردةٍ من كلّ نوعٍ تدبَّرتُها من منسجٍ مهجور بعد شارعين من الذي كنّا نسكن فيه. لكنَّ جابرييل، ملاكي الحارس، لم يعش طويلًا.

ففي اليوم الذي اكتشفت فيه أمّي ترسانةَ ألعابي، حُوكِمَ جابرييل بالهلاك.

اقتادتني أمّي إلى السرداب، وحدَّثَتني هناك هامسةً، دون أن تكفَّ عن النظر من حولها، كأنَّها خشيت أن يكون أحدهم مُتربِّصًا بنا في العتمة، حدَّثَتني أنَّ رجلًا تكلَّمَ إليها في المنام. باح لها بأنَّ الألعاب، كلَّ الألعاب، هي من صنيعة إبليس شخصيًّا. يعتمد على الألعاب آملًا أن يلعنَ أرواحَ جميع أطفال العالم. وهكذا أُلقِيَ بجابرييل وألعابي كلِّها في موقد السخَّانة.

ألحَّت أمّي لكي نُحطِّمَها معًا، بحيث نتأكَّدُ من أنَّها أُحيلَت إلى رماد. وقالت لي إن لم نُنفِّذ ذلك، فسيأتي ظلٌّ روحي الملعونة ليخطفني. ستُسجَّلُ كلُّ نقطةٍ سوداء في سلوكي، وكلُّ غياباتي، وكلُّ حركة عصيانٍ أقوم بها. فهذا الظلُّ يرافقني على الدوام، وهو انعكاسٌ لسيِّئاتي وعدم امتثالي لأوامرها وأحكام العالم...

كنتُ في السابعة من عمري في تلك الآونة...

وفي تلك الفترة تقريبًا، استفحل مرضُها. راحت تحبسني في السرداب، حيث لا يتمكَّنُ الظلُّ من العثور عليَّ ليخطفني، بحسب أوهامها. وكنتُ خلال تلك المحكوميَّات الطويلة، لا أجرؤ حتّى على التنفُّس، خشية أن تستدعي أنفاسي انتباهَ الظلّ،

ذلك الانعكاس الشرّير لروحي الضعيفة، فيأتي ليأخذني إلى الجحيم مباشرةً. قد يبدو لكِ الأمرُ برمَّته مهزلة، أو مأساة في أسوأ الأحوال، لكنَّه يا سيِّدة سوڤيل كان واقعًا يوميًّا مريعًا يعيشه طفلٌ صغيرُ السنّ.

لا أريد أن أُسبِّبَ لكِ الضجر بتفاصيل مفزعة عن تلك الحقبة. أكتفي بالقول إنَّ أمّي فقدت ما تبقَّى من صوابها كلّيًّا، خلال إحدى المرَّات التي حبستْني فيها، فأمضيتُ أسبوعًا كاملًا في السرداب، وحيدًا تحت الظلام. لعلَّكِ قرأتِ الخبر من قصاصة الجريدة. فهذه إحدى القصص التي يُفضِّلُ الصحفيّون وضعها في الصفحة الأولى. الأنباءُ السيِّئة، لاسيّما إذا كانت مُزعِجةً ومُروِّعة، تفتح محفظات الجمهور بفاعليّةٍ رهيبة. وقد تتساءلين، في الأثناء، ما الذي يفعله طفلٌ حبيسٌ في سردابٍ مظلمٍ طوال سبعة أيَّام وسبع ليالٍ؟

في المقام الأوَّل، اسمحي لي أن أخبركِ بأنَّ الإنسان، إذا حُرِمَ من الضوء عدَّة ساعات، يفقد إحساسه بالزمن. تتحوَّلُ الساعاتُ إلى دقائق أو ثوانٍ. أو أسابيع، إن أردتِ. الزمن والضوء مرتبطان ارتباطًا وثيقًا. والحال أنَّ حدثًا عجائبيًّا قد وقع بالفعل خلال تلك الفترة. معجزة. معجزتي الثانية، إن أردتِ، بعد تلك الدقائق التي كنتُ فيها مُعلَّقًا بين الحياة والموت إبَّان ولادتي.

استُجِيبَت دعواتي. لم تذهب سدىً كلُّ تلك المساءات التي أمضيتُها وأنا أُصلِّي في صمت. سمِّيها حظًّا، سمِّيها قدرًا.

جاء دانيال هوفمان إليَّ. إليَّ تحديدًا. اختارني في تلك

الليلة، من بين كلّ أطفال باريس، ليمنحني هبته. ما زلتُ أذكر ذلك النقرَ على الكوّة المؤدّية إلى الخارج، إلى الطريق. لم يكن بوسعي الوصولُ إليها، لكنّني استطعتُ الردَّ على ذلك الصوت؛ أجمل وأعجب صوتٍ سمعتُه في حياتي. صوت يُبدِّدُ الظلمةَ ويُقوِّضُ خوفَ طفلٍ مسكينٍ مذعور، مثلما تذيب الشمسُ الجليد. ولعلمكِ يا سيمون، ناداني دانيال هوفمان باسمي.

وفتحتُ له أبوابَ قلبي. ثمَّ أُضيءَ السردابُ بنورٍ رائع، وظهر هوفمان من العدم، بلباسٍ بهيٍّ وأبيض اللون. لو أنَّكِ رأيتِهِ يا سيمون... ملاكٌ يا سيمون. ملاكٌ نورانيٌّ حقيقيّ. لم أرَ أحدًا في حياتي يشعُّ بتلك الهالة من الجمال والسلام.

أجريتُ ودانيال هوفمان محادثةً حميمةً في تلك الليلة، مثل محادثتنا التي نُجريها أنا وأنتِ الآن. لم تكن هناك ضرورةٌ لأروي له عمّا حلَّ بجابرييل وألعابي الأخرى، كان على دراية. كان مطَّلعًا على كلّ شيء. يعلم حكايات الظلّ التي ترويها لي والدتي. يعلم كلَّ شيءٍ بهذا الخصوص. اطمأننتُ، فاعترفتُ له بأنَّ ذلك الظلَّ يخيفني حقًّا. لا يمكنكِ أن تتصوَّري التعاطفَ والتفهُّمَ اللذين يتميَّزُ بهما ذلك الرجل. أصغى بصدرٍ رحيبٍ إلى حكايتي، وأحسستُ أنَّه يشاركني ألمي وحزني. لاسيّما أنَّه كان يدرك أكبر مخاوفي، أسوأ كوابيسي: الظلّ. ظلّي أنا، ذلك الروحُ الشرّيرُ الذي يلاحقني أينما ذهبتُ، ويتولّى أمرَ كلِّ الشرور التي تختزنها نفسي...

وكان دانيال هوفمان هو الذي شرح لي ما الذي ينبغي فعله. كنتُ حتّى تلك اللحظة جاهلًا مسكينًا، حاولي أن تفهميني. ما

الذي كنتُ أعرفه عن الظلال؟ ما الذي كنتُ أعرفه عن تلك الأرواح الغامضة التي تزور الناسَ في أحلامهم وتُحدِّثُهم عن ماضيهم ومستقبلهم؟ لا شيء.

لكنَّ هوفمان كان يعلم. كان يعلم كلَّ شيءٍ حقًّا. وكان مستعدًّا لمساعدتي.

في تلك الليلة، كشف لي دانيال هوفمان مستقبلي. قال لي إنَّني مُقدَّرٌ عليَّ أن أخلفه على رأس إمبراطوريّته. وشرح لي أنَّ كلَّ علومه، وكلَّ فنونه، ستصبح ملكي يومًا مّا، وأنَّ الفقرَ المحيطَ بي سيزول إلى الأبد. ووضع بين يديَّ مصيرًا ما كنتُ لأحلمَ به. مصير. لم أكن أعرف حتّى ما تعنيه الكلمة. أعطاني إيَّاه. وكان عليَّ أن ألتزم بشيءٍ مّا في المقابل. وعدٌ محدود، تافه: كان عليَّ أن أُسلِّمَ له قلبي. له وحدَه لا لسواه.

سألني مخترعُ الألعاب إن كنتُ أفهم ما يعنيه هذا. أجبتُ نعم، ولم أتردَّد ولو قليلًا. بإمكانه أن يُعوِّلَ على قلبي بكلّ تأكيد. إنَّه الشخصُ الوحيدُ الذي أحسنَ معاملتي. الوحيد الذي اهتمَّ لأمري. قال لي إنَّني سأخرج من هنا قريبًا جدًّا، إن كنتُ راغبًا، وإنَّني لن أرى ذلك البيتَ وذلك الحيَّ ثانيةً أبدًا، ولا حتّى أمّي. وأهمُّ ما في الأمر، قال إنَّني لا ينبغي أن أقلق بشأن الظلّ بعدُ على الإطلاق. فإن فعلتُ ما يطلبه منّي، فستنفتح أمامي أبوابُ المستقبل، الزاهر الباهر.

سألني إن كنتُ أثق به. فأجبتُ نعم. أخرجَ حينذاك قارورةً بلّوريّةً صغيرة، تشبه التي تضعين فيها عطركِ. فكَّ سدَّادتها وهو يبتسم، فشهدت عيناي على رؤيةٍ رهيبة. تحوَّلَ ظلّي المنعكسُ

على الجدار إلى بقعةٍ متراقصة. سحابة قاتمة تشرَّبَتْها القارورة، وتغلغلت في داخلها إلى الأبد. ثمَّ أغلق دانيال هوفمان السدَّادة وأعطاني القارورة. كان بلّورها باردًا كالجليد.

شرح لي حينها أنَّ قلبي، اعتبارًا من تلك اللحظة، بات ملكه، وأنَّ مشاكلي جميعَها ستختفي قريبًا، قريبًا جدًّا. شرط ألّا أخلفَ وعدي. قلتُ له إنَّني لن أفعلَ شيئًا كهذا على الإطلاق. فابتسم من جديد بمودّة وأعطاني هديّة. مشكال. وطلب منّي أن أغمضَ عينيَّ، وأن أُفكِّرَ بكلّ ما أوتيتُ من قوَّةٍ في أكثر شيءٍ أتمنَّاه في الكون. وبينما كنتُ أُنفِّذُ طلبه، انحنى أمامي وقبَّلَني على جبيني. وعندما فتحتُ عينيَّ ثانيةً، لم أجده.

وبعد أسبوع، تلقَّت الشرطةُ إبلاغًا من مصدرٍ مجهول عمّا جرى في بيتي، وجاؤوا وأخرجوني من تلك الفتحة. وكانت أمّي متوفّاة...

وفي الطريق إلى القسم، كانت عرباتُ الإطفاء تتوغَّلُ في الشوارع. شممتُ رائحةَ حريقٍ في الهواء. انحرفت سيّارةُ الشرطة التي كانت تقلُّني، فرأيتُ في الأفق مصنعَ دانيال هوفمان يشتعل بأكبر الحرائق المرعبة في تاريخ باريس. لم ينتبه الناسُ إطلاقًا إلى وجوده، وكانوا آنذاك يشاهدون كاتدرائيّة النيران تلك. تذكَّرَ جميعهم حينها اسمَ تلك الشخصيّة التي ملأت أحلامَ طفولتهم: دانيال هوفمان. كان قصرُ الإمبراطور يحترق...

تصاعدت ألسنةُ اللهب وأعمدةُ الدخان الأسود نحو السماء طوال ثلاثة أيَّام وثلاث ليالٍ، كأنَّ العالمَ السفليَّ فتح أبوابَه في قلب المدينة القاتم. وأنا كنتُ هناك، ورأيتُه بأمّ عينيّ. وبعد

أيَّام، حين لم يبق سوى الرماد شاهدًا على الوجود السابق لتلك البناية الخارقة في ذاك المكان، نشرت الصحفُ الخبر.

ومع الوقت، وجدت السلطاتُ أحدَ أقارب والدتي الذي تولّى رعايتي، وذهبتُ لأعيش مع عائلته في كاب دانتيب. فنشأتُ وتربَّيتُ هناك. حياةٌ طبيعيّة. سعيدة. مثلما وعدني دانيال هوفمان. حتّى إنّي استطعتُ أن أختلقَ ماضيًا مختلفًا لأرويه على نفسي، وهي القصَّة التي رويتُها لكِ.

وفي اليوم الذي أتممتُ فيه عامي الثامن عشر، وصلتني رسالة. كان الختمُ يرجع إلى قبل ثماني سنوات، من مكتب البريد في مونبارناس. وكان صديقي القديم، في تلك الرسالة، يُبلِغني أنَّ المكتبَ الحقوقيَّ الذي يشرف عليه السيِّد جلبير ترافان، في فونتينبلو، يحتفظ بخرائط قصرٍ على ساحل النورماندي سيصبح ملكي شرعيًّا حالما أُتِمُّ سنَّ الرشد. وكانت الرسالةُ، المغلَّفةُ بظرفٍ من الرقّ، مختومةً بحرف «د».

استغرقتُ بضع سنواتٍ لأحصلَ على قصر كريڤنمور. وغدوتُ في الأثناء مهندسًا واعدًا. كانت مشاريعي، المتخصِّصة بصنع الألعاب، مُتفوِّقةً على كافّة المشاريع المعروفة حتّى ذلك الحين. أدركتُ أنَّه قد آن أوانُ بناء مصنعٍ لي وحدي. في كريڤنمور. كان كلُّ شيء يجري مثلما قيل لي. إلى أن وقع *الحادث*. على أبواب سان ميشيل، ١٣ فبراير. كانت تُدعى ألكساندرا ألما مالتيس، وكانت أجملَ فتاة رأتها عيني.

احتفظتُ طوال تلك الأعوام بالقارورة التي أعطاها لي دانيال هوفمان، في تلك الليلة حينما زارني في السرداب. كانت ما تزال

باردةً على الملمس. لكنّي أخلفتُ وعدي لهوفمان وسلّمتُ قلبي لتلك الفتاة. وتزوّجتُها. كان أسعد يومٍ في حياتي. وفي الليلة ما قبل الزفاف، الذي أقيمَ في كريڤنمور، أخذتُ القارورةَ التي تحتوي على ظلّي واتّجهتُ إلى جرف الرأس. وهناك أودعتُها للنسيان إلى الأبد، ورميتُها في المياه الداكنة.

وبذلك أكون قد نكثتُ عهدي...

*

كانت الشمسُ تبدأ هبوطَها على الخليج عندما تراءت لإسماعيل وإرين الواجهةَ الخلفيّةَ لبيت الرأس من بين الأشجار. بدا التعبُ الذي يجرّانه خلفهما قد اختفى في مكانٍ غير بعيد، يتحيَّنُ اللحظةَ المواتيةَ للظهور مرّةً أخرى. كان إسماعيل قد سمع عن هذه الظاهرة، تُراوِدُ الرياضيّين عندما يتعدُّون حدودَ تحمُّلهم. فالجسد، إذا تجاوزَ ذلك الحدَّ، يمضي قُدُمًا ولا يُبدي أيًّا من أعراض التعب. إلى أن تتوقَّفَ الماكينة، هذا واضح. وحالما ينتهي الإجهادُ، ينزل العذابُ بأجسادهم دفعةً واحدة. إعارةُ العضلات، إن صحَّ التعبير.

- فيمَ تُفكِّر؟ - سألته إرين، وقد لاحظت العبوسَ على وجه الفتى.

- أُفكِّرُ في أنّني جائع.

- وأنا كذلك. أليس هذا غريبًا؟

- على العكس. لا أفضل من نوبة فزعٍ لفتح شهيّة المعدة. - مازحها إسماعيل.

كان الهدوءُ يعمُّ البيت، ولا أثره لساكنيه. ثمَّة إكليلان من الثياب الناشفة، المعلَّقة على المناشر، تتمايل مع الريح. التقط إسماعيل بطرف عينه نظرةً خاطفةً لما بدت أنَّها ملابسُ إرين الداخليّة. سرح وهو يتخيَّلُ مظهرَ رفيقته بتلك الثياب.

- هل أنت بخير؟ - سألته.

ابتلع الفتى ريقه، لكنَّه هزَّ رأسه مؤكِّدًا.

- متعبٌ وجائع، هذا كلُّ ما في الأمر.

وجَّهَت له إرين ابتسامةً ملغَّزة. قدَّرَ إسماعيل، في اللحظة ذاتها، إمكانيّةَ أن تكون النساءُ كلُّهنَّ قادراتٍ على استقراء الأفكار. خيرٌ له ألّا يسرحَ بتخيُّلاتٍ كتلك على معدةٍ خاوية.

حاولت الفتاةُ أن تفتحَ البابَ الخلفيَّ، لكنَّ أحدهم قفله من الداخل على ما يبدو. تحوَّلَت ابتسامةُ إرين إلى تكشيرةٍ تنمُّ عن استغراب.

- ماما؟ دوريان؟ - نادت وهي تتراجع عدَّة خطوات لتتفحَّصَ نوافذَ الطابق الأوَّل.

- فلنُجرِّب من الجهة الأخرى. - قال إسماعيل.

تبعتْهُ ودارا حول البيت حتّى وصلا إلى الترّاس، فداست أقدامهما على بساطٍ من الزجاج المتكسِّر. توقَّفَ إسماعيل وإرين وشاهدا البابَ المخلوعَ والنوافذَ المهشَّمة. بدا للوهلة الأولى أنَّ انفجارًا بسبب الغاز خلع البابَ من مفاصله، ونفث عاصفةً من زجاجٍ إلى الخارج. حاولت إرين أن تتمالكَ موجةَ البرد التي صعدت من بطنها. بلا جدوى. وجَّهَت نظرةً مذعورةً إلى إسماعيل وهمَّت لدخول البيت، فاستبقاها.

- سيِّدة سوڤيل؟ - نادى من التّراس.

اختفى صوتُه في عمق البيت. اندفع إسماعيل بحذرٍ إلى الداخل وعاين المشهد. أطلَّت إرين من خلفه وزفرت.

كان الوصفُ الأنسبُ لحال البيت، إن أمكن، يتلخَّصُ في كلمةٍ واحدة: دمار. لم يرَ إسماعيل آثارَ إعصارٍ في حياته، لكنَّه تصوَّرَ شيئًا مشابهًا لما كانت عيناه تنقلانه إليه.

- يا إلهي...

- حذار من شظايا الزجاج! - نبَّهَها الفتى.

- أمَّاه!

دوّى صدى الصرخة في أنحاء البيت، مثل روحٍ تتجوَّلُ من غرفةٍ إلى أخرى. اتَّجه إسماعيل إلى أسفل السلَّم، دون أن تغيب إرين عن عينه لحظةً واحدة، وألقى نظرةً إلى الطابق الأعلى.

- فلنصعد. - قالت.

صعدا السلَّمَ ببطء، وهما يتفحَّصان الآثارَ التي خلَّفتَها تلك القوَّةُ العاتيةُ والخفيّة. لاحظت إرين أوَّلًا أنَّ غرفةَ سيمون بلا باب.

- كلّا... - غمغمت.

وصل إسماعيل إلى عتبة الغرفة وتحرَّى. لا شيء. فتَّشَ غرفَ الطابق الأوَّل غرفةً غرفة. لا أحد.

- أين هما؟ - سألت الفتاةُ بصوتٍ مرتجف.

- لا يوجد أحدٌ هنا. فلنعد إلى الأسفل.

بدا له أنَّ العراكَ، أو أيًّا كان ما وقع، عنيفٌ جدًّا. احتفظ الفتى بكلّ ملاحظاته بهذا الخصوص، وراوده هاجسٌ مشؤومٌ

حيال مصير عائلة إرين. وما زالت الفتاةُ مصدومةً، تبكي في صمتٍ أسفل السلَّم. «بضع دقائق وتندلع الهستريا» - قال إسماعيل في نفسه. من الأفضل أن يُفكِّرا في أمرٍ آخر، وبسرعة، قبل وقوع المحظور. قلَّبَ عشرات الاحتمالات، كلُّها بلا جدوى، فإذا هما يسمعان طَرْقًا. ثمَّ طغى صمتٌ قاتل.

رفعت إرين أنظارها، وهي باكية، وبحثت عيناها عن تأكيدٍ من جانب إسماعيل. فأومأ الفتى رافعًا إصبعه ليشيرَ لها بالتزام الصمت. تكرَّر الطَّرْقُ، حادًّا وفولاذيًّا، مسافرًا في هيكل البيت. استغرق إسماعيل قليلًا من الوقت لتحديد مصدر ذلك الطَّرْق الأبكم والمخفَّف. صوتٌ معدنيّ. شيءٌ مّا، أو أحدٌ مّا، يطرق قطعةً معدنيّةً في مكانٍ مّا. تكرَّرَ الصوتُ بوتيرةٍ منتظمة. أحسَّ إسماعيل بالاهتزازات تحت قدميه، ووقعت عيناه على بابٍ مغلقٍ في الممرّ المفضي إلى المطبخ، في الجانب الخلفيّ من البيت.

- إلى أين يؤدّي ذلك الباب؟

- إلى السرداب... - أجابت إرين.

اقترب الفتى منه وألصق أذنه على لوحه الخشبيّ. تكرَّرَ الطَّرْقُ مرَّةً أخرى. حاول أن يفتح، لكنَّ المقبضَ كان مقفلًا.

- هل من أحدٍ في الداخل؟ - صاح.

سمع صوتَ خطواتٍ تصعد السلَّم.

- انتبه. - قالت إرين.

ابتعد إسماعيل عن الباب. خيَّمَت على ذهنه صورةُ الملاك وهو يخرج بغتةً من السرداب. تناهى إلى مسمعهما صوتٌ خافتٌ وبعيدٌ من الجانب الآخر. انتفضت إرين وركضت نحو الباب.

- دوريان؟

غمغم الصوتُ مخنوقًا.

نظرت إرين إلى إسماعيل وهزَّت رأسها.

- إنَّه أخي...

تأكَّدَ الفتى حينذاك أنَّ خلعَ الباب، أو تحطيمه في هذه الحالة، عمليّةٌ أعقد بكثير ممّا توحي به المسلسلاتُ الإذاعيّة. واستغرق الأمر عشر دقائق كاملة حتّى تراخى أخيرًا، بالاستعانة بقضيبٍ حديديٍّ وجداه في الخوان. تراجع إسماعيل وهو يزرب عرقًا، فنفَّذَت إرين الرفسةَ القاضية. سقط القفلُ أرضًا، بكتلته المكوَّنة من شظايا الخشب النافر عن المرفق الصلب والصدأ. حتّى لقد بدا على مرأى إسماعيل أشبه بقنفذ.

وبعد لحظة، ظهر ولدٌ شاحبٌ من الظلام. كان وجهُهُ رازحًا تحت قناعٍ من الرعب، ويداه ترتجفان. لاذ دوريان في حضن شقيقته، كحيوانٍ مذعور. نظرت إرين إلى إسماعيل. من الواضح أنَّ الفتى قد رأى ما يقشعرُّ له البدن، أيًّا كانت طبيعته. جلست إرين القرفصاء أمامه ونظَّفَت وجهَه الملطَّخ بالأوساخ والدموع الجافّة.

- هل أنت بخير يا دوريان؟ - سألته بهدوء، وجسَّت جسمه بحثًا عن جروحٍ أو كسور.

هزَّ دوريان رأسه غير مرَّة.

- أين ماما؟

رفع الصبيُّ نظره. كانت عيناه راكدتين من شدّة الخوف.

- دوريان، أجبني، الأمر خطير. أين ماما؟

- أخذها بعيدًا. . . - تلعثم.

تساءل إسماعيل كم بقي دوريان حبيسًا هناك في الأسفل، وسط الظلام.

- أخذها بعيدًا. . . - ردَّدَ دوريان، كما لو أنَّه تحت تأثير المنوِّم.

- مَن أخذها بعيدًا يا دوريان؟ - سألته إرين ببرود - مَن أخذ أمَّنا بعيدًا؟

نظر دوريان إليهما، وابتسم موحيًا بأنَّ السؤالَ الذي يطرحانه عليه كان سخيفًا.

- الظلّ. . . - أجاب - الظلُّ أخذها بعيدًا.

تلاقت أعينُ إرين وإسماعيل.

سحبت نفسًا عميقًا ووضعت يداها على ذراعي أخيها.

- دوريان، سأطلب منك أن تفعل شيئًا في غاية الأهمّيّة. هل تفهمني؟

أومأ مؤكِّدًا.

- عليك أن تتَّجه مُسرِعًا إلى البلدة، إلى الشرطة، وأن تُبلِغَ رئيسَ القسم بأنَّ حادثًا مُروِّعًا قد وقع في كريثمور، وأنَّ أمَّنا هناك، مصابةً. وأن يتحرَّكوا عاجلًا. هل فهمت؟

رمقها دوريان مشتَّتَ الذهن.

- لا تُخبِرْهم بشيءٍ عن الظلّ. قل ما سمعتَه منّي فقط. الأمر في منتهى الخطورة والأهمّيّة. . . لأنَّك إن أخبرتهم عن الظلّ فلن يُصدِّقوك. أبلغْهم عن وقوع *حادث* لا غير.

أومأ إسماعيل.

- افعل ذلك من أجلي، ومن أجل ماما. هل أنت قادر؟

نظر دوريان إلى إسماعيل ومن ثَمَّ إلى شقيقته.

- ماما تعرَّضت لحادثٍ وهي مصابةٌ في كريڤنمور. وتحتاج إلى مساعدةٍ عاجلة. - ردَّدَ الفتى - لكنَّها بخير، أليس كذلك؟

ابتسمت له إرين وعانقته.

- أحبُّك. - همست له.

قبَّلَ دوريان خدَّ شقيقته، وأدّى تحيّةً رفيقيّةً لإسماعيل، ثمَّ هُرِعَ راكضًا يبحث عن درَّاجته. وجدها بجانب سياج الترّاس. أُحيلَت هديّةُ لازاروس إلى شبكةٍ من أسلاكٍ ومعدنٍ معوَّج. تأمَّلَ الفتى تلك البقايا بينما أطلَّت إرين وإسماعيل وانتبها إلى الاكتشاف المرعب.

- مَن بوسعه فعلُ شيءٍ كهذا؟ - سأل دوريان.

- من الأفضل أن تستعجلَ يا دوريان. - ذكَّرَته إرين.

هزَّ رأسه موافقًا وانطلق مُسرِعًا. وما إن اختفى، خرجت إرين وإسماعيل إلى الترّاس. كانت الشمسُ تغيب على الخليج، لترسمَ كوكبًا مظلمًا ونازفًا بين السُّحُب، وتصبغَ البحرَ بالحمرة. نظر كلٌّ إلى الآخر واستوعبا، دون الحاجة إلى كلمات، ما كان بانتظارهما في قلب الظلام، ما وراء الغاب.

DOPPELGÄNGER .12

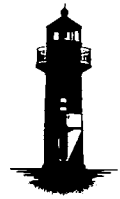

- لم ولن تشهد مذابحُ الكنائس كلُّها عروسًا أجمل منها. - قال القناع - أبدًا.

كانت سيمون تسمع بكاءَ الشموع الصامت وهي تتوهَّجُ في العتمة، والريحُ خلف الجدران تولول كلَّما اصطدمت بحشد الغراغيل التي تُزيِّنُ كريڤنمور. صوتُ الليل.

- محى النورُ التي حملتْه ألكساندرا إلى حياتي كلَّ الذكريات الأليمة والأحزان التي سكنت ذاكرتي منذ الطفولة. وما زلتُ حتّى يومنا هذا أعتقد أنْ لا أحد من الناس بلغ عتبةَ السعادة والسلام تلك. لم أعد ذلك الفتى المنحدر من أفقر أحياء باريس. نسيتُ ما عانيتُه من فترات الحبس الطويلة تحت الظلام. تركتُ وراء ظهري السردابَ المظلمَ الذي أيقنتُ فيه من سماع أصوات، حيث قال لي صوتُ ضميري المؤنِّب إنَّ الظلَّ الذي أخرجه مرضُ والدتي من الجحيم حيٌّ بحقّ. نسيتُ الكابوسَ الذي لاحقني أعوامًا... كنتُ أراني فيه أهبط سلالم عجائبيّةً من عمق سرداب

بنايتنا بشارع غوبلان إلى ضفاف نهر العذاب في العالم السفليّ. تركتُ كلَّ هذا وراء ظهري. أتعلمين لماذا؟ لأنَّ ألكساندرا ألما مالتيس، ملاكَ حياتي الحقيقيَّ، علَّمتني أنَّني لم أكن شرّيرًا، خلافًا لما ردَّدته أمّي عليَّ مذ تشكَّلَ وعيي. أتدركين الأمر يا سيمون؟ لم أكن شرّيرًا. كنتُ مثل الآخرين، مثل أيّ شخصٍ آخر. كنتُ بريئًا.

توقَّفَ صوتُ لازاروس برهةً. تصوَّرَت سيمون الدموعَ التي تسيل خلف القناع بصمت.

- اكتشفنا كريڤنمور معًا. يظنُّ كثيرٌ من الناس أنَّ كلَّ الأعاجيبَ التي تحتوي عليها هذه الدارُ من صنعي. غير صحيح. صنعتُ منها جزءًا بسيطًا بيديَّ هاتين. أمّا البقيّةُ التي تزخر بها الممرَّات، والتي يصعب فهمها حتّى عليَّ، كانت موجودةً أساسًا عندما دخلتُ إلى هنا للمرَّة الأولى. لم ولن أعرف أبدًا منذ متى كانت في هذه الدار. فكَّرتُ أحيانًا أنَّ آخرين شغلوا مكاني من قبلي. وأحيانًا أخرى، في الليل خصوصًا، أصيخ السمع، فيتهيَّأ لي أنَّني أسمع صدى أصواتٍ أخرى، وخطواتٍ أخرى تسكن ممرَّات هذا القصر. وأفكِّرُ من حينٍ إلى حين بأنَّ الزمنَ توقَّفَ في كلّ غرفة، في كلّ ممرٍّ مُقفِر، وأنَّ كلَّ الأجسام الآليّة هنا كانت من لحمٍ وعظمٍ ذات يوم. مثلي.

كففتُ عن القلق من هذه الألغاز منذ وقتٍ طويل، حتّى بعد أن تحقَّقْتُ من أنَّني، على الرغم من الأشهر المنقضية في كريڤنمور، ما زلتُ أكتشف غرفًا جديدةً لم أرها من قبل، وأروقةً جديدةً تفضي إلى أجنحةٍ مجهولة... أعتقد أنَّ بعضَ الأماكن،

والقصورَ العريقةَ التي تُعدُّ على أصابع اليد الواحدة، هي أكثرُ من أن تكون مُجرَّدَ أبنية؛ إنَّها كائناتٌ حيّة. لها روحٌ وطريقةٌ للتواصل معنا. وكريڤنمور واحدٌ من تلك الأماكن. لا أحد يعرف متى بُنيَت هذه الدار. ولا مَن بناها وفي سبيل أيّ غاية. لكنّي أسمع هذه الدار حين تتكلَّم...

قبل صيف العام ١٩١٦، أي في ذروة سعادتنا، وقع خطبٌ مّا. كان قد بدأ قبل عامٍ في الحقيقة، لكنّي لم أعرف به. ففي اليوم الأوَّل بعد الزواج، نهضت ألكساندرا فجرًا وذهبت إلى الصالة البيضويّة الكبيرة لتتمعَّنَ في مئات الهدايا التي تلقَّيناها. لفت انتباهَها صندوقٌ صغيرٌ مُخرَّمٌ يدويًّا. تحفة. افتُتِنَت به ألكساندرا، ففتحته. كانت فيه رسالةٌ وقارورةٌ بلّوريّة. الرسالة موجَّهةٌ إليها، وفحواها أنَّ الهديّةَ مميَّزة. مفاجأة. تقول الرسالةُ إنَّ القارورةَ تحتوي على عطري المفضَّل، العطر الذي كانت أمّي تستخدمه، وينبغي لألكساندرا أن تحتفظ به، وألّا تستخدمه إلى أن تحين الذكرى السنويّة الأولى لزفافنا. على أن يبقى الأمرُ سرًّا بينها وبين المُرسِل، أحد أصدقاء طفولتي، دانيال هوفمان...

اتَّبعت التوجيهاتِ بأمانة، موقنةً من أنَّها تفعل ما سيُسعِدني، واحتفظت بالقارورة اثني عشر شهرًا، إلى أن حان اليومُ الموعود. فتحت الصندوقَ في ذلك اليوم. لم يكن يحتوي على عطر، هذا واضح. كانت هي القارورةُ التي رميتُها في البحر عشيّة زفافنا. وما إن فكَّت ألكساندرا السدَّادةَ حتّى انقلبت حياتُنا كابوسًا...

صرتُ أتلقّى رسائل من دانيال هوفمان منذ بتلك اللحظة.

كان يراسلني حينذاك من برلين، حيث لديه مشروعٌ كبير كما قال لي، مشروعٌ سيُغيِّرُ العالم. كان ملايينُ الأطفال يتلقّون زياراته وهداياه. ملايين الأطفال سوف يُشكِّلون يومًا مّا أعظمَ جيشٍ في تاريخ البشريّة. ولم أفهم حتّى اليوم إلى ماذا يرمي بتلك الكلمات...

أهداني كتابًا خلال إحدى مراسلاته الأولى، مُجلَّدًا يوحي بأنَّه أقدم من العالم نفسه. وعلى غلافه كلمةٌ واحدة: Doppelgänger. هل سمعتِ بهذه الكلمة من قبل يا صديقتي العزيزة؟ لا طبعًا. فالأساطيرُ وحيلُ السحر القديمةُ لم تعد تهمُّ أحدًا. هي كلمةٌ ألمانيّةُ الأصل؛ وتشير إلى الظلِّ الذي ينفصل عن صاحبه وينقلب ضدَّه. لكنَّ هذه ليست سوى البداية بطبيعة الحال. وهذا ما حلَّ بي. ولمعلوماتكِ، إنَّ الكتابَ في جوهره دليلٌ على الظلال. روعة. وعندما هممتُ بقراءته، كان قد فات الأوان. إذ إنَّ شيئًا مّا كان ينمو في الخفاء، مُتظلِّلًا بظلمات هذه الدار، شهرًا تلو شهر، كبيضة أفعى تنتظر اللحظة المناسبة لتفقس.

في مايو من العام ١٩١٦ بدأ شيءٌ غريبٌ يحدث لي. خبا نورُ السنة الأولى رفقة ألكساندرا. بدأتُ أهجس بحضور الظلّ بعد ذلك بوقتٍ وجيز. ولكن لا مفرّ. كانت الهجماتُ الأولى عبارةً عن نوبات فزعٍ بسيطة. كنّا نجد ألبسة ألكساندرا ممزَّقة. الأبوابُ تنغلق عند مرورها، وأيدٍ خفيّةٌ ترميها بأغراض. أصواتٌ في الظلام. مجرَّد بداية...

في هذه الدار آلافُ الزوايا التي من الممكن للظلّ أن يختبئ

فيها. أدركتُ عندئذٍ أنَّه كان روحَ خالقه، دانيال هوفمان، وأنَّ الظلَّ سيكبر، ويغدو أقوى يومًا بعد يوم. في حين أنَّني على النقيض، كنتُ سأصبح كائنًا ضعيفًا. كلُّ القوى التي أختزنها ستنتقل إليه، وبينما أعود إلى ظلمات طفولتي التي عشتُها في غوبلان، سأصير أنا الظلَّ وسيصير هو المعلِّم.

قرَّرتُ أن أُغلِقَ مصنعَ الألعاب، وأن أُركِّزَ على هاجسي القديم. عزمتُ على إحياء جابرييل، ملاكي الحارس الذي حماني في باريس. وظننتُ أنَّه سيفلحُ في حمايتي وحماية ألكساندرا من الظلّ، إذا ما رجعتُ إلى الطفولة، وحاولتُ إحياءه. وهكذا خطَّطتُ لصناعة جسم آليٍّ يضاهي أحلامي بقوَّته. عملاق فولاذيّ. ملاك يُخلِّصُني من كابوسي.

ويا لسذاجتي! فما لبث هذا الجبَّارُ أن استطاع النهوضَ عن طاولة العمل في الورشة، حتّى تلاشت كلُّ أوهامي بأن يطيعني. لم يكن يصغي إليَّ، إنّما إلى الآخر. إلى مُعلِّمه. وما كان للظلّ أن يوجد من دوني، فأنا المنبعُ الذي يستمدُّ منه قوَّته. فلم يُخلِّصني الملاكُ من تلك الحياة المقيتة، بل وتحوَّلَ إلى أسوأ الحرَّاس. حارسُ ذلك السرّ الرهيب الذي أُدِنتُ به إلى الأبد، حارسٌ لا يتدخَّلُ إلّا إذا تسنّى لأحدهم أن يكشف ذلك السرّ. يتدخَّلُ بلا شفقة.

أصبحت ألكساندرا تتعرّضُ لهجماتٍ تزداد حدَّتُها. صار الظلُّ أقوى، وكانت خطورتُهُ تتفاقم يومًا بعد يوم. قرَّرَ أن يعاقبني من خلال معاناة زوجتي. إذ كنتُ قد سلَّمتُ لألكساندرا قلبًا لم يعد لي. أمسى ذلك الخطأ هلاكَنا. ولمّا شارفتُ على فقدان

صوابي، لاحظتُ أنَّ الظلَّ لا يتصرَّفُ إلّا إذا كنتُ على مقربةٍ منه. لا يمكنه أن يعيشَ بعيدًا عنّي. ومن أجل هذا السبب قرَّرتُ أن أغادر كريڤنمور، وأن ألجأ إلى جزيرة المنارة. لن يستطيع إيذاءَ أحدٍ هناك. ولن يُكتَبَ على أحدٍ سواي أن يدفعَ ثمنَ خيانتي. لكنّي استخففتُ بقوَّة ألكساندرا. وحبِّها لي. تجاوزت الرعبَ والتهديدَ الذي يطاول حياتها، وجاءت لتساعدني في ليلة الحفلة التنكُّريّة. وما إن اقترب القاربُ الشراعيُّ من الجزيرة، حتّى انقضَّ الظلُّ عليها وسحبها معه إلى قاع البحر. ما زلتُ أسمع قهقهتَه في الظلام عندما برز من بين الأمواج. وفي اليوم التالي عاد إلى تلك القارورة البلّوريّة من جديد. ولم أره بعدُ، طوال العشرين عامًا اللاحقة...

نهضت سيمون عن الكرسيّ وهي ترتجف، وتراجعت خطوةً بخطوة إلى أن ارتطم ظهرُها بجدار الغرفة. لم تعد قادرةً على سماع كلمةٍ أخرى تلفظها شفتا ذلك الرجل، ذلك... المريض. وبعد أن سمعت قصَّته، لم يتبقَّ سوى الغضب ركيزةً تستند إليها وتمنعها من الانهيار إزاء الفزع الذي يوحي به ذلك الشكلُ المقنَّع.

- كلّا يا صديقتي، كلّا... لا تقترفي هذا الخطأ... ألا تفهمين ما الذي يجري؟ عندما أتيتِ بعائلتكِ إلى هنا، أخفقتُ في منع قلبي من الانتباه إليكِ. ولم أفعل ذلك عن عمد. لم أدرك ما وقع إلّا متأخِّرًا. حاولتُ أن أتحاشى ذلك السحرَ بصنع آلةٍ تشبهكِ...

- ماذا؟

- ظننتُ أنَّه ما إن أحيا حضورُكِ هذه الدار، استفاق الظلُّ من سباته بعدما نام عشرين عامًا في تلك القارورة اللعينة. وسرعان ما وجد ضحيَّةً مصيرُها أن تُحرِّرَه من جديد...

- حنَّة... - غمغمت سيمون.

- أعلم ما الذي تشعرين به وتُفكِّرين، صدِّقيني. ولكن لا مفرّ. فعلتُ ما استطعتُ فعله... لا بدَّ أن تُصدِّقيني.

نهض القناعُ واتَّجه نحوها.

- لا تقترب منّي! - زعقت سيمون.

توقَّفَ لازاروس.

- لا أريد إيذاءكِ يا سيمون. أنا صديقكِ. لا تولي إليَّ ظهركِ.

استشعرت المرأةُ موجةَ حقدٍ تتصاعد في أعماق روحه.

- لقد قتلتَ حنَّة...

- سيمون، أرجوكِ...

- أين ابناي؟

- اختارا مصيرهما...

تمزَّقَت روحُها بطعنة غلٍّ باردة.

- ماذا... ماذا فعلتَ بهما؟

رفع لازاروس يديه المغلولتين في القفَّاز.

- لقد ماتا...

ولم يكد ينهي جملتَه، حتّى أطلقت سيمون صرخةً غاضبة، وأخذت شمعدانًا من على الطاولة ورمته نحو الرجل قبالتها. فأصابت قاعدةُ الشمعدان بكامل ثقلها منتصفَ القناع. وتحطَّمَ

الوجهُ الخزفيُّ إلى مئة قطعة، وسقط الشمعدان في الظلام. لا شيء خلف ذلك القناع.

صُدِمَت سيمون، وركَّزَت أنظارها على الكتلة السوداء التي تتماوج أمامها. نزع الجسمُ القفَّازين الأبيضين، ليكشف عن قتامةٍ تامّة. وتراءى حينذاك لسيمون ذاك الوجهُ الشيطانيُّ الذي يتشكَّلُ قبالتها، أشبه بغمامةٍ من ظلالٍ تتَّخذُ حجمًا ببطءٍ وتفحُّ كالثعبان غاضبةً. صُعِقَت أذناها جرَّاء صرخةٍ جهنَّميّة، انطفأت على إثرها كلُّ الشعلات المتوهِّجة في الغرفة. وسمعت سيمون الصوتَ الأصليَّ للظلّ، للمرَّة الأولى والأخيرة. ثمَّ انقضَّ عليها بمخالبه وجرَّها تحت الظلام.

*

كلَّما توغَّلَ إسماعيل وإرين في الغاب، لاحظا كيف يتحوَّلُ الضبابُ الخفيفُ، الذي يغطِّي النباتات، إلى غطاءٍ من ضياءٍ ساطع تدريجيًّا. كان الضبابُ يتشرَّبُ أضواءَ كريثنمور المرتعشة، وينثرها بسرابٍ طيفيّ، ليُشكِّلَ دغلًا حقيقيًّا من بخارٍ مُذهَّب. وما إن تجاوزا تخومَ الغاب، بدا تفسيرُ هذه الظاهرة الغريبة مُربِكًا، ومتوعِّدًا إلى حدٍّ مّا. كلُّ أضواء القصر تلتمع بكثافةٍ عالية من خلف النوافذ الضخمة، لتضفي على البناء العملاق مظهرَ سفينةٍ خياليّة تبرز من الأعماق.

توقَّفَ الفتيان أمام البوَّابة المسنَّنة التي تعيق الدخول إلى الحديقة، وتمعَّنا في تلك الرؤية المخدِّرة. كان طيفُ كريثنمور، تكتنفه هالة الضوء، ما زال محافظًا على هيئته المرعبة في

الظلام. تبرز وجوهُ عشرات الغراغيل مثل حرَّاسٍ في كابوس. لكنَّهما لم يتوقَّفا بسبب تلك الرؤية. ثمّة شيءٌ آخر يطفو في الهواء، حضورٌ خفيٌّ ومرعبٌ إلى أبعد الحدود. تجهَّمت الريحُ بأصوات عشرات بل مئات الآليّين الذين يتحرَّكون ويتجوَّلون في داخل المقام، إضافةً إلى نشاز لعبة الأحصنة الدوَّارة، والقهقهات الآليّة الصادرة عن قطيعٍ من الكائنات المختبئة.

أصغى إسماعيل وإرين إلى صوت كريڤنمور مصعوقَيْن، وتعقَّبا مصدر تلك الأصوات المتنافرة والجهنَّميّة إلى باب الدار. كان المدخلُ، المخلوع، ينفث بخارًا ضوئيًّا ذهبيًّا، وخلف البخار تختلج الظلالُ وتتراقص على تلك الأنغام التي تُجمِّدُ الدماءَ في العروق. ضغطت إرين لاإراديًّا على يد إسماعيل، فوجَّهَ إليها نظرةً حادّة.

- هل أنتِ متأكِّدة من ضرورة الدخول؟ - سأل.

تبدّى طيفُ راقصةٍ تدور حول نفسها من إحدى النوافذ. فأشاحت إرين أنظارها.

- لستَ مضطرًّا إلى المجيء معي. إنَّها أمّي في النهاية...

- عرضٌ مُغرٍ. لا تُكرِّريه مرَّتين. - قال إسماعيل.

- موافقة. - هزَّت رأسها - فليقع ما يقع.

- فليقع ما يقع.

سار الفتيان إلى معراج المدخل، وهما يحاولان ألّا يلقيا بالًا للقهقهات، والموسيقى، والأضواء، والاستعراض الرهيب الذي تؤدّيه الأشباحُ التي تسكن في ذلك المكان. وما إن أحسَّ إسماعيل بروح الدار التي تُحدِقُ بهما، أدرك أنَّ ما شهداه حتّى

تلك اللحظة ليس سوى المقدِّمة. لم يرعبه الملاكُ وآلاتُ لازاروس الأخرى. إنّما هنالك شيءٌ في تلك الدار. حضورٌ ملموسٌ ومُتجبِّر. حضورٌ يقطر حقدًا وغضبًا. وقد عَلِمَ إسماعيل، بطريقةٍ مّا، أنَّه كان في انتظارهما.

*

طرق دوريان باب الدرك أكثر من مرَّة. كان مقطوعَ الأنفاس، وتكاد ساقاه تذوبان. إذ ركض كالممسوس عبر الغاب، إلى شاطئ الإنكليز، ثمَّ اتَّخذ الطريق الطويلة الموازية للساحل، حتّى وصل إلى البلدة، بينما كانت الشمس تختبئ في الأفق. لم يتوقَّف ولو لحظة، موقنًا بأنَّه إن حصل على استراحةٍ فلن يستطيع أن يمشي لعشرة أعوامٍ قادمة. يدفعه هاجسٌ واحد: صورة ذلك الجسم الشبحيّ وهو يحمل أمَّه بعيدًا في الظلمات. كان يكتفي بتذكُّر هذه الصورة ليركضَ إلى آخر العالم.

وعندما انفتح بابُ الدرك أخيرًا، تقدَّمَ العميلُ جوبار البدين خطوتين. تفحَّصَت عينا الشرطيّ ذلك الولد الذي بدا آيلًا للسقوط. وظنَّ دوريان أنَّه يرى وحيدَ قرن. ابتسم الشرطيُّ ابتسامةً مُتهكِّمة، وأوغل إبهاميه في جيوب البزّة باحترافيّة، وأبدى تكشيرة الـ«أهذا وقت الإزعاج؟». تنهَّدَ دوريان وحاول أن يمضغَ لعابَه، ولكن لم يبق من اللعاب أيُّ قطرة.

- والآن؟ - زعق جوبار.

- ماء...

- هذا ليس مقهى، أيُّها الزميل سوڤيل.

من الوارد أن تكون الغايةُ من عيِّنة السخرية تلك هي تسليطَ الضوء على مواهب التعرُّف التي يُحسَدُ عليها الشرطيُّ، وغريزة كلب الصيد التي يتميَّزُ بها فرسُ النهر هذا. ومع ذلك، أدخل جوبار الفتى وسقاه كأس ماء. لم يكن دوريان قد فكَّرَ أنَّ الماءَ بهذه العذوبة يومًا.

- مزيدًا.

أعطاه جوبار كأسًا أخرى، ووجَّهَ إليه هذه المرَّة نظرةً توحي بأنَّه شارلوك هولمز.

- تفضَّلْ.

عبَّ دوريان الماء حتّى القطرة الأخيرة والتفت إلى الشرطيّ. عادت توجيهاتُ إرين إلى ذاكرته، منتعشةً وكاملة.

- أمّي تعرَّضت لحادث، وهي مصابة. إصابة خطيرة. في كريثمور.

احتاج جوبار إلى بعض الوقت ليعالج هذا القدر من المعلومات.

- أيُّ نوعٍ من الحوادث؟ - استجوبه بنبرة مراقبٍ زائف.

- تحرَّكْ! - صاح دوريان.

- إنَّني بمفردي. لا يمكنني مغادرة القسم.

زفر الصبيّ. فمن بين كلّ المغفَّلين في هذا الكوكب، التقى بأكثرهم نموذجيّةً.

- اتَّصل عبر اللاسلكيّ! افعل شيئًا! فورًا!

دفعتْه نبرةُ دوريان ونظرتُه، وما فيهما من استنفار، لتحريك

مؤخِّرته الكبيرة، والاتِّجاه إلى اللاسلكيّ وتشغيل الجهاز. التفت إلى الولد ونظر مُتشكِّكًا.

- اتَّصل! الآن! - صرخ دوريان.

*

استعاد لازاروس وعيه بغتةً، وشعر بألم صاعقٍ بالرقبة. حمل يده إلى رأسه وجسَّ الجرحَ المفتوح. تذَكَّرَ بصورةٍ مبهمة وجهَ كريستيان في ممرّ الجناح الغربيّ. لقد أذاه الرجلُ الآليُّ وسحبه إلى هناك. نظر لازاروس حوله. كان في إحدى غرف كريڤنمور الكثيرة غير المستعملة.

نهض على رِسْلِهِ وحاول أن يُرتِّبَ أفكاره. انتابه إرهاقٌ عميقٌ ما إن وقف على قدميه. أغمض عينيه وتنفَّسَ بعمق. وعندما فتحهما، لاحظ مرآةً صغيرةً مُعلَّقةً على جدار. اقترب منها وعاين انعكاسه.

ثمَّ اتَّجه نحو نافذةٍ تطلُّ على الواجهة، فإذا هو يرى شبحين يقطعان الحديقةَ باتِّجاه باب الدار.

*

اجتاز إسماعيل وإرين العتبة وغطسا في حزمة الضوء المنبعث من أعماق الدار. انهالت عليهما أصداءُ لعبة الأحصنة الدوَّارة، والقعقعةُ الحديديّةُ لآلاف الماكينات التي انبعثت فيها الحياة، انهالت عليهما مثل أنفاسٍ مُتجمِّدة. وكانت مئاتُ المنظومات الدقيقة تتحرَّكُ على الجدران. عالمٌ من مخلوقاتٍ

مستحيلةٍ يتفاعل في الخزائن، والآلات المعلَّقة في الهواء. لا يمكن للأنظار أن تتوجَّهَ إلى ناحيةٍ دون أن ترى فيها كائناتِ لازاروس وهي تتحرَّك. ساعاتٌ مزوَّدةٌ بوجوه، وعرائسُ تمشي كالمتسرنمين، وسحناتٌ مرعبةٌ تبتسم كالذئاب الجائعة...

- لا تبتعد عنّي هذه المرَّة. - قالت إرين.

- لم أُفكِّر في هذا. - ردَّ إسماعيل، مُتهيِّبًا من عالم الكينونات المتحرِّكة حوله.

سارا مترين فإذا بباب الدار ينغلق خلفهما بشدَّة. صرخت إرين وتمسَّكت بالفتى. وبرز شبحُ رجلٍ عملاق أمامهما. كان وجهه مخفيًّا بقناعٍ يُمثِّلُ مُهرِّجًا شيطانيًّا. حدقتان خضراوان تتَّسعان من خلف القناع. تراجع الفتيان فيما كان الشبحُ يتقدَّم. لمعت سكّينٌ في يده. وَمَضَت في ذاكرة إرين صورةُ كبير الخدم الآليّ الذي فتح لعائلتها البابَ في أوَّل زيارةٍ إلى كريڤنمور. كريستيان. هكذا كان اسمه. رفع الرجلُ الآليُّ السكّينَ عاليًا.

- إيَّاك يا كريستيان! - صرخت إرين - إيَّاك!

توقَّفَ كبيرُ الخدم. سقطت السكّينُ من يده. نظر إسماعيل إلى الفتاة ولم يفهم شيئًا. وتحجَّرَ الآليُّ وهو يُحدِّقُ إليهما.

- هيّا بسرعة! - أمرت الفتاةُ ودخلت إلى الدار.

ركض إسماعيل خلفها، بعد أن حمل السكّينَ التي سقطت من كريستيان. وبلغ إرين عند الدوَّامة العموديّة التي تصعد نحو القبَّة. نظرت الفتاةُ حولها وبحثت عن الوجهة الصحيحة.

- إلى أين الآن؟ - سألها إسماعيل وهو يتلفَّتُ إلى الخلف.

تردَّدت إرين، عاجزةً عن اختيار الطريق الأنسب للتقدُّم في متاهة كريثنمور.

فإذا هي تستشعر نسمةً باردةً من أحد الممرَّات، وسمعا صوتًا أجوفَ ذا وقعٍ حديديّ.

- إرين... - همس الصوت.

التحمت أعصابُ الفتاة بشبكةٍ مُتجمِّدة. انطلق الصوتُ من جديد. حدَّقَت إرين إلى آخر الممرّ. اتَّبعَ إسماعيل نظرتها ورآها. كانت سيمون تطفو على البِلاط، تكتنفها هالةٌ من ضباب، وتتقدَّمُ نحوهما مبسوطة الذراعين. شعشعت عيناها بلمعانٍ شيطانيّ. وكانت أنيابُها الذئبيّةُ المسنَّنةُ تبرز من بين شفتيها الخشنتين.

- ماما. - نحبت إرين.

- هذه ليست أمَّكِ... - قال إسماعيل، وأبعد الفتاةَ عن مرمى ذلك الكائن.

سفع الضوءُ وجهَها وكشف عمّا يكتنزه من رعبٍ مهول. ارتمى إسماعيل على إرين ليصدَّ عنها مخالبَ الآلة. دار الجسمُ حول نفسه وعاد لمواجتهمها. لم يُنجَزْ من وجهه سوى النصف. والنصف الآخر قناعٌ حديديّ.

- إنَّها الدميةُ التي سبق أن رأيناها. ليست أمَّكِ. - قال الفتى محاولًا انتشالَ صديقته من السحر الذي أغرقتْها فيه تلك الرؤية - ذلك الوحشُ يُحرِّكُ هذه الآلات كما لو كانت عرائس...

صدرت طقطقةٌ من النظام الذي يُشغِّلُ الآلة. رأى إسماعيل أنَّ المخالبَ تتحرَّكُ بسرعةٍ قصوى نحوهما مجدَّدًا. فأمسك بإرين وفرَّ هاربًا إلى حيث لا يدري. ركضا بكلّ ما أوتيا من سرعة، في

ممرٌّ على جانبيه أبوابٌ تنفتح عند مرورهما، وأشباحٌ تتهاوى من سقفه.

- أسرعي! - صرخ إسماعيل حين سمع طَرْقَ الأسلاك خلفهما.

التفتت إرين. انغلقت الأنيابُ الذئبيّةُ، لتلك النسخة المرعبة عن أمِّها، على بُعد عشرين سنتمترًا عنها. وانقضَّت أطرافُ مخالبها الخمسةُ على وجهها. جذبها إسماعيل إليه ودفعها نحو صالةٍ كبيرةٍ ومعتمة.

وقعت الفتاةُ على الأرض، وأغلق الفتى البابَ خلفهما. انغرست مخالبُ الآلة في الخشب، كأنَّها نصالُ سهامٍ قاتلة.

- يا إلهي... - زفرت إرين - هذا يكفي...

رفعت عينيها. كانت بشرتُها من لون الورق.

- هل أنتِ بخير؟ - سألها إسماعيل.

أومأت بشكلٍ مبهم ثمَّ نظرت حولها. جدرانٌ من كتبٍ تصعد إلى ما لا نهاية. آلاف وآلاف المجلَّدات تُشكِّلُ لولبًا بابليًّا، متاهةً من ممرَّاتٍ وسلالم.

- نحن في مكتبة لازاروس.

- آمل أن يكون هناك مخرجٌ آخر إذًا، لأنَّني لا أُفكِّرُ في النظر إلى الخلف مرَّةً أخرى... - قال إسماعيل، مشيرًا إلى الباب.

- لا بدَّ من وجود مخرج. أعتقد ذلك، لكنّي لا أعرف أين.

- قالت وهي تتَّجه نحو منتصف الصالة الرحبة في حين وضع الفتى كرسيًّا على الباب.

إن صمدت هذه الدفاعاتُ أكثر من دقيقتين - حدَّثَ نفسه - فإنَّه سيؤمن بالمعجزات إيمانًا أعمى. غمغم صوتُ إرين خلف ظهره. التفت الفتى فرآها بجانب طاولة قراءة، تعاين كتابًا عتيقًا.

- هنا ثمّة شيءٌ مّا. - قالت.

اندلع حدسٌ مشؤومٌ في قلبه.

- دعي عنكِ هذا الكتاب.

- لماذا؟ - سألت إرين ولم تفهم.

- دعيه.

أغلقت الفتاةُ المجلَّدَ وفعلت ما قاله صديقها. لمعت الأحرفُ الذهبيّةُ من الغلاف على ضوء المدفأة التي تدفئ المكتبة: Doppelgänger.

ابتعدت إرين عن المكتب بضع خطوات، فإذا هي تشعر باهتزازٍ قويٍّ يقطع الصالةَ تحت قدميها. شحبت ألسنةُ اللهب في المدفأة، واهتزَّت بعضُ المجلَّدات على الرفوف التي لا نهاية لها. ركضت الفتاةُ نحو إسماعيل.

- ما الذي يجري، بحقّ الجحيم...؟ - قال حين استشعر هو الآخر همهمةً مُكثَّفةً تصدر من باطن الدار.

وفي تلك اللحظة انفتح الكتابُ الذي تركته إرين على المكتب بعنف. وانطفأ لهيبُ المدفأة، منعدمًا بنسمةٍ مُتجمِّدة. عانق إسماعيل الفتاةَ وغمرها. انزلق الكتابُ عن المكتب وسقط على الأرض بفعل أيدٍ خفيّة.

- ثمّة شخصٌ آخر هنا. - همست إرين - أشعر بوجوده...

بدأت الصفحاتُ تتقلَّبُ ببطءٍ في مهبّ الريح، صفحةً تلو

صفحة. لاحظ إسماعيل أوراقَ المجلَّد القديم تلتمع بنورٍ ذاتيّ، ورأى للمرَّة الأولى كيف تتبخَّرُ حروفُهُ حرفًا حرفًا، ثمَّ تتشابك في غمامةٍ غازيّةٍ سوداء تتَّخذُ شكلًا فوق الكتاب. ابتلع ذلك الشكلُ كلَّ الكلمات وكلَّ الجمل.

وصار آنذاك متماسكًا بما يشي أنَّه روحٌ حبريّةٌ سوداء ومعلَّقةٌ في الفراغ.

تمدَّدَت الغمامةُ وبرز من العدم شكلٌ له يدان، وذراعان، وقامة. كما انبثق من الظلّ وجهٌ منيع.

شُلَّ إسماعيل وإرين من هول تلك الرؤية المرعبة، ثمَّ راقبا بأعينٍ مصعوقةٍ حولهما كيف تدبُّ الحياةُ بصفحات الكتب التي سقطت على الأرض. احتشد أمام أنظارهما المصدومة جيشٌ من الظلال. ظلالُ أطفال، شيوخ، سيِّدات يرتدين أزياءً احتفاليّةً غريبة... كانوا جميعًا يبدون أرواحًا مسجونة، لا طاقة لهم لاكتساب قوام وحجم. وجوهٌ مُحتَضرة، خاملة، معدومة الإرادة. شعرت إرين أنَّها بصدد أرواحٍ هائمةٍ لكائناتٍ رازحةٍ تحت وطأة لعنةٍ مريعة. رأتهم يمدُّون أيديهم نحوهما، يتوسَّلون المساعدة، لكنَّ أصابعهم تتلاشى في سرابٍ بخاريّ. أحسَّت إرين بفظاعة كابوسهم، وسباتهم القبيح الذي يُطبِقُ عليهم.

وفي الثواني القليلة التي دامت في أثنائها تلك الرؤية، تساءلت تُرى مَن هؤلاء وكيف وصلوا إلى هناك. هل كانوا مثلها، زوَّارًا غافلين إلى قصر كريڤنمور؟ توسَّلت لبرهةٍ أن تجدَ أمَّها بين تلك الأرواح الملعونة التي أنجبها الليل. ولكن، بمجرَّد إشارةٍ من الظلّ، انصهرت هذه الأجسامُ البخاريّةُ في دوَّامةٍ مظلمةٍ

تجتاز الغرفة. فتح الظلُّ فكَّيه وابتلع تلك الأرواحَ جميعًا، وسحق قواها الخائرة. تبع رحيلَها صمتٌ قاتل. ثمَّ فتح الظلُّ عينيه وعرضت نظرتُهُ هالةً داميةً في الظلمات.

حاولت إرين أن تصرخ، لكنَّ صوتَها ضاع في زمجرةٍ مدويّة ضربت كريثنمور. انغلقت أبوابُ الدار ونوافذُها تباعًا كشواهد القبور. وأحسَّ إسماعيل أنَّ ذلك الصدى الجوفيَّ يقطع مئات الممرّات، وشعر أنَّ آماله بالخروج حيًّا تتبخَّرُ في الظلام.

لا شيء سوى بصيصٍ لامعٍ يرسم نصلًا ضوئيًّا عبر قاب السقف، كحبلٍ رقيقٍ مُعلَّقٍ في قمّة تلك الخيمة المهولة. انعكس الضوءُ في نظرة إسماعيل، فأمسك بيد إرين بلا تردُّد، واقتادها بحرصٍ نحو أقصى الصالة.

- لعلَّ المخرجَ الثاني هناك. - همس.

اتَّبعت إرين المسارَ الذي حدَّدَته إصبعُ صديقها. رأت عيناها خيطَ الضوء المتغلغل من ثقب قفلٍ على ما يبدو. المكتبةُ مصمَّمةٌ على شكل تيجانٍ بيضويّةٍ متَّحدة المركز، يقطعها ممرٌّ ضيِّقٌ يصعد لولبيًّا على امتداد الجدار وتتشعَّبُ منه عدّةُ ممرَّات. كانت سيمون قد حدَّثت ابنيها عن المكتبة، ووصفتها بأنَّها نزوةٌ معماريّةٌ في منتهى الغرابة: نهاية ذلك الممرّ متَّصلةٌ بالطابق الثالث من الدار. ولطالما تخيَّلته إرين شبيهًا ببرج بابل من الداخل. وكانت هذه المرَّة هي التي تقود إسماعيل إلى الممرّ، وعندما وصلا تعجَّلت الصعود.

- هل تعرفين إلى أين أنتِ ذاهبة؟ - سأل الفتى.

- ثق بي.

ركض إسماعيل خلفها، مستشعرًا أنَّ الأرض تتصاعد تدريجيًّا تحت قدميه كلَّما توغَّلا في الممرّ. لامس تيَّارُ هواءٍ باردٍ رقبتَه، ورأى أنَّ البقعةَ السوداءَ الكثيفةَ تتَّسع خلف ظهره. كان الظلُّ متماسكًا، تتشابك حوافُّهُ بالظلام. مثل كتلةٍ شبحيّةٍ تتنقَّلُ كبقعة زيتٍ كثيفةٍ ولامعة.

وسرعان ما بلغ ذلك الكيانُ السوداويُّ السائلُ قدميه. شعر إسماعيل بتشنُّجٍ جامد، مثلما حين يسير المرءُ في مياهٍ باردة.

- أسرعي! - هتف.

كان خيطُ الضوء صادرًا، مثلما توقَّعا، من قفل بابٍ يبعد عنهما أمتارًا معدودة. سارع إسماعيل الخطى واستطاع الإفلاتَ من وطأة الظلّ تحت قدميه بضع لحظات. فكَّرَ أنَّ احتمالات أن يكون البابُ مفتوحًا معدومة. لا جدوى من بلوغه ما لم يؤدِّ إلى جهةٍ مّا.

جسَّت إرين القفلَ تحت العتمة، بحثًا عن طريقةٍ تسمح بفتحه. التفت الفتى للتحقُّق من مكان الظلّ، فاكتشفت عيناه ستارةً فاحمة السواد تتهيَّأ قبالته، مثل منحوتةٍ غازيّةٍ كثيفةٍ تتَّخذ شكلًا. تجلّى وجهٌ من القطران أمامه. وجهٌ مألوف. حَسِبَ إسماعيل أنَّ عينيه تخدعانه فرفرف جفنيه. ما زال الوجهُ هناك. وجهه هو.

ابتسم له انعكاسُهُ القاتمُ ابتسامةً شرّيرة، وتدلَّى من بين شفتيه لسانٌ أفعوانيّ. أشهر إسماعيل لاإراديًّا السكّينَ التي استولى عليها من الرجل الآليّ عند مدخل الدار، ولوَّحَ بها على الظلّ. نفخ الوجهُ أنفاسَه الجليديّةَ على السلاح، فتكوَّنت شبكةٌ من صقيعٍ

وثلجٍ متشظٍّ من حدّ النصل إلى القبضة. نقل إليه الحديدُ المتجمِّدُ إحساسًا لاذعًا بالحرقة على راحة يده. وكان البردُ، البردُ الحادُّ، يُحرِقُ بقَدْرِ النار أو أكثر.

أوشك إسماعيل على ترك السلاح، لكنَّه صمد إزاء التشنُّج العضليّ الذي جمَّدَ ساعده، وحاول أن يغرسَ السكّين في وجه الظلّ، الذي انقطع لسانه من ملمس النصل وسقط على إحدى قدميه. وفي الآن ذاته أحاطت كتلةٌ سوداء بكاحله كقشرةٍ فوق الجلد، وباشرت صعودها. كان لتلك المادّة ملمسٌ لزجٌ وجامدٌ يُسبِّبُ الغثيان.

وفي تلك اللحظة سمع طقطقةَ القفل الذي كانت إرين تخلعه خلف ظهره، وانبلج نفقٌ ضوئيٌّ أمامهما. ركضت الفتاةُ في ذلك الاتِّجاه ولحق بها إسماعيل وهو يغلق البابَ لإبقاء مُطارِدِه في الجهة الأخرى. تسلَّقَ الجزءُ، المقطوعُ من الظلّ، على فخذ الفتى واكتسب شكلَ عنكبوتٍ كبير. ألمَّت بساقه صعقةُ ألم. صاح إسماعيل وحاولت إرين أن تستأصلَ ذاك الوحشَ العنكبيَّ. فاستدار العنكبوتُ إلى الفتاة وانقضَّ عليها. وصرخت إرين ذعرًا.

- انزعْه عنّي!

ارتبك إسماعيل، نظر حوله واكتشف مصدرَ الضوء الذي ساقهم حتّى هناك. صفٌّ من الشموع يمتدُّ في العتمة، بتسلسلٍ طيفيّ.

أمسك الفتى إحدى الشموع وقرَّبَ الشعلةَ إلى العنكبوت الذي كان عازمًا على تطويق عنق إرين. وما إن لامسته النارُ حتّى أصدر ذلك الكائنُ فحيحًا غاضبًا وأليمًا، وتفكَّكَ بقطراتٍ سوداء

تساقطت على الأرض كالمطر. ترك إسماعيل الشمعةَ وأبعد إرين عن تلك الشظايا. زلقت القطراتُ على البِلاط بصورةٍ هلاميّة، واتَّحدت بجسمٍ واحدٍ زحف إلى الباب وتغلغل في ثقب القفل وتوارى في الجانب الآخر.

- النار. النار تُرعِبه... - قالت إرين.

- سنحاربه بالنار إذًا.

حمل إسماعيل الشمعةَ ووضعها تحت الباب في حين كانت إرين تلقي نظرةً على الغرفة. كأنَّها ردهةٌ فارغة، لا أثاث فيها، ويكسوها الغبارُ منذ قرون. من الوارد أنَّها كانت فيما مضى مخزنًا أو مستودعًا إضافيًّا للمكتبة. إلّا أنَّ تحليلًا أدقَّ يكشف عن أشكالٍ على السقف. أنابيب صغيرة. أمسكت إرين شمعةً ورفعتها عاليًا لتتفحَّصَ الغرفة. تألَّقَ لمعانُ البِلاط وفسيفساءُ الجدران مع الشعلة.

- أين نحن، بحقّ السماء؟ - سأل إسماعيل.

- لا أدري... هذه تبدو... تبدو أنَّها حمَّامات...

كشف ضوءُ الشمعة عن المرشَّات المعدنيّة، شبكاتٍ من مئة ثقبٍ على شكل أجراسٍ تتَّخذه من الأنابيب. كانت الأفواهُ صدئةً ومغطَّاة بمدينةٍ من شباك العناكب.

- أيًّا كان هذا المكان، من الواضح أن لا أحد قد دخله منذ عصور...

ولم تكد تنهي جملتها حتّى سُمِعَ أنينٌ معدنيّ، لا ريب أنَّه صوتُ دوران صنبورٍ صدئ. هناك في الداخل، بجانبهما.

وجَّهت إرين الشمعةَ نحو الجانب المرصوف بالبِلاط، فرأى كلاهما صنبورين يدوران ببطء.

قطعت الجدرانَ هزَّةٌ عميقة. وبعد صمتٍ قصير، اكتشف الفتيان مصدرَ ذلك الصوت، صوت شيءٍ مّا يزحف في الأنابيب، فوق رأسيهما. شيءٌ يشقُّ طريقه في منظومة الأنابيب الضيّقة.

- إنَّه هنا! - صاحت إرين.

أومأ إسماعيل ولم تحد عيناه عن المرشَّات. وبعد ثوانٍ، بدأت كتلةٌ متماسكةٌ ترشح من الثقوب ببطء. تراجع إسماعيل وإرين، دون أن تشيحَ نظراتُهما عن الظلّ الذي يتشكَّلُ أمامهما رويدًا رويدًا، مثل حبوب الرمل التي تتساقط لتكوين كثيبٍ صغيرٍ في ساعةٍ رمليّة.

تفتَّحت عينان في قلب العتمة. ابتسم وجهُ لازاروس، ودودًا. رؤيةٌ مطمئنة، لولا أنَّهما يعلمان يقينًا أنَّ هذا الذي يظهر عليهما ليس لازاروس. تقدَّمَت إرين نحوه بخطوة.

- أين أمّي؟ - سألت بنبرةٍ متحدّية.

صدر صوتٌ عميق، غير بشريّ.

- إنَّها معي.

- ابتعدي. - قال إسماعيل.

حدَّقَ الظلُّ إليه، وبدا الفتى عرضةً لسحر. هزَّتْهُ صديقتُه وحاولت إبعادَه عن الظلّ، لكنَّه بقي تحت تأثير ذلك الوجود، عاجزًا عن التصرُّف. وقفت الفتاةُ بينهما وصفعت إسماعيل فاستردَّ وعيه فعلًا. تفكَّكَ وجهُ الظلّ بقناعٍ غاضبٍ وذراعين

طويلتين تمتدَّان نحوهما. دفعت إرين صديقها إلى الجدار وحاولت تفادي تلك المخالب.

وفي تلك اللحظة انفتح بابٌ في الظلام، وظهرت هالةٌ نورانيّةٌ في الطرف الآخر من الغرفة. تبدّى طيفُ رجلٍ يحمل قنديلًا زيتيًّا عند العتبة.

- اخرج من هنا! - صاح فعرفت إرين صوته: لازاروس يان، مخترعُ الألعاب.

أصدر الظلُّ صرخةَ حقدٍ فانطفأت الشموعُ واحدةً تلو أخرى. تقدَّمَ لازاروس نحوه. بدا وجهُهُ وجهَ رجلٍ طاعنٍ في السنّ أكثر ممّا تذكره إرين. عيناه، حانقتان بالدم، تكشفان عن إرهاقٍ رهيب، كأنَّهما عينا رجلٍ سحقه مرضٌ عضال.

- اخرج من هنا! - صاح ثانيةً.

تبدّى وجهٌ شيطانيٌّ من الظلّ، وتحوَّلَ إلى غمامةٍ غازيّة، تتسرَّبُ عبر شقوق البِلاط لتهربَ من خلال صدعٍ في الجدار. ورافق هروبَهُ دويٌّ يشبه فحيحَ الرياح خلف النوافذ.

راقب لازاروس الصدعَ قليلًا، ثمَّ توجَّهَ بنظرته الخارقة إليهما.

- ماذا تفعلان هنا؟ - سأل دون إخفاء غضبه.

- جئتُ أبحث عن أمّي، ولن أغادر إلّا معها. - صرَّحت إرين ثابتةً أمام نظرته الحادّة دون أن يرفَّ لها جفن.

- ليس لديكما فكرةٌ عمّا تواجهانه... - قال لازاروس - هيّا، من هذا الجانب. سيعود قريبًا.

اقتادهما إلى الطرف الآخر من الغرفة.

- ما هذا الذي رأيناه؟ ما هو؟ - سأله إسماعيل.

أمعن لازاروس النظر في عينيه طويلًا.

- هذا أنا. ما رأيتَهُ هو أنا...

*

أرشدهما لازاروس عبر متاهة أنفاقٍ مُعقَّدة تقطع باطن كريڤنمور: ما يشبه القنوات الضيِّقة على موازاة الأروقة والممرّات. وكان المسيرُ مُطوَّقًا من كلا الجانبين بأبوابٍ مغلقة، ومداخل مزدوجة لعشرات الغرف والصالات. وكان صدى خطواتهم يتضخَّمُ في ذلك الممرّ الضيِّق، ويوحي بأنَّ جيشًا خفيًّا يزحف وراءهم.

ينشر قنديلُ لازاروس خاتمًا ضوئيًّا مُذهَّبًا على الجدران. نظر إسماعيل إلى ظلِّه وظلِّ إرين يمشيان بجانبهما على امتداد الحائط. أمّا لازاروس فلا ينعكس له ظلّ. توقَّفَ مخترعُ الألعاب أمام بابٍ طويلٍ ومحدود، وأخرج مفتاحًا فكَّ به السلسلة. تقصَّى في عمق الممرّ الذي جاءوا منه وأشار للفتيين بالدخول.

- من هذا الجانب. - قال بنبرةٍ عصبيّة - لن يدخل إلى هنا، بضع دقائق على الأقلّ...

تبادل الفتيان نظرة ريبة.

- لا بديل لديكما. يجب أن تثقا بي. - أضاف لازاروس.

زفر الفتى ودخل الغرفة. تبعته إرين، ثمَّ لازاروس. وأغلق الباب. كشف ضوءُ القنديل عن جدارٍ مكسوٍّ بالصور وقصاصات

الجرائد. وفي الطرف الآخر مهدٌ ومنضدةٌ فارغة. وضع لازاروس القنديلَ أرضًا ونظر إلى الفتيين وهما يعاينان تلك الأجزاء الورقيّة الملصقة على الجدار.

- عليكما أن تغادرا كريڤنمور قبل فوات الأوان.

التفتت إليه إرين.

- لا يسعى إليكما. - أضاف صانعُ الألعاب - إنَّه يريد سيمون.

- لماذا؟ ما الذي يريد فعله بها؟

أخفض لازاروس عينيه.

- يريد أن يُدمِّرَها. لكي يعاقبني. وسيفعل الأمر ذاته بكما إن اعترضتما طريقه.

- وماذا يعني هذا كلُّه؟ ماذا تريد أن تقول لنا؟ - سأله إسماعيل.

- ما يجدر بي أن أقوله لكما سبق أن قلتُه. عليكما أن تخرجا من هنا. سيعود عاجلًا أم آجلًا، ولن أستطيع حمايتكما حينذاك.

- مَن الذي سيعود؟

- لقد رأيتَه بأمّ عينيك.

وفي تلك اللحظة صدرت فرقعةٌ بعيدة، صادرة من إحدى زوايا الدار. كان الصوتُ يقترب. ابتلعت إرين ريقها ونظرت إلى إسماعيل. دوَّت انفجاراتٌ متتاليةٌ تشبه إطلاق النار، واقتربت أكثر فأكثر. ابتسم لازاروس ابتسامةً واهنة.

- ها هو ذا. - قال - لا وقت لديكما.

- أين أمّي؟ أين أخذتَها؟ - اعترضت الفتاة.

- لا أدري، وحتّى لو كنتُ أعرف فلن يجدي هذا نفعًا.

- حضرتك اخترعت تلك الآلة محاكيًا وجهها... - اتَّهمه إسماعيل.

- ظننتُ أنَّه سيكتفي بتلك، لكنَّه أراد أكثر. أرادها هي.

اقتربت الخطواتُ الجهنَّميّةُ كأنَّها تلج الممرّ.

- خلف ذاك الباب ممرٌّ يؤدّي إلى باب الدار. - فسَّرَ لازاروس - إن تبقَّى لديكما حسٌّ سليم، اركضا وابتعدا عن هذا القصر إلى الأبد.

- لن نذهب إلى أيّ مكان. - قال إسماعيل - إلّا ومعنا سيمون.

اهتزَّ البابُ الذي دخلوا منه. ثمَّ تسرَّبت بقعةٌ سوداء من تحت العتبة.

- فلنخرج. - ألحَّ إسماعيل.

أحاط الظلُّ بالقنديل فتحطَّمَ زجاجَه. وانطفأ اللهبُ بنفخة هواءٍ بارد. رأى لازاروس الفتيين يخرجان من الباب الآخر. وكان الطيفُ الأسودُ يتعملق بجانبه.

- دعهما بسلام. - غمغم - إنَّهما مُجرَّد صغيرين. دعهما يهربان. خذني أنا، مرَّةً واحدةً وإلى الأبد. أليس هذا ما تريد؟

ابتسم الظلّ.

*

وجدا نفسيهما في الممرّ الذي يقطع المحورَ المركزيَّ لكريڤنمور. عرفته إرين واقتادت إسماعيل إلى قاعدة القبَّة.

شاهدا من النوافذ الكبيرة السُّحُبَ العابرة، مثل عمالقةٍ من قطنٍ أسود تخترق السماء. وكان المنورُ، الأشبهُ بمكبسٍ يُتوِّجُ ذروة القبَّة، يُفسِحُ هالةً مُسكِرةً من انعكاساتٍ مشكاليّة.

- من هنا. - أشارت الفتاة.

- من هنا، من أين؟ - سألها إسماعيل بعصبيّة.

- أعتقد أنَّني أعرف أين أخفاها.

نظر إلى الخلف. ما زال الممرُّ غارقًا في الظلام، بلا أثرٍ ظاهرٍ لأيّ حركة، لكنَّ الفتى أدرك أنَّ الظلَّ يستطيع التوغُّلَ في ذلك الاتِّجاه من دون أن يفطنا إليه.

- آمل أنَّكِ تعرفين ما الذي تفعلينه. - قال مُتشوِّقًا للابتعاد عن المكان بأقرب وقت.

- اتبعني.

سارت إرين في أحد الأجنحة الممتدَّة في العتمة ولحق بها إسماعيل. خبا ضياءُ المنور ببطء، وغدت أشكالُ المخلوقات الآليّة على جانبيهما مُجرَّدَ أوجهٍ متأرجحة. وكانت الأصواتُ والقهقهاتُ والدقَّاتُ الصادرةُ عن مئات تلك المنظومات تُغطّي صوتَ خطواتهما. نظر الفتى إلى الخلف ثانيةً، مُتفحّصًا فتحة النفق الذي غامرا بدخوله. ولجت نسمةٌ باردةٌ في الممرّ. نظر حوله فعرف ستائرَ الشاش المتمايلة أمامه، المزركشة بذلك الحرف الذي يتراقص ببطء: «A».

- إنَّني واثقةٌ من أنَّه يحتجزها هنا. - قالت إرين.

تراءى البابُ الخشبيُّ المنقوشُ من خلف الستائر، في آخر الممرّ.

انبعثت نسمةٌ باردةٌ ثانية، فاهتزَّت الستائر.

توقَّفَ إسماعيل وحدَّقَ إلى الظلام. كان يحاول أن يستبصر في العتمة، مشدودَ الأعصاب كسلكٍ حديديّ.

- ما بك؟ - سألته إرين وقد استشعرت الحيرةَ التي استبدَّت به.

فتح إسماعيل شفتيه ليجيب، لكنَّه كفَّ عن ذلك. نظرت الفتاةُ إلى الممرّ خلفهما. ثمّة نقطةُ ضوءٍ دقيقةٌ في الطرف الآخر. وما تبقّى، ظلام.

- إنَّه هناك. - قال الفتى - يراقبنا.

تشبَّثَت به إرين.

- ألا تشعرين به؟

- لن نتوقَّفَ هنا يا إسماعيل.

أومأ مؤكِّدًا، لكنَّ أفكارَه كانت في مكانٍ بعيد. أمسكته إرين من يده واقتادته إلى باب الغرفة. وخلال ذلك لم تحد عينا الفتى عن النظر إلى الخلف. وفي النهاية، عندما توقَّفت أمام المدخل، نظر كلٌّ منهما إلى الآخر. وضع إسماعيل يده على المقبض، وأخفضه برفقٍ ومن دون أيّ كلمة. ارتخى القفلُ بطقطقةٍ معدنيّةٍ طفيفة، واستدار اللوحُ الخشبيُّ على المفاصل، لينفتح البابُ إلى الداخل.

كانت الغرفةُ رازحةً تحت ضبابٍ مشبعٍ باللون الأزرق المتبدِّد، تتخلَّلُه ومضاتٌ أرجوانيّةٌ تنبعث من النار.

تقدَّمت إرين خطوتين. بقي كلُّ شيءٍ مثلما تذكره. اللوحة الكبيرة لألما مالتيس تتألَّقُ فوق المدفأة، وانعكاساتُها تتناثر في

جوّ الغرفة الكثيف، مُلمِحةً إلى حوافّ الستائر الحرير الشفيف المحيطة بسرادق السرير. أغلق إسماعيل البابَ خلفهما بحرصٍ ولحق بإرين.

أوقفتْهُ ذراعُ الفتاة. أشارت إلى أريكةٍ موجَّهةٍ نحو المدفأة، ومسندها مُوجَّهٌ إليهما. ومن إحدى ذراعي الأريكة تتدلّى يدٌ شاحبة، مرتخيةٌ على الأرض كزهرةٍ ذابلة.

وفي جوارها تلتمع شظايا بلّوريّةٌ على بقعةٍ سائلة، كلآلئ برَّاقة على سطح مرآة. خفق قلبُ إرين في صدرها أكثر فأكثر. تركت يدَ إسماعيل ودنت من الأريكة خطوةً بخطوة. فأضاء وهجُ اللهب المتراقص وجهًا هامدًا: سيمون.

جثت إرين بجانب أمِّها وأمسكت يدها. عجزت عن جسّ نبض معصمها.

- يا إلهي...

اتَّجه إسماعيل إلى المنضدة وأخذ صينيةً فضّيّةً صغيرة، وهُرِعَ إلى سيمون ووضعها عند فمها. اكتسى سطحُ الصينية بغيمة بخارٍ ذاوية. فتنفَّست إرين الصعداء.

- إنَّها على قيد الحياة. - قال إسماعيل مُتمعِّنًا في وجه المرأة الفاقدة الوعي، وقد حَسِبَ أنَّه يرى فيه ملامحَ إرين ناضجةً وحكيمة.

- ينبغي أن نُخرِجَها من هنا. ساعدني.

وقف كلٌّ منهما على أحد جنبَي سيمون، وأحاطاها بذراعيهما، وحاولا إنهاضها عن الأريكة.

وما إن رفعاها بضعة سنتمترات حتّى سُمِعُ في الغرفة همسٌ عميقٌ ومرعب. توقَّفَ الفتيان ونظرا حولهما. كانت النارُ تستعرض رؤىً عابرةً عديدة لظلّهما على الجدران.

- لا وقتَ نُضيِّعَه. - ألحَّت إرين.

رفع إسماعيل سيمون ثانيةً، لكنَّ الصوتَ هذه المرَّة بات أقرب، واكتشفت عيناه مصدرَه. اللوحة! انطوى الستارُ الذي يُغطّي الصورةَ الزيتيّةَ على صفيحةٍ من ظلمةٍ سائلة، تكتسب حجمًا وتفرد ذراعين طويلتين تنتهيان بمخالب حادّة كالخناجر.

حاول إسماعيل أن يتراجع، لكنَّ الظلَّ قفز عن الجدار كالهرّ، مُخلِّفًا مسارَه في العتمة ليهبط على ظهره. لم يستطع الفتى أن يرى سوى ظلِّهِ وهو ينظر إليه بدوره. ثمَّ نشأ من حوافّه ظلٌّ آخر ينمو هلاميًّا ليبتلع ظلَّهُ الأصليَّ كلّيًا. شعر إسماعيل أنَّ جسدَ سيمون ينزلق من بين ذراعيه. وقبض على عنقه مخلبٌ مُتمكِّنٌ ذو طبيعةٍ غازيّةٍ مُتجمِّدة، ورماه إلى الجدار بقوّةٍ لا تُقهَر.

- إسماعيل! - صرخت إرين.

التفت الظلُّ نحو الفتاة التي ركضت إلى الطرف الآخر من الغرفة. انغلقت عليها ظلالُ قدميها لترسمَ تحتها زهرةً فاتكة. شعرت إرين بملمسٍ جليديٍّ يقشعرُّ منه البدن، نابعٍ من الظلّ الذي استحكم بجسدها وشلَّ عظامها. حاولت التخلُّصَ منه عبثًا، في حين رأت بعينين مذعورتين عباءةً مظلمةً تنفصل عن السقف وتتَّخذُ ملامحَ وجه حنَّة المألوف. وجَّهَت إليها النسخةُ الشبحيّةُ نظرةَ حقد، وكشفت شفاهُها البخاريّةُ عن أنيابٍ طويلةٍ مبلَّلةٍ ولامعة.

- أنتِ لستِ حنَّة. - قالت إرين بما تبقّى لها من صوت.

صفعها الظلُّ فجرح خدَّها. تفتَّحت قطراتُ دمٍ من الجرح وسرعان ما امتَّصَها الظلُّ، كأنَّها تجفُّ جرَّاء تيَّار هواءٍ قويّ. أحسَّت إرين بتشنُّجٍ وغثيان. اقترب منها الظلُّ ولوَّحَ بإصبعين طويلتين ومُسنَّنتين كخنجرين أمام وجهها.

سمع إسماعيل ذلك الصوتَ العميقَ والشرّيرَ وهو ينهض مشدوهًا من أثر الصدمة. كان الظلُّ يرفع إرين في وسط الغرفة، موشكًا على سحقها. صاح الفتى وانقضَّ على تلك الكتلة. اخترقها بجسده، فتفكَّكَ الظلُّ متحوِّلًا إلى آلاف القطرات الدقيقة التي تساقطت على الأرض كأمطارٍ من فحمٍ سائل. رفع إسماعيل إرين وأبعدها عن الظلّ الذي اتَّحدت شظاياه على الأرض بدوَّامةٍ اهتزَّ من روعها الأثاثُ المحيطُ بها فتطاير على الجدران والنوافذ ليغدو قذائفَ قاتلة.

ارتمى إسماعيل وإرين على الأرض. طارت المنضدةُ إلى إحدى الخزائن الزجاجيّة فأحالتها حطامًا. تدحرج إسماعيل فوق إرين ليقيها من الضربة. وعندما رفع عينيه، كانت دوَّامةُ الظلام تتماسك. فردت جناحين سوداوين كبيرين، وبرز الظلُّ أقوى وأعتى من قبل. رفع مخلبَه وأظهر كفَّه التي انبثقت منها عينان وشفتان.

استلَّ إسماعيل السكّينَ ولوَّحَ بها، وقد أبقى إرين خلف ظهره. نهض الظلُّ وتحرَّكَ نحوهما. أمسك مخلبُهُ بنصل السكّين. شعر الفتى بتيّارٍ جليديٍّ يصعد على أصابعه ويديه ليشلَّ ذراعه بأكملها.

سقط السلاحُ منه أرضًا، والتفَّ الظلُّ عليه. حاولت إرين أن تُخلِّصَهُ ولكن بلا جدوى. حمل الظلُّ إسماعيلَ نحو النار.

وفي تلك اللحظة تمامًا، ينفتح بابُ الغرفة ويتبدّى شخصُ لازاروس عند العتبة.

*

انعكس الضوءُ الطيفيُّ، المتصاعدُ من الغاب، على الزجاج الأماميّ لسيَّارة الدرك التي تتقدَّمُ الموكب. تتبعها سيَّارةُ الطبيب جيرو وعربةُ إسعافٍ استُدعِيَت من مستشفى لاروشيل. وكان الموكبُ يقطع طريقَ شارع الإنكليز بسرعة.

كان دوريان جالسًا بجوار هنري فور، رئيس قسم الشرطة؛ فاستطاع أن يلاحظَ قبل الآخرين كيف تصاعدت هالةٌ ذهبيّةٌ بين الأشجار. تراءى كريڤنمور ما وراء الغاب، كشبح زوبعةٍ عملاقةٍ وسط الضباب.

قطَّبَ قائدُ الدرك جبينه وشهد على تلك الرؤية التي لم يرَ مثيلًا لها في البلدة خلال اثنين وخمسين عامًا.

- أسرع، أسرع! - ألحَّ دوريان.

نظر الضابطُ إلى الفتى، وبينما كان يمتثل لطلبه تساءل ما إذا كانت ثمّة حقيقةٌ في حكاية ذاك الحريق المزعوم.

- هل أخفيتَ عنّي شيئًا؟

لم يجب دوريان واقتصر على النظر إلى الأمام.

زادَ الضابطُ السرعةَ إلى حدودها القصوى.

*

التفت الظلّ. وحين رأى لازاروس، رمى إسماعيل كما لو كان ميتًا. ارتطم الفتى بالبِلاط وصدرت عنه صرخةُ ألمٍ مكبوتة. فهُرِعَت إرين لإغاثته.

- خذيه من هنا. - قال لازاروس، وهو يتقدَّمُ ببطءٍ نحو الظلّ الذي بات يتراجع.

أحسَّ إسماعيل بوخزةٍ في كتفه فتأوَّه.

- هل أنت بخير؟ - سألته الفتاة.

غمغم الفتى بعبارةٍ غير مفهومة، لكنَّه نهض وأومأ برأسه. وجَّهَ إليه لازاروس نظرةً حادّة.

- خذيه وانصرفا من هنا. - قال.

كان الظلُّ يفحُّ كالأفعى مُتربِّصًا. قفز إلى الجدار بغتةً وابتلعته اللوحةُ من جديد.

- قلتُ انصرفا من هنا! - صرخ لازاروس.

أمسك إسماعيل وإرين بسيمون وسحباها نحو العتبة. وقبل أن يخرجا بها، التفتت إرين فرأت لازاروس يدنو من السرير المحاط بالستائر التي أزاحها بحرصٍ شديد. تراءى طيفُ امرأةٍ من خلف الستائر.

- انتظر... - غمغمت إرين بقلبٍ يغصُّ حزنًا.

لا بدَّ أنَّها ألما. ارتعشت عندما رأت دموعَ لازاروس تسيل على وجهه. عانق مخترعُ الألعاب المرأةَ. لم تر إرين من قبلُ أحدًا يعانق شخصًا آخر بكلّ هذا القدْر من الإخلاص. كلُّ حركات لازاروس وإيماءاته تُبيِّنُ مودَّةً وحنانًا نابعين من حياةٍ كاملةٍ أمضاها بتبجيل تلك المرأة والتفاني من أجلها. عانقته ألما

بدورها، وبقيا ملتحمين في العتمة طوال لحظةٍ سحريّةٍ بمعزلٍ عن هذا العالم. راودت إرين رغبةٌ في البكاء من حيث لا تدري، لكنَّ رؤيةً أخرى، رهيبةً وخطيرة، منعتها.

كانت البقعةُ تنزلق وتتلوَّى، من اللوحة إلى السرير. انتاب الفزعُ الفتاةَ.

- انتبه يا لازاروس!

التفت مخترعُ الألعاب ورأى الظلَّ ينهض أمامه وهو يزمجر غضبًا. تحدَّى ذلك الكيانَ الجهنَّميَّ بالنظر إليه مباشرةً، دون إبداء خشيته. ثمَّ نظر إلى الفتيين، كأنَّ عينيه تقولان كلامًا لا يفهمانه. لكنَّ إرين أدركت ما الذي ينوي لازاروس فعله.

- كلّا! - صرخت، وشعرت أنَّ إسماعيل يستبقيها.

اقترب مبتكرُ الألعاب من الظلّ.

- لن تخطفها مرَّةً ثانيةً أبدًا...

رفع الظلُّ مخلبَه، مستعدًّا لمهاجمة صاحبه. أدخل لازاروس يده في جيب سترته وأخرج غرضًا لامعًا. مُسدَّسًا.

دوَّت قهقهةُ الظلّ في الغرفة كعواء الضبع.

وضع لازاروس إصبعه على الزناد. نظر إليه إسماعيل حائرًا. فابتسم له المخترعُ وسرعان ما سقط المسدَّسُ من يده. وتفشَّت بقعةٌ قاتمةٌ على صدره. دماء.

صرخ الظلُّ فارتجَّت الدارُ برمَّتها. صرخةُ رعب.

- يا إلهي... - انتحبت إرين.

ركض إسماعيل ليُسعِفَ لازاروس، إلّا أنَّ العجوزَ رفع يدًا ليمنعه.

- لا. اتركاني معها. وانصرفا... - غمغم فيما كان الدمُ يسيل من فمه.

حمله إسماعيل بذراعيه وقرَّبَه إلى السرير. وهكذا صُعِقَ حين رأى وجهًا شاحبًا وحزينًا. حدَّقَ إسماعيل إلى ألما مالتيس عن كثب. وكانت عيناها الحزينتان ترمقانه، سارحتين في سباتٍ ما كانت لتفيقَ منه.

آلة.

كان لازاروس قد عاش طوال تلك السنوات صحبة آلةٍ لإبقاء ذكرى زوجته حيّةً، هذه الذكرى الذي انتزعها منه الظلّ.

تراجع إسماعيل مشدوهًا. ونظر إليه لازاروس مُستعطِفًا.

- دعني معها بمفردي... أرجوك.

- لكنَّها... مجرَّدُ... - بادر إسماعيل.

- إنَّها كلُّ ما أملك...

فهم الفتى عندئذٍ لماذا لم يُعثَر على جسد المرأة الغارقة عند جزيرة المنارة. كان لازاروس قد انتشلها من المياه وأنعش فيها الحياة، حياةً لا وجود لها، حياةً آليّة. وإذ عجز عن مواجهة الوحدة وفقدان زوجته، صنع شبحًا انطلاقًا من جسدها، انعكاسًا مأساويًّا ساكَنَهُ طوال عشرين عامًا. وعرف إسماعيل حين نظر إلى عينيه المحتضرتين، أنَّ ألما مالتيس ما تزال حيّةً في قلب لازاروس، بطريقةٍ لم يكن ليفهمها.

وجَّهَ إليه مخترعُ الألعاب نظرةً أخيرةً تطفح بالأسى. فهزَّ الفتى رأسه مُتفهِّمًا وعاد إلى جانب إرين. لاحظت الفتاةُ شحوبَ وجهه، كما لو أنَّه رأى الموت.

- ماذا. . .؟

- فلنغادر من هنا. بسرعة. - حثَّها إسماعيل.

- ولكن. . .

- قلت فلنغادر!

سحبا معًا سيمون إلى الممرّ. انغلق البابُ بشدّةٍ خلفهما، مُحتَجِزًا لازاروس في الغرفة. ركض الفتيان بقدر المستطاع نحو المعراج الكبير، وهما يحاولان تجاهلَ الصرخات الوحشيّة الآتية من خلف ذلك الباب. صوت الظلّ.

*

نهض لازاروس يان عن السرير وواجه الظلَّ وهو يترنَّح. رماه الشبحُ بنظرةٍ خائبة. كان ثقبُ الطلقة الصغيرُ يتَّسع، ليبتلعَ كلَّ لحظةٍ تمرّ. قفز الظلُّ ليختبأ في اللوحة، لكنَّ لازاروس في هذه المرَّة أمسك خشبةً مشتعلة وأحرقَها.

شبَّت النيرانُ في الرسم مثلما تجتاح الأمواجُ مستنقعًا راكدًا. عوى الظلُّ، وبدأت صفحاتُ ذلك الكتاب بالنزيف، في ظلمات المكتبة، إلى أن اندلعت نارًا.

زحف لازاروس نحو السرير ثانيةً، لكنَّ الظلَّ وقد استشاط غيظًا قفز إليه، مُخلِّفًا شريطًا ناريًّا. اضطرمت ستائرُ السرادق، وانتشرت الألسنةُ الملتهبةُ على السقف والبِلاط، لتبتلعَ كلَّ ما يعيق طريقها بحقدٍ مكين. وتحوَّلَت الغرفةُ في غضون ثوانٍ إلى جحيم خانقة.

أطلَّت النيرانُ من إحدى النوافذ، وانفجر ما تبقّى من زجاج،

واختنق هواءُ الليل بعنفٍ لا يشبع. قُذِفَ بابُ الغرفة المضطرمُ إلى الممرّ، وانتشرت النيرانُ كالوباء، ببطءٍ ولكن بلا توقُّف، لتُحكِمَ قبضتَها المتأجِّجة على أرجاء الدار.

وكان لازاروس يسير وسط السعير، فأخرج القارورةَ البلّوريّةَ التي استوعبت الظلَّ أعوامًا، ورفعها بيديه. فولج فيها الظلُّ وهو يزمجر يائسًا. تشظَّى البلّورُ بشبكةٍ عنكبوتيّةٍ من صقيع. سدَّ لازاروس القارورة، ونظر إليّها للمرَّة الأخيرة، ثمَّ ألقاها وسط النيران، حيث انفجرت إلى ألف قطعة. انطفأ الظلُّ إلى الأبد، مثل زفير لعنةٍ تزول. وشعر مخترعُ الألعاب أنَّ الحياةَ تفارقه شيئًا فشيئًا من خلال ذلك الجرح المميت.

*

عندما وصل إسماعيل وإرين إلى باب الدار، يحملان سيمون التي لم تزل فاقدة الوعي، كانت ألسنةُ اللهب تطلُّ من نوافذ الطابق الثالث. فانفجر الزجاجُ واحدًا تلو الآخر، واندلعت بذلك عاصفةٌ من بلّورٍ مشتعلٍ تنهال على الحديقة. ركض الفتيان إلى مشارف الغاب، وما إن لاذا بالشجر توقَّفا لينظرا إلى الخلف.

كان كريڤنمور يحترق.

مكتبة
t.me/soramnqraa

13. أضواءُ سبتمبر

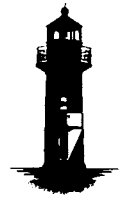

دمَّرَ الحريقُ كلَّ الأعاجيب، التي كانت تسكن عالمَ لازاروس يان، في تلك الليلة من العام ١٩٣٧. تحوَّلت عقاربُ الساعات الناطقة إلى فتائل حديدٍ مصهور. راقصاتٌ وفرقٌ موسيقيّة، سحرة، ساحراتٌ ولاعبو شطرنج: لم يعد لهذه العجائب وجود، فالنارُ لم ترحم أحدًا. اكتسح شبحُ الدمار الطوابقَ والغرف، ومحى كلَّ ما يحتويه ذلك المكانُ السحريُّ والرهيبُ إلى الأبد.

اختفت عشراتُ الخيالات، مُخلِّفةً وراءها شريطًا من رمادٍ ليس إلّا. واحترقت كلُّ الصور والقصاصات التي جمعها لازاروس يان، في كلّ مكانٍ من تلك الجحيم، لا شاهد سوى النار. وبينما كانت سيَّاراتُ الشرطة تصل إلى ذلك الموقد الغرائبيّ الذي أشعل الفجرَ في منتصف الليل، أُغمِضَت عينا الطفل المذعور إلى الأبد، في غرفةٍ خاليةٍ من الألعاب، وستبقى كذلك أبدَ الدهر.

ما كان إسماعيل لينسى اللحظات الأخيرة للازاروس ورفيقته. وكان آخرُ ما استطاع رؤيته هو تلك القبلة التي لثمها المخترعُ على جبين حبيبته. فأقسم الفتى حينذاك أنَّه سيحافظ على ذلك السرّ حتّى آخر يومٍ من عمره.

*

كشفت أضواءُ الصبح عن سحابةٍ من رمادٍ تجري نحو المدى فوق الخليج الأرجوانيّ. وبينما كان الفجر ينثرُ الندى على شاطئ الإنكليز، تبدَّت أطلالُ كريڤنمور فوق قمم الأشجار، ما وراء الغاب. كانت لوالبُ الدخان الذاوي تتصاعد نحو السماء، مُخلِّفةً دروبًا من جلدٍ أسود على السُّحُب، دروبًا لا تقطعها سوى أسراب الطيور المحلِّقة باتِّجاه الغرب.

يرفض ستارُ الليل أن يُزاح، كما أنَّ الضبابَ النحاسيَّ الذي يُغطّي جزيرةَ المنارة يتحلَّلُ في سرابٍ من أجنحةٍ ناصعة البياض، تُحلِّقُ في نسائم الفجر.

وكان إسماعيل وإرين جالسين على الرمل الأبيض الممتدّ، في منتصف الطريق بين لا مكانين، يتمعَّنان في الدقائق الأخيرة من تلك الليلة الطويلة من العام ١٩٣٧. تشابكت أيديهما بصمت، في حين كانت أولى خيوط الشمس الزهريّة المنبلجة من بين الغيوم تخطُّ دربًا من لؤلؤٍ برَّاقٍ نحو عرض البحر. استطال برجُ المنارة وسط الضباب، قاتمًا ووحدانيًّا. ارتسمت ابتسامةٌ طفيفة على شفتي إرين عندما أدركت أنَّ تلك الأضواء، التي رآها سكَّانُ المنطقة تلتمع في الضباب، انطفأت إلى الأبد. تلاشت أضواءُ سبتمبر بالتزامن مع بزوغ الفجر.

لا شيء، بما فيه ذكرى أحداث ذلك الصيف، سيُبقي روحَ ألما مالتيس مُعلَّقةً في الزمن. نظرت إرين إلى إسماعيل، بينما كانت تلك الأفكارُ تتوه في المدّ. لمعت دمعةٌ في عينيها، لكنَّ الفتاةَ قاومت ولم تذرفها.

- فلنعد إلى البيت. - قال رفيقها.

أومأت إرين وسلكا معًا طريقَ العودة نحو بيت الرأس، يمشيان على امتداد الشاطئ. لاحت فكرةٌ في ذهن الفتاة: في عالمٍ من أضواءٍ وظلال، على كلٍّ منّا أن يجد دربَه الخاصّ به.

وبعد أيَّام، عندما كشفت سيمون عمّا قاله الظلّ، قصّة لازاروس يان وألما مالتيس الحقيقيّة، اكتملت كلُّ الأجزاء الناقصة من الأحجية. ورغم هذا، ما كان لتسليط الضوء على ما وقع بالفعل ليُغيِّرَ مجرى الأحداث. فاللعنة طاردت لازاروس يان منذ طفولته الحزينة وحتّى موته. وقد اختار ذلك الموتَ بنفسه، في اللحظة الأخيرة، باعتباره المخرجَ الوحيد. لم يعد أمامه ما يفعله سوى تلك الرحلة الأخيرة للانضمام إلى ألما، هروبًا من ظلِّه ومن شرور إمبراطور الظلمات المجهول، الذي يختبئ خلف اسم دانيال هوفمان. فحتّى هذا، رغمًا عن كلّ سطوته وحيله، لم يعد قادرًا على تحطيم الرباط الذي يُوحِّدُ لازاروس، بمعزلٍ عن الحياة والموت.

باريس، ٢٦ مايو ١٩٤٧

إسماعيل العزيز،

لقد مرَّ وقتٌ طويلٌ منذ آخر مرَّةٍ راسلتُك فيها. وقتٌ طويلٌ جدًّا. وفي النهاية، ومنذ أسبوعٍ لا أكثر، حدثت المعجزة. كلُّ الرسائل التي بعثتَها، طوال هذه الأعوام، إلى عنواني القديم، وصلتني بفضل جارتنا الطيِّبة، العجوز المسكينة التي أتمَّت التسعين عامًا! كانت قد احتفظت بها جميعًا طوال تلك المدَّة، عسى أن يأتي أحدهم لاستلامها يومًا مّا.

قرأتُها في هذه الأيَّام، مرارًا وتكرارًا، حتّى أصابني التعب. احتفظتُ بها باعتبارها أثمن كنوزي. أمّا أسباب صمتي، وغيابي الطويل هذا، فيصعب عليَّ توضيحها. لك أنت على وجه الخصوص، يا إسماعيل. لك أنت على وجه الخصوص.

لم يتخيَّل الفتيان اللذان كانا عند شاطئ الإنكليز، في الصباح الذي احترق فيه ظلُّ لازاروس يان، لم يتخيَّلا وجودَ ظلٍّ أشدَّ رعبًا منه يجثم على قلب هذا العالم. ظلُّ الحقد. أفترض

أنَّنا فكَّرنا جميعًا في الكلام المتعلِّق بدانيال هوفمان و«مشروعه» في برلين.

وعندما فقدتُ التواصلَ معك، أثناء أعوام الحرب المريعة، كتبتُ إليك مئات الرسائل التي لم تصل إلى وجهتها إطلاقًا. ما زلتُ أتساءل أين هي، أين انتهت كلُّ تلك الكلمات، وكلُّ تلك الأشياء التي أردتُ إبلاغك بها. أريدك أن تعلم أنَّ ذكراك، وذكرى ذلك الصيف الذي أمضيتُه في الخليج الأزرق، كانا بالنسبة إليَّ بمثابة الشمعة التي أبقتني على قيد الحياة، خلال فترة الظلام الرهيب، وأمدَّتني بالقوَّة التي أعانتني على الصمود يومًا بيوم.

واعلمْ أنَّ دوريان انخرط في الجيش وقاتل مدَّة عامين في شمال أفريقيا، وعاد من هناك بأكداسٍ من الأوسمة القصديريّة الحمقاء، وإصابةٍ ستجعله يعرج إلى آخر يوم في عمره. كان من بين المحظوظين. لأنَّه عاد حيًّا. سيُسعِدك أن تعلم أنَّه في نهاية المطاف وجد عملًا في قسم دراسة الخرائط بالبحريّة التجاريّة؛ وأنَّه عندما تتركه خطيبتُه ميشيل (شخصيّة فريدة، ينبغي أن تتعرَّفَ عليها...) ينعم بالحرّيّة قليلًا، يقطع العالمَ من أعلاه إلى أدناه صحبة فرجاره.

أمّا عن سيمون، فماذا عساني أقول؟ أحسدها على قوَّتها وثباتها اللذين ساعدانا على المضيّ قُدُمًا مرَّاتٍ عديدة. كانت أعوامُ الحرب ثقيلةً عليها، بما يفوق طاقتنا جميعًا. لا تتحدَّثُ في الأمر أبدًا، لكنَّني حين أراها صامتةً أحيانًا، بجانب النافذة، تنظر إلى المارّة، أتساءل تُرى ما الذي تُفكِّرُ فيه. لم تعد تودُّ

الخروج من البيت، وصارت تُمضي ساعاتها مع أعزّ رفيقةٍ لديها: القراءة. كما لو أنَّها عبرت إلى الجانب الآخر من جسر، ولا أدري كيف أصل إليها... أفاجئها أحيانًا وهي تشاهد صورًا قديمة لأبي وتبكي في صمت.

وبالحديث عن نفسي، فأنا بخير. منذ شهر، تركتُ مستشفى سان برنار، حيث عملتُ في هذه الأعوام. سيهدمونه. آمل أن تختفي مع المبنى القديم كلُّ ذكريات المعاناة والأهوال التي شهدتُ عليها في أيّام الحرب. أعتقد أنَّني أنا أيضًا تغيَّرتُ يا إسماعيل. تغيَّرَ شيءٌ مّا في نفسيَّتي.

رأيتُ أشياءَ كثيرةً ما كنتُ لأتخيَّلَ أنَّها قد تقع... في هذا العالم ظلالٌ يا إسماعيل. ظلالٌ أسوأ من أيّ خطبٍ صارعناه أنت وأنا في تلك الليلة في كريڤنمور. ظلالٌ، يصبح دانيال هوفمان لعبةَ أطفالٍ قياسًا بها. ظلالٌ تنبعث من بواطن كلّ واحدٍ منّا.

أُعزّي نفسي أحيانًا بأنَّ أبي قد رحل قبل أن يصادفها. ومن جهةٍ أخرى أراني بتُّ مشتاقة. إلى لا شيء. فما إن قرأتُ رسالتك الأخيرة، حتّى شعرتُ بغصَّةٍ في القلب. كما لو أنَّ الشمسَ أشرقت بعد غياب عشرة أعوام غائمةٍ وماطرة. تخيَّلتُني أمشي على شاطئ الإنكليز، وأتَّجهُ إلى جزيرة المنارة، وأقطع الخليجَ على متن قارب كيانيوس من جديد. سأتذكَّرُ تلك الأيّامَ ما حييتُ، باعتبارها أروع أيَّام حياتي.

أعترف لك بسرّ. في كثيرٍ من المرَّات، خلال الليالي الشتويّة الطويلة إبّان الحرب، وبينما تندلع الاشتباكاتُ الناريّةُ وتدوّي الصرخاتُ في الظلام، كانت أفكاري تأخذني إلى هناك مجدَّدًا،

إلى جانبك، إلى اليوم الذي أمضيناه في جزيرة المنارة. ليتنا لم نغادر ذلك المكان. ليت ذلك اليوم لم ينتهِ.

أتصوَّرُ أنَّك تتساءل ما إذا تزوَّجتُ. الإجابة هي لا. لم ينقصني الخاطبون بطبيعة الحال، إيَّاك والظنّ! ما زلتُ شابّةً تُحرزُ نجاحًا ملحوظًا. حظيتُ بخِلَّان، علاقات عابرة. كانت أيَّامُ الحرب أثقلَ من أن يُمضيها المرءُ في عزلة، وأنا لستُ قويَّةً مثل سيمون. ولكن، لا أكثر من ذلك. تعلَّمتُ أنَّ العزلةَ أحيانًا كالدرب الذي يُفضي إلى السلام. ولم أتمنَّ خلال أشهرٍ غير السلام.

هذا كلُّ شيء. أو لا شيء. كيف لي أن أشرح لك كلَّ عواطفي، وكلَّ ذكرياتي التي تراكمت في هذه الأعوام؟ أُفضِّلُ أن أمحوها بضربةٍ واحدة. أودُّ أن تكونَ ذكراي الأخيرة هي في ذلك الفجر عند الشاطئ، لعلّي أكتشف أنَّ كلَّ هذه المدَّة لم تكن سوى كابوسٍ طويل. أودُّ أن أكونَ فتاةً في عامها الخامس عشر من جديد، وألّا أستوعبَ العالمَ الذي يحيط بي، لكنَّ هذا مستحيل.

لا أريد أن أواصلَ الكتابة. أريد أن نتحادث في المرَّة القادمة وجهًا لوجه.

بعد أسبوع، ستسافر سيمون إلى شقيقتها في إكس إن بروفانس وستمكث عندها شهرين. سأعود في ذلك اليوم إلى محطّة أوسترليتز مرَّةً أخرى، وسأركب القطارَ إلى النورماندي، مثلما حدث قبل عشرة أعوام. أعلم أنَّك ستكون بانتظاري، وأعلم أنَّك ستعرفني من بين الجموع، مثلما سأعرفك حتّى لو مرَّ ألف عام. أعلم هذا منذ وقتٍ طويل.

قبل أبديَّةٍ من اليوم، وفي أسوأ أيَّام الحرب، راودني حلم. رأيتُني عائدةً للتنزُّه على شاطئ الإنكليز معك. الشمس تغرب، وجزيرة المنارة تتراءى وسط الضباب. كلُّ شيءٍ على حاله: بيت الرأس، الخليج... بل وحتّى أطلال كريڤنمور ما وراء الغاب. كلُّ شيء على حاله، ما عدانا. كنّا عجوزين جميلين: أنت، ما عدتَ قادرًا على ركوب البحر، وأنا، وقد ابيضَّ شعري حتّى بدا رمادًا. لكنَّنا كنّا معًا.

ومنذ تلك الليلة عرفتُ أنَّ لحظتنا ستحين يومًا مّا، بغضّ النظر عن التوقيت. وأنَّ أضواءَ سبتمبر - في مكانٍ بعيد - سوف تُنارُ لنا. وأنَّه لا وجود لظلالٍ تعترض طريقَنا هذه المرَّة.

بل إنَّ هذه المرَّة سوف تدوم إلى الأبد.

مكتبة
t.me/soramnqraa

هذا الكتاب

في صيف العام ١٩٣٧، تترمَّل سيمون سوڤيل بشكلٍ مفاجئ، فتجهر مدينة باريس، هربًا من الديون الثقيلة التي خلَّفَها زوجها، صحبة ابنيها، إرين ودوريان، وتنتقل إلى بلدةٍ ساحليَّةٍ صغيرة، حيث سيمدُّ لها يدَ العون رجلٌ نبيل، لازاروس يان، الثريُّ صاحب مصنع الألعاب، وتعمل لديه مُدبِّرَةً لشؤونه المنزليَّة في داره الرحبة.

يمضي كلُّ شيء على ما يرام: يُثبِتُ لازاروس أنَّه شهمٌ وكريم، يراعي سيمون وابنيها. وتتعرَّف إرين على الفتى إسماعيل، وتقع في غرامه.

ولكن، ما تلك الأضواء التي تلتمع في الضباب حول الجزيرة الصغيرة؟ وماذا وراء الأحداث والرؤى الغريبة التي تزعزع الانسجام في دار مُبتَكِرِ الألعاب؟ وما سرُّ الشبح الذي يتلبَّسُ تلك الدار؟

سيكون لزامًا على إرين وإسماعيل أن يكافحا ضدَّ عدوٍّ غير مرئيٍّ لإنقاذ سيمون، وكشف غموض السرّ الذي يكتنف دار لازاروس ومصنع ألعابه العجيبة.

الغلاف : سكينة صلوّن
ISBN 978-9922220925
9 789922 220925

مكتبة
t.me/soramnqraa